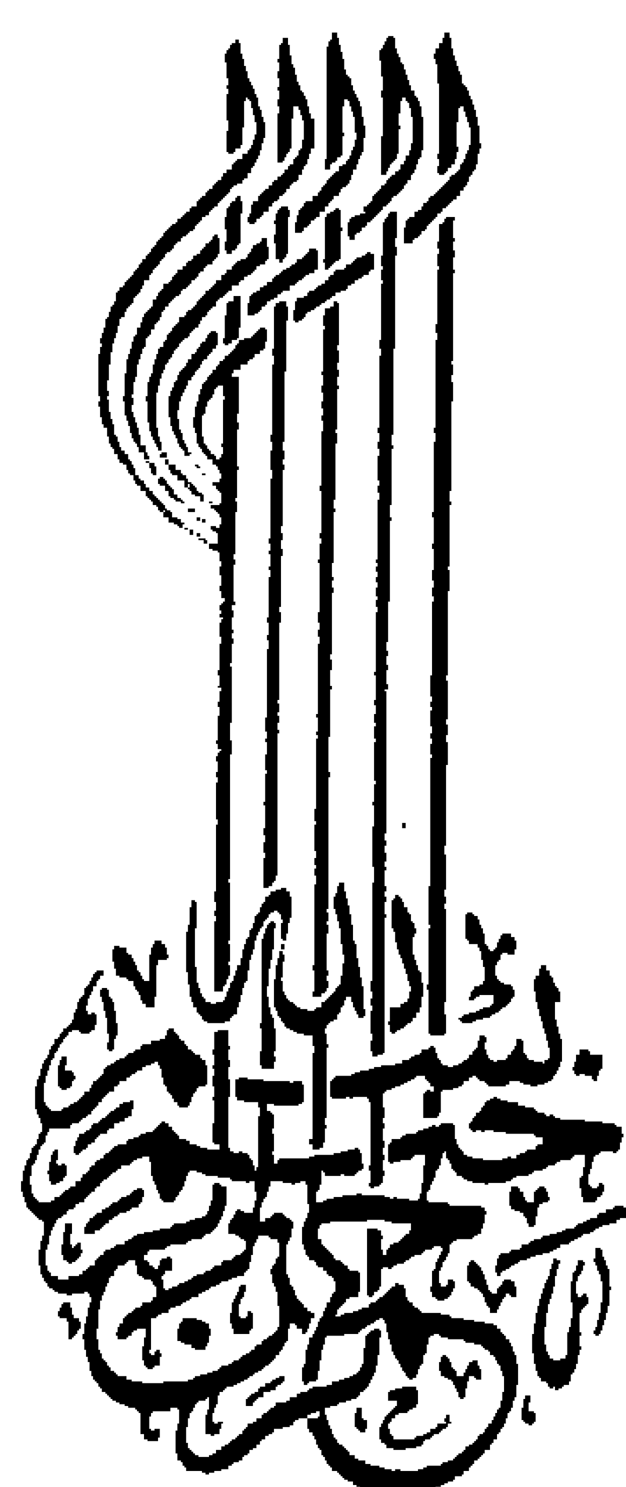
الإسلام الفاتح

دكتور حسين مؤنس

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

الزهراء
للإعلام
العربي


بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربى
قســم النشــر

ص.ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافيا : زاهراتيف - تليفون : ٤٠٢١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦
P.O: 102 Madinat Nasr - Cairo Cable : Zahratif - Tel : 4021988 - 2611106

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

د. حسين مؤنس

الإسلام الفاتح

الزهراء
للإعلام
العربي



بين يدى الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على نبيه وصفيه خاتم المرسلين وبعد ..

فإنى نظرت فى مصور الأرض أتقَرَّى مازوى للإسلام من جوانب هذا الكوكب ، فأحسست أول الأمر بالرضا والاطمئنان ، فقد بلغت رسالة الإسلام من نواحى هذه الأرض مبلغا ترضى عنه النفس ويطمئن له القلب .

وتفكرت فى نفسى فى الحساب الختامى ، لما كسب الإسلام وماخسر من البلاد والعباد فى صراع الزمان ، إلى يومنا هذا ، فوجدت أن نتيجة الحساب تدعو إلى الاستبشار ، فإننا فى صراعنا الطويل لم نخسر من الكثير الذى كسبناه إلا القليل : خسرنا الأندلس ، وصقلية ، ومعظم جزائر البحر المتوسط ، ولكننا عوضنا هذه الخسائر بمكاسب أخرى ، فأدخلنا دولة الروم وبلادها رحاب الإسلام بعد طول صبر وعناء ، وامتد الإسلام بنفسه ففتح أفريقية المدارية ، وجزءا طبيعيا من أفريقية الاستوائية ، ومد ذراعه المباركة ، فوصلت إلى المحيط الهادى ، وضمت إلى أسرة الإسلام بلاد إندونيسيا وماليزيا وجزءا لابأس به من جزائر الفيلبين .

ثم رددت الفكر ، فشعرت بشىء من تأنيب الضمير ، فقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله بالهدى ودين الحق ليدخل فيه أبناء آدم أجمعين ، ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه عندما أنشأ أمة الإسلام في المدينة ، وبدأ مغازيه ، استطاع فى عشر سنوات ، أو نحوها ، أن يدخل فى الإسلام جزيرة العرب كلها ، وهى وحدها سدس مساحة عالم الإسلام ، وكان المأمول بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، أن نواصل مغازيه ، حتى لاتبقى على وجه الأرض نفس إلا وقد ملأها نور الإيمان .

ولكننا توانينا وقصرنا ، ووقفنا بالمغازى عند جزء من الطريق الطويل ، وصرفتنا بعد ذلك شئون الدنيا عن الغرض الأسمى ، ولكننا لسنا بعد فى آخر الزمان ، ولازالت أمة الإسلام بخير ، والله سبحانه وتعالى يبعث في قلوب أهلها من الغيرة والحمية ، وفحولة الأجيال الأولى ، فتواصل الدعوة التى تحقق الرجاء ، ونلقى ربنا يوم المعاد ، وقد قمنا بحق الله تعالى علينا ، حتى لانقف صامتين وقد أظلنا الخزى عندما نذكر قول الله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خبير بما تعملون ﴾ .

وأعدت النظر فى الصور لأرى مافتحنا بجهادنا ، ومافتح الإسلام بنفسه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فخشعت نفسى ، لأننى وجدت أن الإسلام فتح بنفسه أضعاف مافتحنا ، وأن دعوة الحق فى تاريخنا كانت أمضى من كل سلاح ، حتى البلاد التى خضنا المعارك

لندخلها كان الإسلام هو الذى فتح قلوب أهلها واستقر فيها ، وجعل بلادهم دياره .

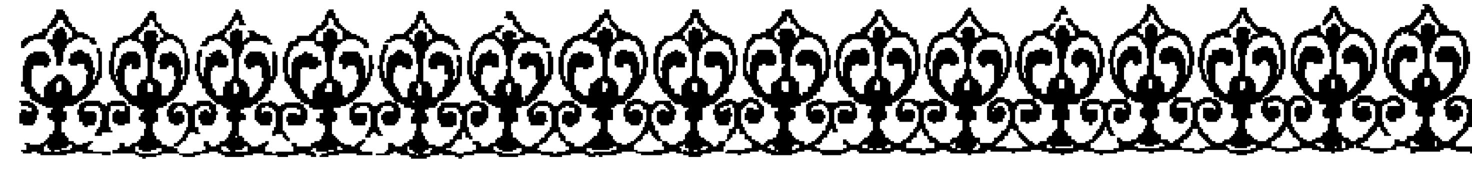
ورأيت الإسلام منذ أكرم الله الأرض به فاتحا مظفرا ، يجد طريقه إلى القلوب ، كما ينساب الماء الطيب فى الأرض ، فيحييها ، فتخضر وتخرج ثمرا زكيا .

عن هذا الإسلام الفاتح أكتب هذه الصفحات وأهديها لدعوة الحق ، لأن دعوة الحق هى البداية وهى النهاية ، وهى النور والهداية ، وهى نعمة الله الكبرى على عباده ، له الحمد والمنة ، وهو على كل خير مستعان .

القاهرة ، جمادى الأولى (١٤٠٠) هـ
مارس (١٩٨٠) م

د . حسين مؤنس





مداخل الإسلام ومسالكه



طبيعة فتوح الإسلام :

ديوان الفتوح الإسلامية حافل بأسماء عظماء الفاتحين ، وأولهم وأجلهم هو رسول الله ﷺ ، فهو الفاتح الأكبر ، بشر بالرسالة والقلوب من حوله مغاليق عليها أقفالها ، فمازال يدعو ويهدى حتى فضّ أقفال القلوب ، فانساب فيها نور الهدى ، وأشرقت بضياء الإسلام ، وخالطتها بشاشته فسمت وصفت ، وخلصت من جهل الجاهلين ، وتكونت حوله صلوات الله عليه فى المدينة تلك العصبة من أولى القوى ، ممن نقلهم نور الإسلام والأسوة الحسنة برسوله من ضياع الجاهلية والشرك إلى هدى الإيمان والإسلام ، فأسوا برسولهم الكريم ولزموا غرزه فأفادوا وانتقلوا من هباء الجاهلية الهالكة إلى غَناء الإسلام الباقى ؛ فساروا مع رسولهم ماعاش فيهم ، فلما لحق بالرفيق الأعلى ساروا فى آثاره وبدءوا من القاعدة المكينة التى بناها الرسول ، وهى جزيرة العرب الموحّدة ، وأنشئوا نواة عالم الإسلام الفسيح الزاهر .

وكانت القاعدة التى سار عليها الرسول صلوات الله عليه فى نشر الدعوة هى التى رسمها له القرآن الكريم ، فى الآية الخامسة والعشرين بعد المائة من سورة النحل ، وهى السادسة عشرة من سور القرآن : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ ، لأن الإسلام نعمة من الله على عباده ، والنعم

لاتفرق على الناس وإنما ينالها من يستحقها منهم ، ومن هنا فإن الدعوة إلى الإسلام لا تكون إلا بالحكمة ، أى بأفضل الطرق وأحكمها لإيصالها إلى القلوب ، ثم الموعظة الحسنة والجدل الرقيق ، فإذا اقتنع الإنسان بهذا الطريق كان بها وشملته نعمة الإسلام ، لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بمن كتبت عليه الضلالة ، فهو لايهتدى إلا إذا شاء الله ، ويعلم المهتدين الذى تفتحت قلوبهم ، فهم يدخلون فيه طواعية .

ولهذا فنحن عندما نتحدث عن المغازى ، لا نتحدث عن حروب بالمعنى الصحيح للحروب ، فإن المسلمين لم يحاربوا شعبا قط ليدخلوه فى الإسلام ، وإنما هم قاموا بفتوح ، وذلك تطبيقا لقوله تعالى : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ فهنا الآيات تتحدث عن النصر أولا ثم الفتح ، النصر على القوى التى تحول دون وصول الإسلام إلى الناس ، ثم بفتح الله سبحانه وتعالى بعد ذلك القلوب ، لتلقى نعمة الإسلام .

وفى كل مغازى الرسول ﷺ ، والحروب التى تمت خلال القرن الهجرى الأول ، لم يحارب المسلمون قوما أو أمة أو شعبا ، إنما هم حاربوا القوى التى تحول دون وصول الإسلام إلى الناس . فقد حارب رسول الله ﷺ والصحابة معه أئمة الكفر فى مكة ولكنه لم يحارب أهل مكة ، وعندما استسلم رؤساء المكيين دخلت قوات الإسلام مكة دون حرب ، وعندما نادى منادى الإسلام بأن من دخل الحرم فهو آمن ، ومن دخل بيته فهو آمن ، ومن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، لم يطلب إلى أحد أن يدخل الإسلام ، بل قال الرسول صلوات الله عليه لأهل مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، فانفتحت بذلك قلوب من بقى على الشرك منهم للإسلام فأسلموا .

وكذلك كان الأمر مع بقية البلاد التى فتحها العرب : كانت الحرب على الرؤساء الذين كانوا يحولون بين أهل عشيرتهم ودخول الإسلام ، فلما تم النصر عليهم جاء الفتح كما قالت الآية الكريمة .

والفتوح فى العصر الراشدى وما بعده ماكانت قط حروبا على شعب ، وإنما على أعداء الشعوب ، فلم يحارب العرب أهل الشام أو أهل مصر ، وإنما حاربوا

الروم الذين كانوا يسخرون أهل الشام وأهل مصر لمصالحهم ومصالح دولتهم ، وكانوا يعارضون دخول الإسلام تلك البلاد حفاظا على مصالحهم ، فلما انكسرت شوكة الروم ترك العرب أهل الشام وأهل مصر ، ليتعرفوا على الإسلام ، ويدخلوا فيه إذا أرادوا . وعندما فتح المسلمون العراق وفارس ، لم يحاربوا أهل العراق أو أهل فارس ، وإنما حاربوا الأكاسرة ورجالهم ممن كانوا يستعبدون شعبى العراق وإيران ولايريدون أن تصل إليهم رسالة الإسلام ، فلما قضى المسلمون على قوة الأكاسرة وأوصلوا الإسلام إلى أهل العراق وفارس ، تركوهم أحرارا يختار كل إنسان منهم لنفسه الهدى أو الضلالة ، كما قدر الله عليه .

ومن هنا فإننا نخطىء عندما نقول : إن هناك بلادا فتحت بحرب وأخرى فتحت بغير حرب ، لأن الحروب لم تكن للاستيلاء على البلاد ، بل لانتزاعها من غاصبيها وردها إلى أهلها وتركهم بعد ذلك أحرارا ، فى أن يؤمنوا أو لايؤمنوا ولا إكراه فى الدين .

أما مايتحدث عنه الفقهاء ، من أرض الصلح وأرض العنوة فلا يتعلق بالبلاد نفسها ، بل بأملاك المستفيدين بالبلاد وأراضيها قبل الإسلام ، فإن أحكام العنوة لم تطبق إلا على أملاك رجال الدولة والدين الذين هربوا أمام الفتح ، وكذا الأموال المرصودة لبيوت النار والأملاك الخاصة ، لمن فر من كبار رجال الدين فى مصر والعراق والشام ؛ فقد كان أولئك الرجال يملكون أراضِىَ شاسعة ملكا خاصا لاصلة له بالدين ، فاستصفت ذلك كله دولة الإسلام وتركته لمن يريد من أهل الزرع ليزرعه ويؤدى عنه العشر لبيت مال المسلمين ، أو يزرعه مناصفة أو مقاسمة أو على أى شرط أحبه ورضيه ، وتلك هى أراضى الصوانى والضياع التى تحدثنا عنها النصوص ، أما أراضى الزرع التى كانت بأيدى الناس فلم يمسسها المسلمون ، وإنما اكتفوا من أهلها بخراجها وهو العشر على وجه التقريب ، فما عرف فلاح آمن مسالم فى أى أرض مفتوحة شيئا يسمى صلحا ولا عنوة ، وإنما هو حق دولة الإسلام يؤديه وهو آمن . ولم يمس المسلمون بيتا لعبد مسالم من عباد الله سواء آمن أو لم يؤمن ، وإنما أخذت قصور الظالمين ، وكلها مال مغصوب ، واستخدمت لصالح جماعة المسلمين .

وعلى الرغم مما نقرؤه من شروط وحدود فى كتب « الأموال » وخصوصا كتاب أبى عبيد القاسم بن سلام ، فإننا إذا وصلنا سنة مائة للهجرة ، وهى منتصف خلافة الإمام العادل عمر بن عبد العزيز ، وجدنا أهل مملكة الإسلام جميعا – عربا أم غير عرب ، مسلمين أم غير مسلمين – يؤدون العشر على المحصول فى أرض الزرع ، التى تسقى دون جهد ، والخمس فى الأراضى التى تسقى بجهد ، أما أرض الموات والاستصلاح وأراضى المرعى والكلأ فما كان يتحصل منها شىء إنما هى زكاة المال ولازيادة .

ولقد غزا الفرس والرومان البلاد ، وأكلوا أموال أهلها واستصفوا خيراتها لأنفسهم ، حتى كان طعام أهل روما ثم القسطنطينية من قمح مصر والشام ، يجبى من أهله بالقهر ، ويوزع عليهم دون جهد يبذلونه ، وقد جمع القياصرة وقوادهم وعمالهم الأموال الطائلة من دماء الناس ، وعاشوا عليها قرونا متطاولة ، أما العرب فهم الشعب الوحيد الذى جاد بدمه ، وخاض المعارك وفتح البلاد ، ثم لم يخرج آخر الأمر إلا بثواب الله ، وهو أبرك وأبقى ، وفى نهاية الفتوح لانجد العرب أصحاب أموال أو ثروات طائلة ، بل لعلهم كانوا أقل أموالا من غيرهم من أهل البلاد التى فتحوها ، أما الذين أفادوا من نعمة الإسلام وعدله ، فكانوا غير العرب من أهل البلاد المفتوحة ، ولقد عجب الجاحظ فى « البيان والتبيين » من قلة أموال العرب فى العراق وخراسان ، بالقياس إلى مااحتجن الأعاجم من الأموال وماحازوا من العقار ، وقد عاب الجاحظ ذلك على العرب واتهمهم بالإسراف وقلة التدبير ، ولم يكن الجاحظ مصيبا فى ذلك ، فإن العرب لاينقصهم التدبير ، ولكنهم لم ينهبوا أموال أهل البلاد المفتوحة ، ولاهم انصرفوا إلى شئون الكسب والمعاش انصرافا تاما كما فعل غيرهم ، وتلك شهادة للعرب ، فقد جاهدوا ونصحوا ونصروا ، ثم لم يفوزوا بعد ذلك بشىء يذكر من خيرات الدنيا ، وهم فى هذا حالة فريدة فى التاريخ .

نقول هذا لنبطل ببرهان الواقع التاريخى قول القائلين إن الإسلام انتشر بحد السيف ، فما رفع سيف على رجل ليدخل الإسلام ، ولا أسلمت أمة وعلى رقاب أهلها سيف ، إنما كان السيف لأهل السيوف المسلولة على الإسلام وأهله ، ولمن وقف فى طريق الدعوة ، وإذا كان الله سبحانه قد زوى الأرض للإسلام ، فقد

كان ذلك عن طريق الإسلام نفسه ، هو الذى فتح القلوب وغزا الأفئدة . ولقد أعز الله دينه فلم يجعل لأحد عليه فضلا ، وإنما الفضل لله وحده وللإسلام ، وصدق الله سبحانه وتعالى حيث قال : ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليك أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** ﴾ (الحجرات ١٧) .





مداخل الإسلام



ولقد سلك الإسلام فى انتشاره فى الأرض مسالك شتى ، ودخل إلى القلوب من مداخل كثيرة ، فما كانت الفتوح إلا إحدى وسائل المسلمين لفتح الطريق أمام الدين ليدخل إلى القلوب ، فأما المدخل الأكبر فكان الكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة ، يحملها المسلم المؤمن إلى غير المؤمن ، ويبين له فضائل الإسلام ومايفتح لمعتنقه من أبواب الخير والأمل واطمئنان النفس ؛ فيستجيب الرجل للإسلام ويدخل فيه عن طيب نفس وعن أمل فى عظيم رحمة الله وعريض ثوابه .

وقد يكون هذا الداعية من أهل الدين والعلم ، فيدفعه دينه إلى أن يهب نفسه للدعوة ، فيخرج بها فى بلاد الكفر داعيا معلما ؛ فتنشأ على يديه جماعة إسلامية تتحول بدورها إلى مركز تنتشر منه أنوار الدعوة .

وقد يكون الداعية مؤمنا عاديا مشتغلا بالتجارة أو حرفة من الحرف ، يرحل إلى بلاد الكفر طلبا للمعاش ، فإذا لقى غير المؤمنين دعاهم للإيمان بما يؤمن به فتبعوه وأصبحوا مسلمين ، وسنأتى فى هذا المبحث بأمثلة كثيرة على ذلك .

ولكن أوسع مداخل الدعوة وأوفاها بالغرض كان الأسوة الحسنة ، أى أن يكون المسلم الوافد على أهل الكفر من أهل الدين المتين والخلق القويم ، وليس من الضرورى أن يكون متفقها فى العلم متبحرا فيه ، ولكن خلقه الكريم وحسن معاملته للناس ونظافته وحسن سمت وتعاونه ، تحبب الناس فيه وفى دينه ، فلا يزالون فى إعجاب به حتى تهوى أفئدتهم إلى مايؤمن به ليكونوا مثله .

وهذا كان من أقوى أسباب انتشار الإسلام خلال القرن الهجرى الأول ، فقد كان العرب الذين استقروا فى البلاد المفتوحة قوما على خلق وحسن سمت وإيمان بالإسلام عميق . حقا لقد وقعت بين بعضهم وبعض حروب ومنازعات فى الأمصار ، وخصوصا إيران والمغرب والأندلس ، ولكن هذه المنازعات اقتصرت عليهم فحسب ، فلم ينل أذاها غيرهم ، ولم يعتدوا على أهل البلادِ ، ولا هم غصبوهم أرضا أو عقارا ، ولاتصرفوا معهم تصرفا غير سليم . ففى إيران مثلا ، حيث بلغت عداوة القيسية والكلبية (أو الشامية واليمنية) مداها ، لم تقحم العرب مَن حواليهم فى خصوماتهم ، ولاهم تحاربوا فى أراضيهم ، ولا هم انتزعوا شيئا مما كان بأيديهم ، وإنما كان نزولهم فى أراضى الصفايا إلى الأراضى التى كانت ملكا لكسرى وآل بيته والمرازبة ، وهم كانوا كبار الدولة الساسانية القائمين بعسف الناس ، ونزلوا كذلك فيما كان موقوفا على بيوت النار أو مملوكا لسدنتها .

نظام الولاء وأثره فى انتشار الإسلام :

ونظام الولاء نفسه يدل على قيام نوع من المؤاخاة بين العرب وأهل البلاد . كان الولاء لحمة كلحمة النسب ، أو مولى القوم منهم ، فإذا كانت جماعات أهل فارس قد رغبت فى الدخول فى ولاء تميم أو ربيعة أو تجيب أو همدان ، فمعنى ذلك أنها آنست من أولئك العرب أخوة ومحبة وحسن عشرة ، حببتهم إليهم ؛ فرغبوا فى أن يكونوا أولياءهم .

وجدير بنا أن نقف هنا هنيهة عند ظاهرة الولاء التى لم يدرسها مؤرخو الإسلام حق دراستها ، مع أنها ظاهرة إسلامية مرتبطة أشد الارتباط بطبيعة الإسلام وأخلاقه ، وكانت كذلك من أكبر الأسباب فى إسلام الناس طواعية واختيارا ، فى إيران وبلاد الترك ، ثم فى بلاد المغرب والأندلس .

ولكن أهل القرى حينما ملك الأكاسرة من أرض العراق وإيران ، كانوا من حيث الوضع القانونى والاجتماعى رقيقا وأقنان أرض للبيت الساسانى ، وكان كسرى إذا أعطى رجلا من رجاله أرضا أخذها بفلاحيها أو انتقل (رهطهم) للمالك الجديد ، فكان الناس عبيدا لكسرى وأهل بيته ، وللمقطعين من المرازبة

والدهاقين والإصبهبذين وهم رؤساء القرى ، وجباة أموالهم ، وكان الفلاح يزرع الأرض ولايصيبه من خيرها إلا مايقيم أوده ، والباقى يذهب لصاحب الأرض وهو سيده ومالك روحه .

وكان أهل القرى قد ألفوا هذا الوضع بتوالى القرون ، وأصبح عندهم أساس الوضع الاجتماعى لكل منهم ؛ لأن الإنسان لايعيش قط فى فراغ ، ولابد أن يرتبط بالنظام العام بخيط قانونى ما ، ولو كان هذا الخيط قيد رق فى رقبته ؛ لأنه يجعله على أى حال عبد فلان أو ملك فلان ، فإذا عدا عليه عاد لجأ إلى صاحب رقه ليحميه ، أو ليؤمنه فى بيته .

فلما جاء الإسلام وأطاح بالأكاسرة والمرازبة والدهاقين ، أصبح أولئك الفلاحون فى فراغ اجتماعى ، فالأرض ليست أرضهم ، ولم يعد لهم وضع معين فى المجتمع ، لأن سادتهم قد انتهى أمرهم ، وأصبحت حالهم كحال الواحد منا إذا فقد جواز سفره فى بلد غريب ليست فيه سفارة أو قنصلية ، هنا يفقد الإنسان هويته القانونية ، أى أن أهل القرى فقدوا هويتهم عقيب الفتح العربى .

وكانت دولة الإسلام تستطيع أن تحل محل الأكاسرة ورجالهم ، وتعتبر هؤلاء الناس رقيقا لها ، كما فعل الساسانيون عندما حلوا محل الأكمينيين فى تلك البلاد .

ولكن الإسلام لايقر هذا الرق ، ثم إن نفس العربى المسلم عافته ، فلم تدع دولة الخلافة ولا جماعات العرب فى المهاجر ملك رقاب الناس ، وهنا ظهر الولاء : اجتمع أهل كل ناحية ودخلوا فى ولاء من أرادوا ممن نزل فى أرضهم من قبائل العرب ، فصاروا فى ولاء تميم أو معد أو ربيعة أو شيبان أو عبد قيس ، ومنهم من دخل فى ولاء الفاتح فنسمع عن موالى خالد بن الوليد ، وموالى موسى ابن نصير ، وموالى عبد الله بن عامر ومنهم من دخل فى ولاء الخليفة القائم ، فنسمع عن موالى عبد الملك بن مروان ، وموالى الوليد ، وموالى هشام بن عبد الملك ، ومنهم من دخل فى ولاء قريش عامة ، فنسمع عن موالى قريش ، وهؤلاء هم الذين يقال عنهم فى كتب التراجم « مولاهم » لأن الولاء لم يكن انتقال رق أو تملك ، وإنما كان إقامة وضع قانونى لأولئك الناس فى دولة الإسلام . وما دامت القرية من القرى قد دخلت فى ولاء أحد من العرب ، فقد أصبح لأهلها وضع قانونى معترف به فى الحياة الاجتماعية والسياسية لدولة الإسلام .

وكان هذا الولاء فى حقيقة الأمر تحريرا للناس ، ورفعا لهم إلى مقام المواطنين فى دولة الإسلام ، فإن الولاء يشترط الإسلام ، فلا يدخل إيرانى فى ولاء عربى إلا أسلم ، ومعنى ذلك أن الولاء ، وهو نظام عربى إسلامى ، كان إدخالا للناس فى الإسلام ، ثم تعريبا لهم بعد ذلك ، وكان تحريرا للناس وفكا لرقابهم ، وردا لكرامتهم الإنسانية ، ولعلنا لا نكشف حقيقة خافية عندما نقول : إن الغالبية العظمى من أهل العراق وإيران تخلصوا من الرق ، وعرفوا الحرية والكرامة الإنسانية مع الفتح الإسلامى .

وقد تمسك الناس بولائهم العربى حتى بعد تحررهم وتحولهم إلى مواطنين فى الدولة الإسلامية ، وذلك إن دل على شيء فعلى أن الناس ارتاحوا للارتباط بالعرب برابطة الولاء ، وفى المغرب والأندلس مثلا ، نجد الناس يعتزون بالولاء العربى ، على طول القرون ، بل كانت رابطة الولاء من القوة بحيث جعلت الموالى ، أو موالى بنى أمية فى الأندلس ، جماعة ممتازة من أهل الأندلس فى عصر الولاة ، وعندما وصل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، المعروف بالداخل ، إلى الأندلس كان موالى بنى أمية هم الذين أيدوه وأقاموا دولته .

ولابد أن ننص كذلك على أن دخول الرجل فى ولاء العرب ، كان يضمن له حقه فى أرضه التى كان يزرعها ، وفى حين كان رقيقا فى ظل الأكاسرة أو القوط ، أصبح حرا ومالك أرضه فى ظل الإسلام ، وهذا هو السبب فى أن إسلام هذه الشعوب كان إسلاما صحيحا عميقا . وإليه يرجع إقبالها الشديد على دراسة الإسلام وعلومه والتفقه فيه .

الإسلام ينتشر بفضائله وقوته الذاتية :

ولم يسبق فيما مضى أن كانت للمسلمين سياسة موضوعة لنشر الإسلام ، يقوم عليها رجال متخصصون يجرون فى أعمالهم على مناهج مقررة ، كما هى الحال فى النصرانية مثلا ، حيث نجد البابوية الكاثوليكية ، وما تبعها من منظمات كهنوتية كالفرنشسكية والدومينيكية والجزويت ، وكذلك فيما تنظمه الهيئات البروتستانتية من حملات تبشير ، تعد رجالها فى معاهد متخصصة ، وتنفق عليها المال الوفير ،

ثم ترسلهم إلى البلاد البعيدة لدعوة الناس إلى أديانها بأساليب علمية مدروسة ، لإقناع من يصادفونه من الناس بصدق مايدعون إليه ، وإدخالهم في العقيدة ، ويبلغ الأمر أن يطلق أولئك الدعاة الدنيا ، ليخلصوا للدعوة خلوصا تاما ، كما نعرفه فى جماعات الرهبان المسيحية والبوذية أحيانا . فى الإسلام لانجد شيئا من هذا إلا في عصرنا اليوم ، عندما تزايدت تيارات التبشير غير الإسلامية ولم يعد هناك مناص من أن يعنى المسلمون بالدعوة وتنظيمها ، وإعداد الرجال القادرين عليها ، فيما عدا ذلك كان الإسلام هو الذى نشر نفسه بنفسه : هو الذى دعا لنفسه واجتذب قلوب الناس ؛ فأسلموا حبا فى الإسلام وإعجابا به والتماسا لرحمة الله وهداه ، وإنه لمما يستوقف النظر أن قوة الإسلام الذاتية قد غلبت تنظيمات الدعاة ، وأثبتت أنها أفعل وأبعد أثرا من المال الذى ينفقه الآخرون على دعاواهم، فانتشر واتسع مداه ودخلت فيه الأمم بعد الأمم من تلقاء نفسها بمجرد وصول الدعوة إليها ، ولقد كان العرب يفتحون البلد من البلاد ، ويعرضون الإسلام على أهله ، ثم يدعونهم وشأنهم ؛ حتى يقتنعوا بفضائله الإنسانية فى تمهل ، حتى لقد ذهب بعض الشانئين للعرب إلى أنهم لم يكونوا يهتمون بنشر دينهم ، وأن الجزية كانت أحب إليهم من الإسلام وما إلى ذلك مما نجده مسطورا فى كتب أعداء الملة .

وماكان ذلك عن عدم حرص من العرب على نشر الإسلام ، وإنما كان سيرا على أسلوب الدعوة فى عهدها الأول : أسلوب عرض الدين على الناس ، وتركهم بعد ذلك أحرارا إلى أن يهدى الله منهم من يشاء . ومن غريب ماحدث فى بلاد مثل مصر والأندلس ، أن كان مسلك العرب هذا أدعى إلى دخول الناس فى الإسلام ، لأنهم تعودوا ممن يتغلب على بلادهم أن يكون شديد الحرص على إدخالهم فى دينه ، فما بال أولئك العرب لا يلحون على الناس فى الدخول فى الإسلام ، ولايستخدمون القوة فى ذلك ، كما كان رجال دولتى الرومان والروم يفعلون ؟ قال يولوج الراهب القرطبى المبغض للإسلام : « فكان من مكر العرب أن تظاهروا بأنهم لايهتمون بدخول الناس فى الإسلام فتطلعت نفوس الناس إلى ذلك الإسلام يتعرفون عليهم ، لعلهم يعرفون السبب فى اختصاص العرب أنفسهم به ، وضنهم به على غيرهم ، فمازالوا يفعلون ذلك ويسألون عن الإسلام ويستفسرون ، حتى وجدوا أنفسهم مسلمين دون أن يدروا » ولقد قال الراهب القبطى يوحنا النقْبُوس شيئا من ذلك ، وكان متأسفا لأن العرب لم يلجئوا إلى

القوة فى فرض الإسلام ، إذ لو أنهم فعلوا ذلك لزاد تمسك الأقباط بعقيدتهم على مذهب العناد وإباء كل مايفرض بالقوة ، ولما وجد الإسلام هذا الطريق السهل الميسر إلى القلوب فى مصر والأندلس ، وإنك لتحاول أن تدرس كيف أسلم أقباط مصر ، وكانوا من أشد الناس استمساكا بعقيدتهم ، حتى لقد استشهدت فى سبيلها منهم جماعات بعد جماعات على أيدى عتاة الرومان من أمثال دقلديانوس ، وطغاة الروم من أمثال قيرس ، فلا تجد لتساؤلك جوابا ؛ لأن التحول إلى الإسلام فى هذين البلدين – مصر والأندلس – تم فى هدوء وسكون : انسابت العقيدة فى قلوب الناس ، كما ينساب الماء فى أرض الزرع ، فتخضر وتزهر وتثمر بإذن ربها .

وفى بلاد المغرب أسلمت قبائل البربر مبهورة بما رأت من روعة إيمان عقبة ابن نافع وأصحابه ، فهذا الرجل الفريد فى بابه ، الذى وهب نفسه للإسلام ، كان يلقى رئيس القبيلة ، ويحدثه ، ثم يدعوه إلى الإسلام ؛ فيسارع إلى الإيمان ليكون من قوم عقبة ، ثم يتبعه بعد ذلك قومه .

إن مداخل الإسلام إلى القلوب ، هى سماحته وبساطته وإنسانيته . إنه يقدم للمؤمن به الاطمئنان وهدوء البال ، ويفتح له إلى الله سبحانه بابا واسعا للمغفرة والأمل وثواب الآخرة ، وكل ذلك دون مقابل . فى أديان أخرى تفرض عليه أموال وهدايا وقرابين ، ويلزم بطاعة رهبان وقساوسة ، ويراقب ويعاقب ويحرم من نعمة الله بقرار .. لاشىء من هذا فى الإسلام ، من هنا كان مدخله إلى النفوس سهلا ذلولا .

أما مسالك الإسلام فهى ضروب الأرض جميعا : لقد انتشر الإسلام بالبر والبحر ، بالحرب والسلم ، لقد اخترق الجبال والشعاب ، وأوجد لنفسه طرقا ومسالك لاتخطر على بال أحد ، لقد اشترك فى نقل الإسلام حتى الكفار ، ومن بين المستشرقين رجل سنتحدث عنه نصح حكومته بترك الإسلام ينتشر ، حتى يشتغل به الناس ويتركوا التجارة والأموال للهولنديين ، وأخذت الدولة بكلامه .

وإنساح الإسلام في إندونيسيا حتى عمها كلها . وحدث أن دخلت الإسلام قبيلة من قبائل الونقارة فى غرب أفريقية على سبيل العناد مع جارتها ، فلما دخلت فيه سعدت وارتقت وسادت وتبعتها خصمتها الأولى ... بفضل هذه العداوة – التى

أصبحت صداقة – اخترق الإسلام مائتى كيلومتر من الغابات الاستوائية التى لايخترقها أحد إلا بمشقة ، وهذه القبيلة – وتسمى الونقارا آيا – تعتبر فى مقدمة قبائل داهومى ، منها اليوم أطباء ومهندسون ومدرسون وقضاة . لقد دخلت الإسلام دون أن تدرى أى حظ كتبه الله لها عن طريق هذا الدين .

الإسلام دين طيار :

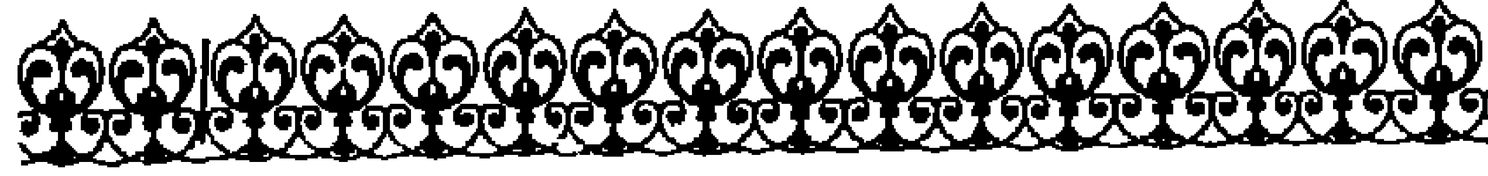
والخلاصة أن داعية الإسلام الأكبر هو الإسلام نفسه ، فقد تضمنت عقيدته وشريعته من الفضائل مايجعل الناس يحرصون أشد الحرص على أن يدخلوا فيها ، ثم إن الإسلام يعطى الداخل فيه كل شىء ولاينتقصه شيئا ، فإن الإنسان يكسب الصلة المباشرة بالله سبحانه وتعالى ، ويجد الطريق إليه فيقف بين يديه خمس مرات فى اليوم ، ويدعوه دون حجاب ، ويكسب الأمل فى حياة أسعد وأرغد فى هذه الحياة الدنيا ، ثم حياة الخلود فى دار البقاء ، ولايكلفه ذلك إلا النطق بالشهادتين ، واتباع شريعة الإسلام وكلها خير ومساواة وعدل ، فى حين يتقاضاه رجال الدين فى الأديان الأخرى – كما قلنا – الإتاوات فى كل مناسبة ، فهو يؤدى مالا إذا تزوج ، ويؤدى مالا كلما أنجب ولدا ، ويؤدى مالا ليعمد الطفل الوليد ، ثم مالا آخر ليثبته فى الجماعة المسيحية إذا ضرب فى مداخل الشباب ، بل يؤدى مالا إذا مات له ميت لكى تصلى عليه صلاة الجنازة ، وبالإضافة إلى ذلك يظل عمره كله تابعا لرجل الدين فى كل مايتصل بالله سبحانه ، فإذا أراد الصلاة صلى عنه القس ، ووقف هو يسمع ولايملك إلا أن يقول آمين ، ولكن المسلمين وحدهم من دون أهل الأديان هم الذين يقوم كل واحد منهم بصلاته بنفسه ، حتى لو كانت صلاة جماعة ، وفى غير الإسلام يصلى القس مع مساعديه نيابة عن الناس .

والحق أن أصدق وصف يطلق على الإسلام فى هذا المقام ، أنه دين طيار ، ينتقل من إنسان إلى إنسان ومن أمة لأمة فى سهولة ويسر ، كأن له أجنحة قدسية تحمله وتجرى به مجرى الريح ، وإنك لتنظر إلى خريطة الأرض ، وتتأمل مدى انتشار الإسلام ، فتتعجب من سعته ، ويزداد عجبك عندما تتبين أن ثلث هذه المساحة فحسب هى المساحة التى فتحتها الدول وأدخلت الجيوش فيها الإسلام ،

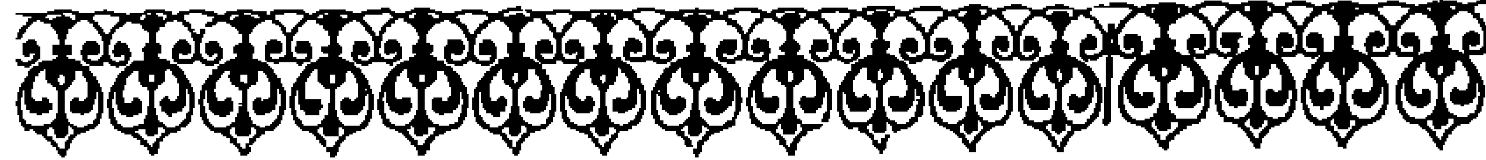
أما الباقية فقد دخلها الإسلام ، وملأ قلوب أهلها دون جيش منظم ، أو سياسة مرسومة لذلك !!، إنما هو الإسلام نفسه ، جعله الله خفيفا على القلوب ، قريبا إلى النفوس ، ماتكاد كلمة الحق تصافح أذن الرجل حتى يصل الإيمان إلى قلبه ، فإذا استقر فى قلبه لم يكن هناك قط سبيل إلى إخراجه منه ، فهو الرى الذى تظمأ إليه النفوس وتستقى منه ، وهو الأمل الذى يخفف على الإنسان وطأة المسير فى هذه الدنيا ، ويهون عليه الموت ، فالموت ليس آخر رحلة الإنسان مع الحياة بل هو المدخل إلى الحياة فحسب ، وبعد هذه الحياة حياة هى أسعد وأبقى لمن صدق إيمانه واتقى .

ولعل أكبر أسباب خفة الإسلام على القلوب هو وضوحه وصدقه ، فإنك إذ تؤمن بالإسلام لاتؤمن بأسرار أو أمور لايقبلها عقلك كما ترى فى الأديان الأخرى ، حتى الغيب الذى تؤمن به فى الإسلام حقيقة ، فإن الإنسان لايرى الله بالعين المبصرة ، وإنما يحس به فى نفسه وفى كل ماحوله بالبصيرة المنيرة ، والحقيقة الكبرى فى هذا الكون هى خالقه ، فهو الحق ولاحق غيره ، وأنت لاتؤمن بالله لأن داعيك إليه يأتى بمعجزات أو خوارق ، وإنما هو يلفت نظرك إلى عجائب الخلق وكل مافيه معجز وخارق ، وأنت تراه رأى العين فى شخصك الذى يعيش ويتحرك ، ويفهم لاتدرى كيف ، فإذا لم تؤمن بالله فكيف تعلل حياتك وحركة جسدك ونبض قلبك ؟ فإذا آمنت بالله لم يكن لك مفر من أن تؤمن بنبيه الذى حمل إليك رسالته ، فالله سبحانه حق ونبيه صدق ، وكل مايعدك به القرآن حق وصدق ، ولست تحتاج إلى من يشرح لك حقيقة الإسلام حتى فى نفسك ، وغاية ماتحتاج إليه من يذكرك بها ، وهذا معنى من معانى تسمية الله سبحانه للقرآن بالذكر والذكر الحكيم .





مسالك الإسلام



فإذا كانت دعوة الإسلام تلقى هذا القبول من الناس دون جهد مخصص لذلك ، فلابد أن تكون هنالك مسالك تنتقل الدعوة عن طريقها ، مثلها فى ذلك مثل الماء الذى ينساب فى الأرضين والحقول ، فإن الماء يسرى ولكن عن طريق مسالك تيسر انسيابه ، فهو لايصعد إلى أعلى وإنما ينحدر ، ولابد له فى تحدره من مسالك يجرى فيها ، نراها إذا تتبعنا جريان الماء على منحدر ، فإن الماء يتوخى المسيل السهل وينحدر فيه ويدور حول العقبات ليلتقى بمسيل آخر ، ولاتزال المسايل تتصل وتنفصل ، وتتلاقى وتتجمع ، حتى تكون الجدول ، فالقنوات ، فالنهيرات ، ثم يكون النهر العظيم الدافق ، والأنهار الدافقة الطويلة المجارى ، الكثيرة الفروع ، هى التى يحسب لها الحساب فى قضايا العمران ، أما المسايل الرقيقة التى تنحدر فى مسايل ضيقة ثم تختفى فلا يقوم عليها عمران ، وإذا كنا نتساءل الآن عن مسالك الإسلام فإننا نتحدث عن تلك الطرق التى تجمعت فيها مسايل الدعوة ، ونشأ عنها نهر دافق من الإيمان ؛ جعل البلد كله أو غالبيته إسلاميا ، وتلك هى المسالك التى تهمنا فى هذه الدراسة .

فأول هذه المسالك طرق التجارة ، فما دام الإسلام دينا طيارا ، أى ينتقل من إنسان لإنسان ، ومن جماعة لجماعة ، فلابد أن يكون الإنسان الناقل متحركا ، أو لابد أن تكون الجماعة الناقلة متحركة أيضا ، وليس هناك أنظم فى حركة البشر من طرق التجارة ، لأن التجارات سلع مطلوبة للناس على مدار الزمان ، وفى عصرنا هذا تنقل المتاجر عن طريق السفن والطائرات والقطارات ، والتجار ينتظرون وصول المتاجر إليهم ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الخروج للإتيان بما يتاجرون فيه ،

فلم تكن هناك شركات نقل أو تأمين على بضائع ، ومن ثم فقد كانت طرق التجارة طرق اتصالات بشرية ، تسير فيها القوافل الضخمة التى قد يصل عدد أفرادها إلى الآلاف ، وكل تاجر معه رجاله وأتباعه وركائبه التى تحمل بضائعه ، فكانت القوافل لذلك أنهارا متدفقة من البشر تسير فى درب مطروق عامر بالسابلة على مدار العام .

وقد كان المسلمون فى العصور الوسطى أكبر رجال القوافل ، فلم يؤثر عن الهنود أو الفرس أو المغول أو الأوربيين أنهم كانوا من أصحاب القوافل المنتظمة الكبرى ؛ لأن بلاد الهند والفرس والأوربيين ليست فيها تلك المساحات الشاسعة من الأرض الصحراوية ، التى تتطلب تنظيم القوافل ، فهناك المدن والقرى على مساحات متقاربة والمسافرون والتجار ينتقلون من بلد إلى بلد أو من قرية إلى أخرى فى مسافة يوم أو أقل ، ومن ثم لم يدع الأمر إلى تنظيم القوافل الكبرى ، أما العرب فبلادهم صحراوية لايمكن اتصال نواحيها بعضها ببعض إلا بواسطة القوافل الضخمة المحروسة ، أو التى تسير فى أمان اتفاقات مع القبائل الضاربة على الطريق .

ثم إن البلاد التى كان العرب يجلبون منها البضائع ، كانت بلاد صحارٍ فى غالبها ، مثل هضاب إيران ، وصحارى وسط آسيا ، والصحارى المؤدية إلى الهند ، وبادية الشام وسيناء ، وصحراء مصر الشرقية ، ثم الصحراء الأفريقية الكبرى ، وكان العرب فى صحرائهم قد أتقنوا تنظيم القوافل الكبرى قبل الإسلام ، وكانت مكة أكبر سوق تجارية قائمة على القوافل عرفها التاريخ ، وكان هاشم ابن عبد مناف جد النبى ﷺ أكبر رجل عرفه التاريخ بالمهارة فى تنظيم القوافل والتجارة القائمة عليها ، فقد ورث هاشم مجد جده قُصَىّ بن كلاب منشىء قوة قريش وقائدها فى الاستيلاء على مكة وتحويلها إلى قاعدة للقرشيين ، وإذا كان قُصَىّ قائدا عسكريا وسياسيا ماهرا ، عرف كيف يقيم أمر جماعة مكة وحومتها ، فقد كان هاشم رجل تجارة ومال . استطاع أن يضع القواعد السليمة للتجارة المكية ، فنظم أمر المساهمات المالية ، التى يشترك بها أهل مكة فى تجارة الشام واليمن ؛ ثم عقد الاتفاقات مع القبائل التى تسير فيها طرق القوافل من اليمن إلى مكة ، ومن مكة إلى بلاد الشام أو إلى مصر أو إلى غزة أو إلى العراق ، وهذه الاتفاقات هى مايعرف بالايلاف، ثم عقد بعد ذلك العِصَم — جمع عِصْمة ، أو

عصام – وهى إذن المرور الذى تعطيه الدول للسابلة والتجار لكى يسيروا فى أرضها فى أمان ، وقد أخذ هاشم العِصَم من رجال كسرى وقيصر ووكيل الأحباش فى « الشعيبة » لتأمين متاجر مكة فى الحبشة .

وبفضل تنظيم هاشم بن عبد مناف ، انتظمت تجارة مكة قبل الإسلام ، وأصبحت من أكبر الأسواق التجارية فى الدنيا . وفى مدرسة هاشم تعلم العرب تنظيم القوافل تنظيما دقيقا ، وتوارث العرب ذلك فأصبحوا أعرف الناس بتجارة القوافل ونظمها ، وعنهم أخذ هذا الفن تجار وسط آسيا ، من المغول والترك والإيرانيين ، وتجار أفريقية من أهل المغرب فيما بعد ، ومع أن اللفظ الذى أطلق فى لغات العالم على القافلة كان غير عربى الأصل وهو لفظ (كارفان) ، وهو فارسى معناه المحطة التجارية أو الحصن فى المكان القفر ، (وقد عرب على قيروان) إلا أن القوافل اقترنت فى تاريخ الحضارة الإنسانية بالعرب ، فهم رجال القوافل وتجارتها غير مدافعين فى ذلك ، ولقد تحدث المسعودى فى مروج الذهب عن قوافل العرب ومهارتهم فى إعدادها كلاما مسهبا ، وفى كلام ابن بطوطة مايفهم منه أن العرب اشتهروا بأمر تنظيم القوافل ، حتى أن تجار الترك والفرس والمغول كانوا لايولون قيادة القافلة وتنظيمها إلا عربيا .

هذه القوافل كانت مسلكا منتظما من مسالك الإسلام ، فالعرب المسلمون هم سادة القوافل وأربابها ، ومعظم أهل القوافل كانوا مسلمين ، وكانت هذه القوافل تخترق البلاد حاملة الإسلام إليها ، وكلّما حطت القافلة فى مكان رفع الأذان وأقيمت الصلوات ، ورأى الناس – إن لم يكونوا مسلمين – ألوف الناس منتظمين صفوفا يقومون بصلاتهم فى نظام وسمت ووقار وخشوع ؛ فيكون لذلك كله أبعد الأثر فى قلوب الناس .

هكذا انتقل الإسلام عن طريق التجارة والقوافل إلى وسط آسيا وجنوبها ، وجنوبها الشرقى ، وانتقل كذلك عن طريق القوافل من أفريقية المتوسطية ، عبر الصحراء الكبرى ، إلى أفريقية المدارية كما سنبين ذلك فى مواضعه .

وكما كان العرب أمهر الناس فى العصور الماضية فى تنظيم القوافل وقيادتها ، فقد كانوا من أمهر الناس فى ركوب البحار ، وقد اشتهر بذلك من العرب أهل

اليمن وحضرموت وعمان خاصة . هنا نجد العرب قد مهروا فى كل فنون الملاحة البحرية ، فأنشئوا مراكب تعبر البحار والمحيطات وأحكموها رغم صغر حجمها ، وعرفوا عمل الأشرعة وإحكام تركيبها ، وتسيير السفن بها في البحار العالية ، ودرسوا مهاب الرياح ، ومساقط الأمطار ، وتوقيت الأنواء ، وأتقنوا فن الملاحة البحرية ، ودرسوا البحار ، وطرقها ، وموانيها ، وأنواءها ، وظهر من بينهم ملاحون كبار يسمون بالربابنة ، اشتهر منهم أربعة عرفوا بليوث البحر ، أكبرهم وأشهرهم سليمان الميرى ، وشهاب الدين أحمد بن ماجد .

ومهارة عرب جنوبى الجزيرة تلك فى فنون الملاحة البحرية ، هى التى جعلتهم سادة هذه البحار ، حتى دخلها البرتغاليون فى القرن السادس عشر الميلادى ، وقد أثبت الملاحون العرب للبرتغاليين أنهم أقدر منهم ، وكان أهل عمان هم أول من كسر قوة البرتغاليين وأخرجوهم من الخليج .

هذه التجارة البحرية التى مهر فيها العرب ، كانت مسلكا عظيما من مسالك الإسلام ، فسفن العرب هى التى حملت الإسلام إلى شرقى أفريقية حتى سفالة وموزمبيق ، وهى التى حملته إلى سواحل الهند الشرقية ، ثم بلاد ملقا ، ثم بلاد المهراج وهى إندونيسيا ومايليها إلى الشمال من جزر الفيلبين .

الحـــــــج

ومسلك ثالث من مسالك الإسلام الكبرى هو الحج ، والحج ليس طريقا ، وإنما هو عبادة أساسية من عبادات الإسلام ، ولكن أداء هذه العبادة اقتضى تنظيم طرق الحجاج أو طرق الحج ، وهى طرق معروفة ، استخدمت طرق التجارة حينا ، وانتهجت لنفسها طرقا خاصة بها فى أحيان أخرى .

طرق الحج هذه كانت عامرة بالنشاط على مدار العام ؛ لأن ميقات الحج محدد ، ولكن مواعيد خروج ركبان الحج لم تكن محددة ، فإن ركب الحاج المغربى كان يخرج قبل موعد الحج بعام ، وكان ركب الحاج الغينى يخرج قبل الموعد بسنتين ، فى حين أن ركب الحاج الإندونيسى كان يخرج قبل الموعد بمدة أطول ، لأنه كان يقطع الرحلة بالبر والبحر ، وفى كل ميناء كان الحجاج ينتظرون موعد السفينة الأخرى ، أو موعد خروج المركب ، إذا كانت المرحلة التالية بالبر ، ومعنى ذلك أن طرق الحج كانت عامرة بالحركة على مدار العام ،

وفى رحلة ابن بطوطة تفاصيل توضح ذلك بأجلى بيان ؛ لأن الحج كان المحرك الرئيسى لابن بطوطة فى رحلاته ، فكان يطوف ويطوف ثم يحج ويعود بعد ذلك إلى الطواف .

وطرق الحاج كانت تخترق بلادا لا يسكنها مسلمون أول الأمر ، فكانت هذه الطرق سبب دخول أهلها فى الإسلام ، وعندما نصل إلى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، نجد أن طرق الحج تسير فى بلاد إسلامية ، والفضل فى ذلك يرجع إلى الإسلام ثم الحج ثانيا .

وكانت الطرق الصوفية طريقاً واسعا سلكه الإسلام للوصول إلى أقطار كثيرة وقاصية ، وسنتحدث عن ذلك فى موضعه من هذا البحث .

وكانت للإسلام مسالك أخرى للانتشار دون حرب أو عنف ، منها الدعاة الذين نذروا أنفسهم لنشر الدعوة دون أن ينتسبوا إلى هيئة أو نظام ، وسنلقى فى هذا المبحث الكثيرين من هؤلاء ، ونرى قدر العمل الضخم الذى قام به أولئك الدعاة .

وسنرى بعد ذلك أن الطرق الصوفية كانت مسلكا عظيما ، حمل الإسلام إلى نواح ماكان ليستطيع الوصول إليها بالسهولة التى وصل بها ، لأن الطرق الصوفية بتنظيماتها الدقيقة ، ومراتب أهلها ومايعمر قلوب رجالها من إيمان ، كانت بطبيعة تكوينها سبيلا فعالة ومنظمة فى نشر الإسلام ، فإن كل صوفى مهما كان موضعه فى الطريقة ، يعتبر داعية للإسلام ، فهو فى بلاد الإسلام يثبت إيمان الناس ، ويزيد ثقتهم فى إيمانهم إذا كان صادق الدعوة ، وهو خارج بلاد الإسلام حامل إيمان وناشر عقيدة . وليس من الضرورى أن يكون الصوفى منقطعا للعبادة ، منصرفا عن الدنيا ؛ ليكون داعية موفقا ، بل هناك مريدون كانوا تجارا وأهل حرف ، أخذوا العهد على الشيخ ، وساروا على الطريق السوى فتخلقوا بخلق الإيمان الصحيح ، ولزموا مكارم الأخلاق ، وقاموا بالعبادات ، وصدقوا فى معاملة الناس ، وقنعوا من الرزق بالحلال ، وقد يتسع هذا الرزق فيصبح المريد من أصحاب المال والجاه ، فيكون ذلك عونا له على نشر الدعوة ، لأن رجاله وأتباعه والمتعاملين معه ، يرون ماأوسع الله عليه به من الرزق ، ثم يرون زهده وصلاحه ، وبعده عن الدنيا ، وتحاشيه لكل مايمس الإيمان ، فيعظم الدين فى نفوسهم ، ويدخل فيه من لم يكن قد دخله . وقد حكى السعدى مؤرخ (غانة) الإسلامية حكاية تاجر من (الفولا)

كان يسكن أودغشت ، وكان فى أول أمره يعمل فى خدمة رئيس من رؤساء قبيلته ، ثم هداه الله إلى الإسلام ، فأسلم على يد مريد من التيجانية ، ولزم العبادة ولزم المسجد ، وصدق فى خدمة مولاه ؛ فأحبه هذا وأعطاه شيئا من المال ، فتاجر فيه ، وألفه أهل هذه الطريق فصاروا يأتمنونه على متاجرهم وأموالهم ، فاتسعت حاله وكثر ماله ، وظل مع ذلك ملتزما لطريق الزهد والتعاون ، ومكارم الأخلاق ، وملازمة المساجد ، وإنفاق المال فى إنشاء الزوايا ، وزوجه مولاه إحدى بناته ، فلما رأت حاله وكرم خلقه ، أسلمت ، ومازالت بأبيها حتى أسلم ، وأسلم معه فى يوم واحد أهل قبيلته كلهم ، وعدتهم اثنا عشر ألفا ، فخرج عن ماله كله وبنى مسجدا كبيرا ، أقام فيه خلوات للعباد ، وبيوتا لأهل السبيل ، فما كان رجل أبرك منه على الإسلام فى هذه النواحى .

لايخلو بلد من بلاد الله من إسلام :

ولو أننا أردنا إحصاء شاملا بكل البلاد التى دخلها الإسلام بالدعوة والكلمة الطيبة ، والحكمة والموعظة الحسنة ، لاستغرق البحث أضعاف هذا الكتاب ، لأن الإسلام كما قلنا دين طيار ، ينتقل من إنسان لإنسان ، ومن مكان إلى مكان فى خفة الهواء ، والله سبحانه جعله قريبا إلى القلوب حبيبا إلى النفوس ، فما يكاد يعرفه إنسان صافى القلب سليم السريرة إلا تفتح له قلبه ودخل فيه .

ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل فى دينه الحنيف سرا يشبه البلسم للقلوب ، فما من محزون أثقلته الأحزان إلا وجد فى الإسلام عزاءه وشفاء سقمه ، وهذا مانجده اليوم كثيرا فى عالمنا الراهن ، فى المجتمعات التى أبهظتها أثقال المدنية ، وأرهقتها مادية العصر ، ففى إنجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة ألوف دخلوا الإسلام فرارا بأنفسهم من متاعب العصر وحيراته ، وضياع سلام النفس فيه . ولقد حكى ذلك المستشرق الإنجليزى (ديفيد كووان) الذى وصل إلى أرفع درجات التدريس فى مدرسة البحوث الإسلامية فى لندن ، وحدثنى بقصة إسلامه ، وكيف أن الدنيا ضاقت به ذات مرة ، واستعصت عليه راحة النفس ، حتى شرح الله قلبه للإسلام ، وكان يعرفه حق المعرفة دراسة ومعايشة للمسلمين ؛ فوجد فيه راحته

الكبرى ، وكان يعلم أن إسلامه سيحول بينه وبين منصب عميد المدرسة ، فزهد في المنصب ، ووجد في الإسلام أسمى مكان تطمح إليه نفسه . وحكى لى شيئا شبيها بذلك المستشرق أربرى الذى نقل القرآن إلى الإنجليزية وحفزه التقى على أن يسمى ترجمته تفسيرا ، لأنه أحس فى نفسه أن كلام القرآن لاينقل إلى البشر إلا باللفظ الذى نزل به على رسول الله ، أما تفسير كلام الله فجائز ، والتفسير قد يكون بالعربية وقد يكون بغيرها .

نقول : إن الإسلام فى يومنا هذا مأمن الكثيرين من الحانقين غير الراضين عن مجتمعات الرقى المادى والصراع العنيف على متاع هذه الدنيا ، فيقبل الناس على الإسلام ويجدون فيه شفاء الصدور ، ولقد سألت واحدا من هؤلاء المؤمنين الألمان فى أحد مساجد برلين : ودينك القديم أما كان يجلب إلى نفسك هذه الراحة ، وهو فيما أعلم دين سماوى ويعبد أهله الله ؟ قال : أجل كنت قبل أن أدخل الإسلام أعبد الله ، ولكنى كنت بعيدا عنه ، كنت لا أصل إليه إلا عن طريق القس ، أما الآن فإنى مع الله حيثما كنت ، وهو سبحانه معى حيثما أكون : أستغفره وأحمده وأشكو إليه همى وألمى وأحس أنه قريب منى ؛ فتطمئن نفسى وتهدأ ، وأجد راحة كبرى ، قلت له : أما تعلم أن الله سبحانه وتعالى قال ذلك فى محكم كلامه ؟ اسمع هذه الآية : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** ﴾ (البقرة ١٨٦) فقال وقد أشرق وجهه : ماسمعت هذه الآية قط ولكنى كنت أحسها ، كنت أحس أن الله قريب منى يستجيب إلىّ إذا دعوته .

وقد يبدو لبعض المبغضين للحق أن يجادل فيما ذهبنا إليه من أن الإسلام لم ينتشر بالقوة قط ، وينكر ماذهبنا إليه من أن الفتوح ماكانت تقصد إدخال الناس فى الدين رهبا ، وإنما كان قصدها أن تزيل العقبات التى تحول دون دخول الناس فيه رغبا ، لأن كلمة الحق التى يأتى بها الإسلام ماتكاد تصل إلى النفوس الطيبة الصافية ، حتى تنفذ فى شغافها وتنقلها إلى رحاب الإيمان . ولسنا بسبيل الجدل مع هؤلاء المنكرين المعاندين ، فهؤلاء أهل جدل وإفك ، ومهما نأتهم به من البينات فهم لا يؤمنون ، وهؤلاء أعفانا الله سبحانه من عناء جدالهم ، إذ قال فى سورة الكهف : ﴿ **ولقد صرّفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان**

أكثر شيء جدلا * ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قُبُلا * ومانرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وماأنذروا هزوا ﴾ الآيات : (٥٤ : ٥٦) .

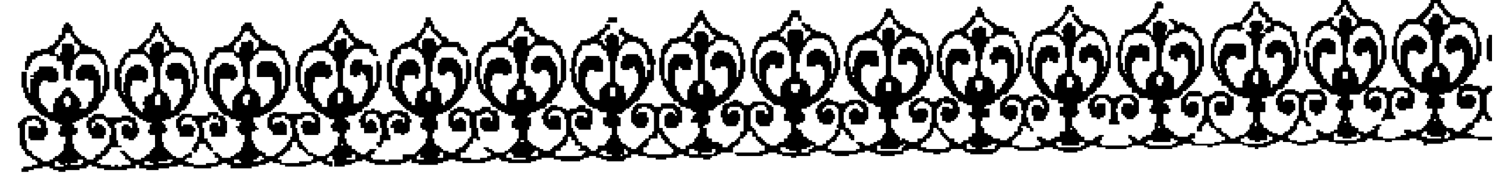
ولكننا لانترك أولئك المجادلين بالباطل يسعدون بباطلهم ، بل لانزال ندعوهم بالحسنى ونأتيهم بالبينات ، ونجادلهم بالتى هى أحسن ، مؤتنسين فى ذلك بمنهج نبينا صلوات الله عليه ، فى موالاة الدعوة على المنكرين دون كلل أو ملل ، إلى جانب الحرص البالغ على أن تصل كلمة الحق إلى كل نفس ، فلعل ذلك أن يكون خلاصا لها ، واعتمادنا فى ذلك على الله سبحانه وتعالى الذى يحق الحق ويزهق الباطل :

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ (الأنبياء ١٨) .

أجل . لهؤلاء الجدليين نسوق براهين لاتحتمل الجدل ، من أحاديث أمم كاملة دخلت دين الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وحدهما ، فلم يفرض على أهلها الإيمان ، ولا أوجف على بلادهم بخيل ولا ركاب ، إنما هى دعوة الحق وصلتهم ففضت المغاليق وفتحت الأبواب .

ومن المعروف عندنا أن بلاد الهند والجزء الغربى القصى من الصين هما آخر ماوصلته جيوش الإسلام فاتحة ، فكل ماتلا ذلك شرقا ، إنما هو فتح خالص للإسلام وحده ولا جدال فى ذلك ، وإذا كان الإسلام نفسه هو الذى فتح قلوب الأمم والشعوب فى البلاد التى شملتها موجات الفتوح ، فإن البلاد التى نتحدث عنها هى فتوح الإسلام وصوافيه وحده دون أدنى ريب .

سنتتبع انتشار الإسلام فيما يلى الهند وغربى الصين شرقا ، ونسير مع الإسلام المظفر الفاتح ، فإذا فرغنا من ذلك عدنا إلى الغرب فدرسنا فتوح الإسلام وحده فى بلاد أفريقية المدارية ، من حزام الصحراء الكبرى جنوبا ، ثم نلم بعد ذلك بأطراف من فتوح الإسلام بدعوة الحق وحدها فى بقية بقاع هذا الكوكب ، والله على كل خير مستعان .



الإسلام فى برمانيا وشبه جزيرة الهند الصينية



من نواحى الهند التى ضربت فيها جذور الإسلام ، وأزهرت شجرته وأينعت فى تربتها ، ناحية مصب الجانج والبراهما بوترا ، وهو مصب كبير يأخذ شكل دلتا كثيرة الفروع شبيهة بدلتا النيل ، وهناك وإلى قرب مدينة بتنا نجد بلاد البنغال والبهار ، وكلا الجنسين كانا دائما من أفقر نواحى الهند ، لكثرة السكان ، وتوالى جوائح الفياضانات ، فإن الفيضانات كلما جاءت غيرت مجارى ترع الدلتا وعدت المياه على القرى والناس ، ونتيجة لهذا الفقر هبط مستوى أولئك الناس فى بعض أحقاب التاريخ ، وتغلب عليهم جيرانهم واستذلوهم ، وهبطت مكانة معظم الناس هناك قبل الإسلام إلى مراتب المنبوذين ، وتعالى عليهم البراهمة والهندوس ، فلما جاء الإسلام بسماحته ومساواته ، أقبلت جماهير البنغاليين والبهاريين على اعتناقه ، ووجدوا فيه الكرامة والإحساس الإنسانى ، وأعزهم الله بملوك المسلمين ، أيام الخلجيين ومملوكهم كافور (١٢٩٠ -١٣٠٧م) ، فارتفع قدرهم وتحسنت أحوالهم ، ونشطوا للعمل وخف عنهم الفقر ، وأقبلوا يعالجون ضبط الترع بما قبسوه من علوم من أتاهم من العرب والفرس . فرخيت بلادهم وأحسوا بنعمة الإسلام عليهم ، فأكثروا من المساجد فى بلادهم ، حتى أصبحت أعمر بلاد الدنيا بها ، وإذا كنا نقول : إن القاهرة مدينة الألف مئذنة ، فإنهم هناك يقولون : إن « دكا » مدينة الألفى مسجد ، وتلك هى البلاد التى انفصلت بنفسها عن الباكستان ، وأنشأت لنفسها دولة البنجلاديش ، أى : وطن البنغال .

وعندما نشطت حركة العمران ، واتصلت وشملت تلك البلاد ، نشط تجارها وانطلقوا بالمتاجر إلى بقية بلاد الهند ، وإلى مايليهم شرقا من بلاد برمانيا ، وهى بلاد أنهار كبيرة أهمها الإيراوادى والميكونج ، وهى كذلك بلاد غابات وأحراش كثيفة ، وكانت طرق المواصلات فيها تسير مع الأنهار وترعها ، إما فى القوارب أو سيرا على القدم أو الظهر مع شواطىء الأنهار والترع .

وكانت بورما فى القرن الرابع عشر الميلادى ، عندما دخل الإسلام بلاد البهار والبنغال ، تسمى برمانيا ، وكانت تنقسم إلى قسمين ، برمانيا العليا ، وعاصمتها آبا على نهر الإيراوادى ، وبرمانيا السفلى وعاصمتها بيجو على مصب الميكونج ، وكانت البلاد المجاورة للبنغال من برمانيا تسمى أراكان ، وكانت مملكة قائمة بذاتها فشملها الإسلام ، وامتد إلى برمانيا ، وأنشأ تجار المسلمين مراكز العمران والمساجد وسط الأحراش على ضفاف الإيراوادى والميكونج ، وكانت تلى برمانيا شرقا من بلاد ماكان يعرف فى القرن التاسع عشر بالهند الصينية بلاد سيام ، وهى تقابل اليوم مايعرف بتايلاند ، أى أرض التاى،أى أرض الشاى ، وكانت عاصمتها أيوتيا ، ثم إلى الشرق بلاد كمبوديا فى مثل وضعها اليوم ، وإلى شمالها لاوس ثم انام ، وهى مايعرف الآن بالفيتنام شمالها وجنوبها . وسكان هذه البلاد جميعا صينيون وسياميون ، وكانت سيام تمتد مع شبه جزيرة الملايو حتى خط عرض (٧) تقريبا وجنوب ذلك بلاد الملايو بما فيها ملقا ، ويسكنها شعب آخر يختلف كل الاختلاف عن الصينيين والسياميين ، ذلك هو شعب الملايو ، الذى يختلف عن الصينيين كل الاختلاف ، فسكانه من الجنس البولينيزى الذى يعم جنوب شرق آسيا كله بما فيه الفيلبين والجزر شمالها إلى هاواى .

ومن بلاد أراكان انتقل الإسلام مع التجار إلى برمانيا ، وكسب الألوف من سكانها رغم الحرب العنيفة التى أعلنها عليه البوذيون ، وكهنة البوذيين من أشد الناس دفاعا عن مذاهبهم ، لأنهم سادة مجتمعاتهم وشركاء الملوك فى خيراتها ، وهذا كان يعنى السبب فى انتقال الصين والفيتنام وأجزاء أخرى من معاقل البوذية إلى الشيوعية فإن ذلك ليس إعجابا بها ، ولا إيمانا بمبادئها ، ولكنه من طول ماأثقل كهنة البوذيين على الناس .

سار الإسلام فى برمانيا مع مجارى الأنهار ، وعلى سواحل الطرق المائية والبرية قامت الجماعات الإسلامية والمساجد ، وتركزت فى كبار القرى ، لأن كهنة البوذية والهندوكية قاوموا إنشاء المساجد فى بلادهم ، واستعانوا فى حرب الإسلام بالملوك وأصحاب المال والجاه ، ممن رأوا فى الإسلام تهديدا لمراكزهم السياسية والاجتماعية .

ثم جاء تجار المسلمين من نواحى بلاد الهند الأخرى ومن إيران أيضا فاستقروا فى مدن الساحل وأنشئوا المتاجر ، ونشروا الإسلام ، ولكن أمر الإسلام لم يعظم هناك بسبب المقاومة الشديدة التى لقيها من كهنة البوذيين . ومن سوء الحظ أننا نجد فى برمانيا أكبر معاقل البوذية الشانسية ، واليونجى أو الراهب هو السيد المطلق فى القرية أو الحى ، والمعبد الذى يسمى باليونجى كياونج هو مركز الحياة فى القرية ، والبوذية مذاهب شتى ، ولكن مذهب الشانسية منها فيه تشابه كثير مع الإسلام ، فأصحابه يؤمنون بالبعث وحياة أخرى طيبة إذا كان المرء طيبا وشقية إذا كان خبيثا ، ومن أعمال التقى عندهم إطعام الفقير وابن السبيل وإنشاء الباجودات وهى معابد البوذية ، وهم يخرجون من أموالهم تبرعات تشبه الزكوات ، ويشترون بها الطعام ، ويجعلونه على أبواب المعابد ، يطعم منه من شاء ، وربما كان هذا هو الذى حال دون توسع انتشار الإسلام فى برمانيا ، فإن الرجل من البرمانيين لم ير الفرق بين البوذية الشانسية التى هو عليها والإسلام .

على أى حال أنشأ الإسلام جماعات فرعية من المسلمين فى المدن والقرى ، ولكنها لم تزهر كما ستزهر جماعات المسلمين فى ملقا ، وهى بلاد كَلَّه أو كلابار .

وبلاد الهند الصينية ليست من أوعر بلاد الأرض سطحا ، ولكنها من أصعبها مواصلات ، فإن الجبال والمرتفعات والأراضى القاحلة ، ومناطق الأحراش ، تضع سدودا وقيودا حقيقية على التواصل والتلاقى ، ولهذا انقسم شبه الجزيرة هذا إلى هذه الأقسام السياسية المتعددة ، وسكنتها شعوب مختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف ، بسبب صعوبة التواصل . والفرق جسيم بين السياميين الشديدى السمرة ، والأناجين صغار الأحجام أهل البشرة البيضاء ، والكمبوديين الذين لايجمع بينهم وبين جيرانهم فى شبه الجزيرة إلا الملامح الخاصة بالجنس الأصفر .

ولكنها هناك لاتكاد تبين ، ولقد عرف الصينيون بالإقبال على الهجرة والمعرفة والاشتغال بالتجارة ، ولهذا كثرت أعدادهم فى كل بلاد شرقى آسيا إلا فى الهند الصينية ، فهم لا يمثلون هناك إلا واحدا على خمسين من كتلة السكان ، وغالبية السكان هم الأناميون ، الذين يعمرون الثلث الغربى لشبه الجزيرة ، وبعضهم من الأناجين ، وفى جنوبى شبه الجزيرة يعيش جنس التجام أو التشام ، وهم أناميون فى الأصل ، ولكنهم سكنوا السواحل ، والطرف القصىّ الجنوبى من شبه الجزيرة يسمى يتنكين ، ثم الأراضى المتصلة بملقا أو بلاد كله ، وبين هؤلاء انتشر الإسلام وعم معظمهم ؛ وقد أثار ذلك غضب كهنة البوذية فناصبوا التجاميين العداء ، وضاعفوا جهودهم فى ردهم إلى البوذية فلم يوفقوا ، وثبت الإسلام عند التجام أو التشام ، وانتشرت المساجد فى بلادهم فى شبه جزيرة ملقا .

ومن الواضح أن الإسلام وصل أولئك الناس فى شبه جزيرة ملقا عن طريق التجارة ، والغالب أن أولئك التجار لم يكونوا من العرب أو الفرس ، بل من الهنود ، لأن مصطلح الإسلام هناك شديد التحريف ، وإن كانت العقائد والعبادات نفسها صحيحة . ويؤيد ذلك أن قلة من أهل شبه الجزيرة يتكونون من التامول ، وهم جماعة من الهنود ، هاجرت إلى جنوبى الهند الصينية ، واستقرت فيها واختلطت بأهلها ، ومن الممكن القول بأن التامول قاموا بدور كبير فى نشر الإسلام فى الهند الصينية ، فالتامول هنود مسلمون أهل سنة،وهم أهل رحلة وأصحاب متاجر ، ولعل هذا هو السبب فى إسلامهم ، فقد اتصلوا بالعرب ، وهم ايضا أصحاب رحلة ومتاجر ، ثم قام التامول بدورهم بنشر الإسلام بين جماعات التجام فى الهند الصينية ، ربما فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فقد انتهت دولة الخلجيين فى الهند سنة (١٣٢٠) م ، وهى التى وسعت نطاق الإسلام فى شمال شرقى الهند ، ثم إن التجام أنشئوا بعد ذلك دولة كبيرة فى (أنام) عرفت باسم دولة الشامبا على الشاطىء الشرقى للهند الصينية ، أى فى إقليم (أنام) ، ولكن هذه الدولة كانت صغيرة العمر .

وإلى يومنا هذا مازالت بقايا أولئك المسلمين الأناميين تعيش فى جنوبى الهند الصينية فى أعداد صغيرة . ولقد حاربتهم الشيوعية التى انتشرت هناك ، فهاجر معظمهم إلى كمبوديا ، وإلى هناك طاردتهم الشيوعية أيضا ، فإن كمبوديا تعانى

من جماعات الشيوعية فيها ، ومن عدوان شيوعية الفيتنام عليها . حقا : إن عددهم قليل اليوم ، ولكنهم من الصابرين المحتسبين ، فهم من الذين يصدق عليهم قول رسول الله ﷺ : « القابض على دينه كالقابض على الجمر » ، وأمثال هذه الجماعات الإسلامية المضطهدة جديرة منا بكل عون وعناية ، والذى يخشى اليوم هو أن تهاجر بقية أولئك المسلمين الذين يعيشون فى محنة إلى بلاد الملايو ، وهى شبه جزيرة ملقا ، وسننتقل للكلام عن الإسلام فيها بعد قليل .

يتجمع المسلمون فى كمبوديا والفيتنام فى مراكز معينة فى الجنوب ، وهم ليسوا جميعا من التجام فقط ، وإنما نجد فيهم الكثيرين من مهاجرة الملاويين إلى الهند الصينية ، وأكبر مواضع تجمعهم فى سايجون وتشولون وتشاو دوك وكوشن – شين وبنوم – بنه – وكامبونج لودنج وكما ميونج – تشام ، ولوفك وكامبوت وبورسات ، وبضعة مواضع أصغر من هذه ، وهم يجرون فى ممارسة عباداتهم على مثال إخوانهم مسلمى الملايو ، ويعيشون مجموعات متماسكة قوية ناجحة ومرهوبة الجانب ، وهم على الجملة من أنجح أهل الهند الصينية فى التجارة وشئون المال ، وهم مهرة فى شئون الزراعة وصيد السمك ، ونجاحهم يجلب عليهم السخط والحسد ، ويثير سخط الناس عليهم كهنة البوذية . ومعظم أولئك المسلمين أهل سنة وإن كان فيهم بعض الشيعة ، وهم يقرءون ماتدعو إليه حاجة الصلاة من القرآن قراءة صحيحة ، وفيما عدا ذلك فإن ألفاظ العربية تتحرف على ألسنتهم تحريفا قد يخفى أصولها . وهم يقيمون صلواتهم بانتظام ، ويحرمون أكل لحم الخنزير والكلاب والسلاحف والتماسيح والفيلة والطواويس والصقور والنسور . والكثيرون منهم يحملون لقب الحاج ، ومساجدهم كثيرة وصغيرة ، وهى تبنى فى الغالب من الخشب على نشز من الأرض وهى تفرش بالحصر . وفى مدخل المسجد حوض ماء للوضوء ، ويستعمل المسجد كما هو الحال فى معظم بلاد المسلمين مدرسة لتعليم الصغار وتحفيظهم القرآن الكريم بصورة خاصة ، وهم لايتركون صوم رمضان قط ، وهم ينطقون لفظ الجلالة « أوفلا » يريدون : الله . وإلى جانب أسماء أولادهم الملاوية أو الكمبودية يعطون الأولاد أسماء إسلامية هى فى الغالب عبد الله أو محمد ، أما البنات فمعظمهن يسمين فاطمة وينطقونها « فواطْمَه » .

وهم يستعملون فى مصطلحهم الدينى الألفاظ العربية محرفة ، وقد أخذوا هذه الألفاظ عن أساتذتهم الملاويين ، فنجدهم يقولون : مؤفاتى (مفتى) وقُوح كالل (كالل : قاضى) وراجاله كالل (قاضى) وقوان باكيه (فقيه) وحكيم (طبيب) وكتيب (خطيب) والمؤذن عندهم يسمى بلالا أيا كان اسمه .

ومعظم القائمين بأمور الدين فيهم من الحجاج الذين أدوا فريضة الحج ودرسوا شيئا من الدين فى الحجاز ثم عادوا ليكونوا أئمة وخطباء فى المساجد .

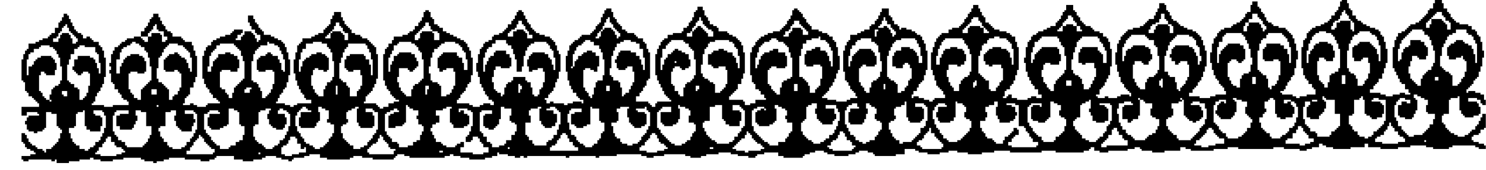
وهكذا وبفضل حماس البنغاليين والبهاريين ودعاة آخرين انتشر هذا الدين الحنيف ، كما رأينا فى الكثير من نواحى شبه جزيرة الهند الصينية ، وحبب الله إلى أهلها الحج إلى بيت الله الحرام ، فيتحمل الرجل منهم مشاق الرحلة ونفقاتها ليزور مهد الإسلام ويؤدى فريضة الحج ويعود حاملا لقب حاجى ، ولهذا اللقب عندهم مقام عظيم ، وقد انصرف الكثيرون من هؤلاء إلى الدعوة للإسلام فساروا شرقا فى رفقة التجار وقوافلهم ، وصاحبهم كذلك نفر من العُباد والزهاد وجعلوا دأبهم نشر الإسلام وبناء المساجد حيثما استقروا ، وقد نجح الكثيرون من هؤلاء فى نشر الإسلام فى سيام وبِرمانيا وأنام ، وكانت شعوبها كلها تعرف عندهم بشعوب الخير ، وقد قيل إن بعضهم كان يستطيع أن يدخل فى الإسلام مابين مائة وثلاثمائة من الناس فى يوم واحد .

ومن أشهر هؤلاء الداعية المشهور سيد يوسف الدين ، وقد بارح هذا الشيخ الصالح وطنه بغداد إلى بلاد السند لنشر الإسلام بين أهلها ووفق توفيقاً كبيراً ، ثم انتقل إلى البنغال وواصل الدعوة بنجاح ، ومن هناك صار فى قوافل التجار إلى بلاد بِرمانيا وسيام وفى برمانيا أنشأ زاوية لطريقته الصوفية وأنشأ كذلك عدداً كبيراً من المساجد ، ووضع للجماعات الإسلامية فى بِرمانيا نظاما سليما قبل وفاته ، وإلى يومنا هذا يعتبر السيد يوسف الدين أشهر شخصية إسلامية فى الهند الصينية .

ومن أسف أن انتشار الشيوعية فى نواحى بورما (بِرمانيا) وتايلاند يُسَبِّبُ الآن متاعب كبيرة للمسلمين فى تلك الأصقاع ، وكان أولَ من حارب الإسلام فيها واجتهد فى وقف تقدمه المستعمرون ، مابين إنجليز وفرنسيين . وكان الأوربيون عندما تمكنت لهم الأمور فى جنوبى آسيا خلال القرن الماضى – وهو التاسع عشر

الميلادى – قد وجدوا فى الإسلام عقبة كبرى فى مد سلطانهم ، وكانت الجمعيات التبشيرية نشيطة جدا ، إذ كان أمل أولئك الناس عظيما فى أن يستطيعوا بما لهم من سلطان سياسى أن يدخلوا أهل البلاد – مسلمين وغير المسلمين – فى دياناتهم ، فأنفقوا الأموال الكثيرة فى ذلك المطلب دون نتيجة تذكر ، ولكنهم على أى حال أذاعوا عن الإسلام أباطيل كثيرة وأساءوا إلى أهله وحرضوا الناس عليهم . ثم إن المستعمرين ظنوا أنهم يضربون الإسلام إذا هم أحيوا البوذية وشجعوها وتقربوا إلى الكهان ، وقد كان لذلك أثره غير المحمود بالنسبة للإسلام والمسلمين . ومن هنا بدأت محنة الإسلام فى معظم بلاد جنوبى آسيا شرقى الهند ، فسواء فى بورما وهى برمانيا أو تايلاند وهى بلاد سيام أو كمبوديا ولاوس والفيتنام بقسميها نجد الإسلام اليوم يحارب فى سبيل البقاء ، ونجد المسلمين على كثرتهم يعانون من الاضطهاد والمطاردة ، وتلك مشكلة كبرى من مشاكل الإسلام المعاصر .





انتشار الإسلام في جزر المهراج (إندونيسيا)



كان العرب سادة التجارة في المحيط الهندى ، وبحار جنوب آسيا حتى مجىء البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر الميلادى . وهذه السيادة التجارية هى التى مكنت لتجار المسلمين ومن جاء معهم من الدعاة ، من أن يكسبوا للإسلام ثانى أقطاره سعة وتعداد سكان وثروة ، وهى جزائر المهراج أى إندونيسيا أو بلاد الثلاثة آلاف جزيرة .

ومن العسير تحديد تاريخ دخول الإسلام هذا البلد الكبير . وتحكى المراجع أن تجار المسلمين أنشئوا لأنفسهم مراكز تجارية على السواحل من وقت مبكر ، ربما فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث الهجريين ، الثامن والتاسع الميلاديين ، ونقطة الخلاف هى : من أين أتى أولئك التجار المسلمون ؟ من شبه جزيرة الملايو أم من الهند ؟ والرأى الراجح هنا أن أوائل المستقرين من الذين قاموا بالدعوة للإسلام فى الجزر كانوا من العرب ، ثم تبعهم الهنود . ويذهب (سنوك هرجرونيه) إلى أن معظم الهنود الأول أتوا من ناحية الكجرات فى شرقى الهند ، وكانت مراكزهم الأولى على الشاطىء الغربى لسومطرة ، وكانوا يسمونها سمدرة ، ومن الثابت أن العرب جاءوا إلى سومطرة بالمذهب الشافعى ، وأن الهنود

(١) ورد هذا الاسم لجزائر إندونيسيا عند المسعودى ، أما ابن بطوطة فيسميها جاوة الصغرى وجاوة الكبرى . وبقية الجغرافيين العرب يدخلونها فى بلاد الملايو ، والاسم القديم لهذه الجزر هو نوسانتترا ، وعندما استقلت إندونيسيا كان هناك اتجاه يرمى إلى إطلاق اسم نوسانتترا عليها ، ولكن الرأى استقر فى النهاية على اسم إندونيسيا والأصح أن نقول : هندونيسيا .

أتوها بالمذهب الحنفى ، وكان المذهب السائد بين مسلمى السواحل الغربية للهند ومنها أتوا . ويحكى ابن بطوطة أن سلطان سمدرة المسلم فى القرن الرابع عشر ، كان على علاقات ودية مع سلاطين دهلى من المغول .

وقد أثبتت البحوث الأثرية أن المسلمين عرفوا الجزر الإندونيسية ، وخاصة سومطرة ، من وقت مبكر ، فهناك قرب سمدرة ، التى سنتحدث عنها بعد قليل ، عثر الباحثون على شاهد قبر رجل مسلم ، توفى هناك سنة (٦٠) هـ (٦٧٩) م ، وليس ذلك بمستغرب فقد عرف الملاحون العرب بلاد الملايو وجزر أندونيسيا من قبل الإسلام ، ولدينا كتابات كتبت بالخط المسند ، على آثار وجدت فى شمالى سومطرة ، ويظن أن أصحاب هذه الكتابات كانوا أصحاب مخازن ومنشآت تجارية عربية فى تلك الجزر . وبعد دخول العرب جميعا فى الإسلام زاد نشاط تجار عمان ، وحضرموت ، واليمن فى المتاجرة مع أهل تلك الجزر ، وقد بعث الإسلام فيهم روحا جديدة ، وأعطاهم طابعا حضاريا أرقى بكثير مما عرفته الجزر إلى ذلك الحين ، ونستطيع القول ، بناء على المعلومات التى يقدمها المسعودى فى مروج الذهب عن هذه الجزر ، إنها كانت إذ ذاك معروفة للمسلمين معرفة كبيرة فهو يذكر بحر كلاهبار (كله بار) ويقول « وتفسير ذلك بحر كله ، وبحر كدرنج[1] ثم يليه بحر الصنف وهو البحر الواقع شرقى الهند الصينية » ، ويقول المسعودى : « وفيه مملكة المهراج وجزيرة سريره ومساحتها فى البحر نحو من أربعمائة فرسخ ، عمائر متصلة ، وبه جزيرة الزابج والرامنى[2] » ، والزابج هى جزيرة سومطرة ، والرامنى مجموعة من الجزر غربى سومطرة ، تسمى أحيانا (واقواق الصين) ، أما سريره فالغالب أنه اسم مملكة كانت فى سومطرة إذ ذاك .

وقد انتهج تجار المسلمين ودعاتهم نهجا قويما فى سلوكهم ومعاملاتهم مع الناس ، مما أدى إلى اجتذاب الناس لدين الله ، وإدخالهم فيه ، فوثقوا علاقاتهم بالناس واختلطوا بهم وتزاوجوا معهم ، وأدخلوهم فى الإسلام فنشأ أولادهم

---

(١) صحته كندرنج وهو فى رأى جابرييل فران راس جاك على الساحل الشرقى للهند الصينية ، انظر العرب والملاحة فى المحيط الهندى ترجمة د . يعقوب بكر ، ص (٣٢٢) .
(٢) المسعودى مروج الذهب (١ / ١٥٤) .

مسلمين ، وعن هذا الطريق تحول التجار ، واقتنوا الضياع والدور ، واتخذوا العبيد وأدخلوهم في الإسلام ، وأصبحت لهم (عزوة) وقوة ، بفضل معارفهم وأصهارهم وأولادهم ورقيقهم ، وأصبح لهم تبعا لذلك بين الناس جلالة وقدر ، وتعاونوا فيما بينهم فى ذلك فزاد جاههم ، خاصة وقد تكلموا لغة أهل البلاد وداخلوا الأغنياء وعلية القوم وأهل السطوة من أهل البلاد . وكانوا بطبيعة الحال أهل حضارة وثقافة بفضل الإسلام وحضارته ، ومن هنا تمكنوا من احتلال مكانة رفيعة ، وأصبحوا قادة الناس ، وزاد دخول هؤلاء فى الإسلام .

سومطرة :

ويبدو أن أول جماعة إسلامية ذات قدر قامت فى إندونيسيا كانت فى أتجيه أو أتشيه فى شمال غربى سومطرة أو سمدرة ، ويقال كذلك : إن منشئها كان داعية عربيا ، يسمى عبد الله عارف ، وقام تلميذ له يسمى برهان الدين يحمل الدعوة حتى برياماں على الساحل الغربى لسومطرة أيضا ، وبلغ من تمكن الإسلام هناك أن رجلا مسلما استطاع أن يقيم أسرة حاكمة وتسمى باسم جيهان شاه ، « ويغلب على الظن أنه هندى الأصل ، ثم لم يلبث أن أصبح إندونيسيا ، وتزوج من أهل البلاد ، وتسمى باسم سرى بدوحا سلطان .

ظل انتشار الإسلام فى سومطرة مقتصرا على السواحل زمنا طويلا ، لأن الهندوكية كانت عميقة الجذور فى الدواخل تؤيدها مملكة تسمى منانج كاباو .

ويقول باركو بولو الذى قضى خمسة أشهر على ساحل سومطرة الشمالى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى : إن غالبية السكان هناك كانوا على الوثنية ، فيما عدا مملكة برلاك الواقعة على الساحل الشمالى الشرقى لسومطرة تجاه ملقا ، فقد كان أهلها فيما قال مسلمين بسبب كثرة تجار العرب هناك .

ومن أتشيه تقدم الإسلام جنوبا إلى ساحل سومطرة الغربى حتى وصل المسلمون إلى الساحل الجنوبى ثم الشرقى ، وصعدوا ساحلين حتى وصلوا إلى أرو تجاه ملقا أيضا ، وبذلك وصلوا إلى مملكة برلاك من الناحية الشرقية ، وكان زعيم الجماعة

التى حملت الإسلام هذه المسافة الطويلة يسمى الشيخ إسماعيل ، كان شريف مكة قد أرسله ليعمل على نشر الإسلام فى سومطرة ، ومن برلاك سار الشيخ إسماعيل إلى مدينة سمودرة ، وكانت الرياسة فيها لرجل يسمى مارسيلو ، فتمكن الشيخ إسماعيل وجماعته من إدخاله فى الإسلام وتسمى بعد إسلامه باسم الملك الصالح ، وتزوج ابنة ملك برلاك وأنجب منها ولدين ، وعمل على توسيع رقعة مملكته الإسلامية ، فضم إليها مملكة باساى على الساحل الشمالى لسومطرة ثم أورث كلا من ابنيه نصف مملكته .

وقد كان ابن بطوطة فى سمودرة سنة (١٣٤٥) م ، وهو يحدثنا عن ملكها المسمى بالملك الظاهر ، واتساع ملكه وعدله وتقواه وثروته . ويبدو أن الملك الظاهر كان أحد ولدى الملك الصالح الذى ذكرناه .

وفى الوقت نفسه كان الإسلام قد أخذ طريقه فى داخل الجزيرة ، حيث دخل الناس فيه أفواجا ، ولكنه لقى مقاومة من أهل مملكة البتك فى وسط الجزيرة ، غير أن هذه المقاومة أخذت تضعف نتيجة لسياسة الهولنديين ، فى القضاء على القوى السياسية القائمة فى جزر إندونيسيا ، فلما قضوا على السلطان السياسى للبتك انفتح الطريق أمام الإسلام ، وأقبل عليه الناس أفواجا واعتبروا الدخول فى الإسلام تعبيرا عن احتجاجهم على الهولنديين ، بل بلغ من إقبالهم على الدين فى بلاد البتك أن من كان قد تنصر من أهلها على يد هيئات التبشير ، انتقل إلى الإسلام الذى أخذ طابعا قوميا محليا . ولهذا السبب نجد أن الإسلام تمكن من اجتذاب أهل بلاد بالمبانج الواقعة فى جنوب سومطرة ، ولم يتم إسلام هذه البلاد إلا فى أوائل القرن العشرين .

جـاوة

وقد دخل الإسلام جاوة من شبه جزيرة ملقا ، ولم يلبث أن عمها جميعا ؛ لأن دعاته لم يجدوا مقاومة تذكر ، فإن معظم الجاويين فى دواخل الجزيرة كانوا فى ذلك الوقت على الوثنية ، فسهل انتقالهم إلى الإسلام ، ويرجع معظم الفضل فى ذلك إلى داعية نشيط يسمى الشيخ إبراهيم المتوفى سنة (١٤١٩) ، وسنتحدث عنه فيما بعد ، فقد تمكن هذا الرجل وتلاميذه وأتباعه ، ومن جاء

بعدهم من إدخال أهل جاوة جميعا فى الإسلام ، قبل القرن السابع عشر ، وأصبح الشعب الجاوى من ذلك الحين شعبا إسلاميا أصيلا حتى أنشىء لطلابهم رواق خاص بهم فى الأزهر الشريف سمى برواق الجاويين . وللإسلام فى جاوة تاريخ طويل ؛ لأن جزءا كبيرا من المناطق الساحلية لجاوة عندما وفد الإسلام عليها ، على أيدى تجار العرب ومهاجريهم ، كان داخلا فى نطاق الديانة الهندوكية وحضارتها ، وكانت التقاليد الهندوكية قد أرست قواعدها على سواحل الجزيرة ، فلم يستطع دعاة المسلمين وتجارهم أول الأمر شيئا .

ويقال : إن بواكير إسلام جاوة بدأت على يد أمير من أبناء ملك « باجاجاران » وكانت مملكة صغيرة على الساحل الغربى للجزيرة ، ويقال : إن هذا الرجل ترك العرش لأخيه واشتغل بالتجارة فذهب إلى بلاد العرب وهناك أسلم ، وتسمى باسم حاجى بروا ، وعندما عاد إلى وطنه لم يوفق إلى إدخال أخيه وأسرته فى الإسلام فهرب إلى الأدغال واختفى .

وفى النصف الأخير من القرن الرابع عشر الميلادى ، قامت حركة جديدة للدعوة على يد داعية ذكرناه آنفا ، يسمى ملك إبراهيم أو الشيخ إبراهيم ، يقال إنه من أحفاد زين العابدين حفيد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد استقر هذا الرجل داخل الجزيرة بين القبائل الفطرية وأخذ يدعو إلى الإسلام ، وطمحت نفسه إلى أن يكسب إلى الإسلام راجاما جاباهيت الهندوكى ، وكانت مملكته تشمل معظم الجزيرة ، وكاد يوفق لولا ظروف سيئة لا يد له فيها حالت دون توفيقه ، ولكنه كسب إلى الإسلام عددا ليس بالقليل من سكان الجزيرة وتوفى سنة (١٤١٩) م ، ودفن فى جريسيك ، ومازال قبره هناك إلى اليوم يعظم ويزار ، ويفهم من رواية لسائح صينى زار جاوة سنة (١٤١٣ م) أن المسلمين كانوا قد كثروا فى البلاد ، حتى أصبحوا يعدون من الطبقات الظاهرة فى المجتمع .

وفى ذلك الحين كانت تقوم فى الجزيرة الإمارات الوسطى والشرقية ، وكانت أغنى هذه الإمارات وأكبرها إمارة ماجاباهيت الهندوكية التى ذكرناها آنفا . وفى أقصى الغرب قامت إمارات أخرى أكبرها تشيرمبون . وقد انتشر الإسلام فى شرق الجزيرة بفضل داعية من أصل ملوكى يسمى « رادن رحمت » أقامه راجا

ماجاباهيت أميرا على بلدة توماېل على الساحل الشمالى الشرقى ، فحول أهلها كلهم إلى الإسلام .

وكان « رادن رحمت » قد أرسل داعية يسمى الشيخ خليفة حسين ، إلى جزيرة مادورة فتمكن من تحويل أهلها للإسلام ، وبنيت المساجد فى كل هذه الأقطار التى دخلت دار الإسلام . وفى سنة (١٤٧٨) تمكن المسلمون من القضاء على سلطان راجا ماباهيت حامى الهندوكية ، وبذلك انتقلت السيادة فى شرقى جاوة إلى المسلمين ، ثم انتشر الإسلام فى جنوبى جاوة . وتأخر إسلام وسطها بضعة قرون ، ولكنه تم بعد جهود مضنية ، قام بها الدعاة وأهمهم الشيخ نور الدين إبراهيم أحمد ، وقد أرسل هذا الشيخ ابنه مولانا حسن الدين إلى ولاية بنتام فى الغرب فنجح فى إدخال أهلها فى الإسلام . وخلال القرن السابع عشر نجد أن غربى جاوة قد تم إسلام أهله وبذلك أصبحت جاوة بلدا إسلاميا .

بورنيو (كليمانتان)

ومن جاوة وسومطرة انتقل الإسلام إلى جزيرة بورينو وانتشر على ساحلها الغربى والشمالى ، وتحولت سلطنة بروناى إلى الإسلام بعد أن عم الإسلام غربى الجزيرة كله . أما بلاد الداخل فقد أبطأ توغل الإسلام فيها نظرا لوعورة سطحها ، وتفرق الداخل بين مئات من القبائل الوثنية .

وانتقل الإسلام من جاوة إلى مجموعة جزائر (سلبيس) ، ودخلت فيه – دون صعوبة – القبيلتان الكبيرتان ، اللتان تسيطران على شبه الجزيرة ، وهما (ماكتبار والبوجى) ، ثم لم تلبث قبيلة الغور التى تقطن الداخل أن أسلمت وطلب المسلمون فى سلبيس أئمة ودعاة من أهل مملكة إتشيه ، فلبوا طلبهم وأرسلوا إليهم عددا كبيرا من الدعاة .

وفى أوائل القرن السابع عشر كانت كل مجموعة جزائر سلبيس قد دخلت فى الإسلام ، وتبعتها جزيرة لومبوك . أما جزيرة بالى الواقعة بين لومبوك وجاوة ، فقد كان الإسلام قد غزا جزءا منها عندما أقبل الهولنديون ، وقد افتتن هؤلاء بها

نظرا لجمال مناظرها الطبيعية ، ومعابدها البوذية ، وحسن نسائها وامتيازهن فى الرقص الإندونيسى التقليدى ، فاعتبروها منطقة تسلية ومتعة وسياحة . وأنشئوا فيها الفنادق ودور اللهو ، ولم يأذنوا للدعاة بالعمل فيها ، فتوقف انتشار الإسلام فيها ، ومازالت إلى يومنا هذا جزيرة سياحية أو مركزا للهو فى هذا الأرخبيل الكبير .

أما مجموعة جزر الصند الصغرى التى تلى لومبوك شرقا ، وأكبرها جزيرة تيمور فقد دخلت فى نطاق الإسلام فى الوقت نفسه ، أى خلال القرن السابع عشر ، وقد ضمتها جمهورية إندونيسيا إلى بلادها فى الستينيات من هذا القرن العشرين ، عقب وقوع الانقلاب الحالى فى البرتغال ، بعد موت المستبد الغاشم سالازار .

ومن غرب سومطرا هذا هاجرت إلى شبه جزيرة الملايو جماعات إسلامية ، فيها تجار ودعاة كثيرون إلى الطرف الجنوبى من ملقا ، وأخذت تعمل على نشر الإسلام من أواسط القرن الثانى عشر الميلادى ، ثم صعدت حتى وصلت مدينة ملقا عاصمة مملكة ملقا . ثم أقبل إلى هذه المملكة تاجر وداعية عربى من جدة يسمى (سيدى عبد العزيز) ، وقد تمكن هذا الشيخ من إقناع ملك ملقا بدخول دين الله ، وسماه محمدا ، وتبعه فى إسلامه أهل مملكته ، وأصبحت مملكة ملقا أولى الممالك الإسلامية فى شبه الجزيرة وتبعها غيرها ، مثل مملكة قويدة فى شمال شبه الجزيرة ، وقد تم إسلامها سنة (١٥٠١) ، وكانت قبل ذلك هندوكية يحكمها ملك لقب بالراجا ، وقد دخل الإسلام هذه المملكة على يد داعية عربى يسمى (عبدالله) . وأمر الراجا ببناء المساجد فى بلاده ، وجعل لكل مسجد أربعين من القومة لصيانته والاشراف على شئون العبادة،ثم اتصل راجا قويدة بسلطان إتجيه وأرسل هذا إليه كتابا يخطب وده وأرسل إليه بعض الكتب الدينية الإسلامية .

وهكذا نرى أن الإسلام فى مسيره فى جزر إندونيسيا التى كانت تسمى بجزر الهند الشرقية ، قد قفز فى طريقه شبه جزيرة ملقا ليصل إلى بقية الجزر ، وسنتحدث عن إسلام ملقا بعد قليل .



وقد يقع فى خاطر بعض الناس بسبب هذا الإيجاز الشديد الذى توخيناه فى التأريخ لدخول الإسلام الجزر الإندونيسية وانتشاره فيها ، أن الأمر تم فى سهولة

ودون مشقة ، ولكن نجاحا باهرا كهذا الذى رأيناه ، لايتم دون تضحيات كثيرة وصبر طويل ، فإن العقبات أمام هؤلاء الدعاة كانت لاتقل عما لقيه دعاة الإسلام فى بلاد الترك فى أقصى شرقى بلاد الإسلام ، فيما بينها وبين الصين ، فإن أراضى إندونيسيا وعرة صعبة المداخل ، بسبب الجبال والأحراش والمستنقعات ، وكثرة المجارى المائية ، فكان على الدعاة أن يصبروا ويصابروا حتى يصلوا إلى الجماعات الإندونيسية فى دواخل الجزر ، فإذا وصلوا كان عليهم أن يتصرفوا بذكاء وخلق قويم ، حتى يكسبوا ثقة الناس فيأذنوا لهم بالدخول والاستقرار ، ثم مباشرة الدعوة فى رفق ، وكان أولئك الدعاة فى الغالب تجارا ، يعتمدون على مكاسبهم من التجارة فى مواصلة دعوة الدين ، فما كانت وراءهم دول تمدهم بالمال ولا جماعات تواليهم بالتأييد ، ولقد حكى الباحث الهولندى « شريكة » فى تاريخه عن ملوك جاوة قبل الإسلام وبعده ، كيف أن أولئك الدعاة كانوا لايبالون بشىء فى سبيل نشر الإسلام ، فقد كان بعض رؤساء القبائل الوثنية ، فى دواخل جاوة ، يشترطون على التاجر الراغب فى دخول بلادهم أن يتزوج من الفقيرات والأرامل المسنات ، ومن لاعائل لهن ، فكان التاجر المسلم لايبالى بما ينفق من مال ، ومايخسر من تجارة فى سبيل الاستقرار وكسب ثقة الناس ، وقد تولى تاجر حضرمى مسلم أمور نحو مائة فقيرة معوزة من بنات القبائل ، وتعهد بأن يأتى بأزواج لهن ، ففعل ، وأمهر البنات والنساء جميعا ، وأضاع ماله كله فى هذا السبيل ، ولكنه قبل أن يموت فقيرا رأى ثمرات تضحيته ، فإن هذه الزيجات التى تحمل عبئها أنجبت العشرات من البنين والبنات للإسلام ، وهؤلاء بدورهم تزوجوا من أهل البلاد ، فانتشر الدين بفضل سماحة هذا الرجل انتشارا واسعا ، فى بلاد كادو وهى من أوعر نواحى جاوة ، وجدير بالذكر أن الهندوكية كانت متأصلة فى تلك الولاية ، وكان رهبانها يبذلون أقصى الوسع فى وقف تقدم الإسلام ، ولكن التجار الهنود الذين كانوا يقيمون هناك ، وهم عماد القوة الهندوكية كانوا يتعالون على الفقراء ، ولايميلون إلى التعامل معهم فضلا عن مصاهرتهم ، وكان كل تعاملهم مع الأغنياء وذوى الجاه ، فلما فعل المسلمون ذلك تبين للناس فضل الإسلام وإنسانيته ، فأقبل الناس يدخلون فيه أفواجا ، وقد أعجبهم ماوجدوا فيه من سماحة ويسر ، ومن حسن الحظ أنه كان من بين هؤلاء الدعاة التجار رجل من أهل العلم بالفقه ، يسمى فى النصوص زاكتين ، والغالب أنه تحريف لزكى

الدين ، فأنشأ هذا الرجل مدرسة لتعليم الفقه والشريعة ، تعلم فيها العشرات من أبناء التجار المسلمين ، وأهل البلاد ، تعلموا قواعد الشرع وعرفوا فضائله ، فبينما كانت الشرعة الهندوكية تجعل إرث الرجل كله لابنه الأكبر دون سواه ، قسم الإسلام الميراث بالعدل والقسطاس بين ورثة الرجل ، ثم إن الهندوكية كانت تحرم المرأة من الميراث ، بل كانت تدع لأسرة المتوفى الحق فى طردها من الجماعة ، وكان الكهنة يزينون لها إحراق نفسها حية مع بدن زوجها المتوفى ، فلما رأى الناس أن الإسلام يعطى المرأة حقها كاملا فى الميراث ، ويدعها حرة التصرف فى مالها ، ويدعو إلى الرفق بالأرامل ورعاية أموالهن ، أخذوا ينتقلون إلى هذا الدين السمح . وكان التاجر الهندوكى إذا أراد الإحسان إلى فقير ألقى له مايريد إعطاءه إياه بعيدا عنه ، ولم يكن يحق للفقير أن يتقدم لأخذ هذا الإحسان المهين ، إلا بعد أن يبتعد السيد ، فإذا بالإسلام يجعل لهذا الفقير « حقا » فى مال الغنى ، يأخذه بأمر الدين بكرامته وعزته دون امتهان نفسه . ولقد حرض الرهبان ملك الناحية على المسلمين ودعاتهم ، وقالوا له : إن الإسلام إذا انتشر فى الناحية أتى على ماله وأفقره ، فقال له الشيخ زكى الدين : إن العكس هو الصحيح ، ودعاه إلى دخول الإسلام ، ونزل له عن كل ماله تعويضا عما يمكن أن يخسره فى الزكوات ، فلما أسلم الرجل وأدى الزكاة ، زاد حب الناس له ، وأدّوا إليه الأموال طواعية فزاد ماله وبارك الله له فيه ، فاستدعى الرجل الشيخ زكى الدين ليرد له ماله ، فأبى الرجل الصالح ذلك ، ثم قبل على أن ينفقه فى الحج ، فاشترى سفينة ، وأدخل فيها من أراد الحج من المسلمين والمسلمات الجدد ، ووصل إلى مكة المكرمة ومعه مائتان من الحجاج ، وقد سر بهم شريف مكة وأكرمهم ، وتحمل نفقات إقامتهم فى مكة والمدينة ، وعادوا إلى بلادهم يحملون لقب الحاج ، فكانوا بركة على البلاد ؛ لأنهم انصرفوا إلى شئون الدين ونشره .

وقد كان دعاة الإسلام بصفة عامة يلقبون بالسادة أو الأشراف أو الأولياء ، وكان بعضهم بالفعل ينتسبون إلى آل البيت ، ولكن التسمية غلبت عليهم ، وكان لها أثر بعيد فى اجتذاب الناس إلى أولئك الدعاة ، فكان رؤساء القبائل وكبار القوم يرحبون بمصاهرتهم التماسا للبركة ، وقد كان للمصاهرات أبعد الأثر فى إسلام أهل إندونيسيا ، فقد كان الغالب أن يتزوج التاجر المسلم الوافد وينشىء أسرة ،

ويخرج أولاده مسلمين ، وقد دلت شواهد القبور التى عثر عليها الباحثون فى شمالى سومطرة : ولايات أتشيه وسمدرة وباسى ، على أن الأمراء كانوا يرحبون بتزويج بناتهم من أبناء تجار المسلمين ، وفى كثير من الأحيان كان الصهر الشاب يرث عرش حمية إذا مات ، وبهذه الطريقة تحول الكثير من الإمارات إلى الإسلام ، والملك الكامل ملك أتشيه الذى ذكرناه (توفى ٦٠٧ / ١٢١٠) كان ثمرة زواج ابنة التاجر المسلم عبد الرحمن من آخر ملوك إتشيه من الوثنيين ، وقد أسلم قبيل هذا الزواج ، فلما مات هذا الملك أصبح هو ملكا واتخذ لقب الكامل ، وقد عرفنا هذا من كتابات شاهد قبره وهى بالعربية .

وقد أنفق تجار المسلمين على الحج ألوفا من الدنانير ، فإن الحج إلى بيت الله الحرام كان من أقصى أمانى شباب المسلمين الإندونيسيين ؛ ليعود الواحد منهم بلقب الحاج ، فلم يبال التجار بنفقات الحج ، وحملوا فى السفن المئات من أبناء البلاد وأعانوهم على الحج ، فعادوا من صلحاء المسلمين ودعاة الإسلام .

وقد بلغت حركة انتشار الإسلام فى جاوة وسومطرة وغيرهما من مجموعات الجزر الإندونيسية أوجها فى القرن السادس عشر الميلادى ، عندما دخل البرتغاليون البلاد غزاة نهابين ، فكان تصرف البرتغالين مما دفع الناس إلى الإسلام ، فقد أخذ تجار المسلمين ودعاتهم جانب أهل البلاد وناضلوا فى سبيلها هم ومن كان يسلم على أيديهم . وارتبط اسم الإسلام بالعدالة ، ونصرة المظلوم ، والدفاع عن البلد ، فى حين ارتبطت المسيحية باسم البرتغاليين ، وهم غزاة نهابون ، فكسب الإسلام من وراء ذلك كسبا عظيما .

ولم تستقر أقدام البرتغاليين فى جزر الهند الشرقية ، وهى إندونيسيا . لأن الهولنديين كانوا قد رسموا سياستهم على أن تكون تلك الجزر ملكا لهم من دون غيرهم من الأوربيين ، فأخرجوا البرتغاليين ، وردوا الإنجليز عنها ، وكسروهم فى معركة حاسمة ، وانتهى الأمر بأن انفردوا بها ، فلما استقرت أقدامهم وجدوا أن الإسلام قد انتشر بين أهل البلاد ، وأصبح الديانة السائدة ، والحق أن الهولنديين لم يقوموا بجهد يذكر فى نشر المسيحية فى الجزر ، أو فى محاولة وقف تقدم

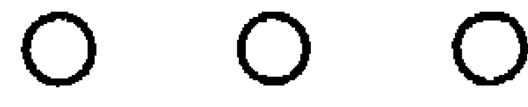
الإسلام ؛ لأن اهتمام الهولنديين الأكبر كان موجها نحو جمع المال ، واحتكار نقل التوابل والعطور وسن الفيل والأبنوس ، وماإلى ذلك من خيرات البلاد ، إلى بلاد الغرب ، وقد وجد الهولنديون فى تجار المسلمين معينا لهم على ذلك ، فقد كان أولئك التجار ، مابين عرب وإندونيسيين منبثين فى دواخل البلاد ، قادرين على أن يجمعوا المقادير الضخمة من الحاصلات ، وجميعها للمراكز التجارية الهولندية على السواحل ، ومن هنا فقد وجد الهولنديون أن الأفضل لهم من الناحية المالية والتجارية ، أن يتركوا الإسلام وشأنه ؛ لكى يخلصوا هم بالتجارة . ولقد كسب الهولنديون من جزائر الهند الشرقية أضعاف ماكسب الإنجليز من الهند كلها بفضل هذه السياسة ؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء محاربة الإسلام ، كما فعل الإنجليز فى الهند وكما فعل الفرنسيون فى الشمال الإفريقى ، ولم ينفقوا على المرافق من أرباحهم شيئا يذكر ، لأن الإنجليز والفرنسيين عملوا على شق الطرق وتمهيدها وتأمين السبل ، تأمينا للتجارة ، وتمكينا لسلطانهم السياسى فى البلاد ، ظنا منهم أنهم باقون فيها إلى آخر الدهر . وأما الهولنديون فكانوا يتسلمون المتاجر على السواحل دون نصب ، وكانوا يدفعون فيها مالا زهيدا ليبيعوها فى أوربا بأسعار باهظة ، وإلى هذه السياسة يرجع الفضل فى ذلك الغنى العريض السابغ الذى تتمتع به هولندا وسط بلاد أوربا رغم ضآلة حجمها ، فقد كدس الهولنديون الذهب والماس والفراء ، وكل ماغلا ثمنه فى بلادهم ، فأصبحت من أضخم بلاد الأرض أرصدة ، وتمكنوا من المساهمة فى معظم رءوس أموال الشركات الأوربية والأمريكية .

وقد أشار على الحكومة الهولندية بتلك السياسة مستشرق هولندى معروف عندنا ببحوثه الكثيرة – وان كانت كلها مغرضة متحاملة – وهو سنوك هورجرونيه فى مذكرة مشهورة قرأناها باللغة الفرنسية .وعنوانها « رأى فى سياستنا فى جزر الهند الشرقية » .

وفيها ينصح الرجل الحكومة بترك المسلمين « غارقين » [كما قال] فى شئون دينهم ، حتى يخلص لنا أمر التجارة والاستغلال الاقتصادى ، فلا يضايقونا فيه ..، بل نصح الرجل الحكومة بأن تشجع انتشار الإسلام فى الجزر حتى يزداد المسلمون فى الدين « غرقا » ، وينعم الهولنديون بالغرق فى المال ، فكانت المراكب التجارية

الهولندية المقبلة فارغة من أوربا ، تأخذ حجاج الإندونيسيين من الشواطىء العربية والهندية بأجر لايذكر وتنزلهم فى جدة وينبع ، ولم يحاول الهولنديون إدخال الحروف اللاتينية فى البلاد ، لطباعة الكتب الإندونيسية ، بل عملوا على تشجيع استعمال الحروف العربية التى كانت مستعملة للكتابة فى البلاد قبل دخولهم، فظلت اللغة الإندونيسية تكتب بالعربية ، وإلى حين قريب كانت فى حى الأزهر مطابع تطبع الكتب الملاوية والجاوية والإندونيسية . وكانت القاهرة إذ ذاك مركز الطباعة العربية فى العالم .

وهكذا نجد أن هذا المستشرق قد خدم الإسلام من حيث لايحتسب ، فكانت القرون : السابع عشر ، والثامن عشر ، والتاسع عشر ، هى فترة الانتشار الحقيقى الشامل ، وتثبيت الاحترام فى تلك البلاد العظيمة .



ولكن الهولنديين اتجهوا إلى تأييد القانون العرفى المعروف بالعادات على حساب الشريعة الإسلامية ، كما فعل الفرنسيون فى المغرب عندما أرادوا محاربة الإسلام بإصدار « الظهير البربرى » فى المغرب الأقصى ، والعادات أو « آدات » عرف بدائى جرى عليه الناس فى حياتهم وأقضيتهم فى البلاد قبل دخول الإسلام ، وهو عرف فجٌّ ، لايقوم على عدالة أو منطق ، وإنما هو يقوم على ممارسات وثنية ، تعطى الحق فى الغالب لصاحب القوة ، وكان يقوم بأمره حكماء من أهل البلاد ، يعيشون منه ويتصرفون فيه كيف شاءوا ، لأنه لم يكن قانونا مكتوبا ، ولم يكن الهولنديون ميالين إلى إدخال قانونهم المدنى فى البلاد وتطبيعه على الأهلين ، فقد بدا لهم أن هذا امتياز ينبغى أن ينفردوا هم به ، فلم يبق أمامهم إلا أن يشجعوا القانون العرفى ويجيزوا أحكامه ، ثم تصدق سلطاتهم على أحكامه فى المعاملات والأحوال الشخصية ، وقد تصدى الشيوخ ورجال الإسلام والفقهاء للدفاع عن الشريعة ، وأعلنوا أن ذلك العرف زندقة وخرافة وخروج على الإسلام وتمسكوا بالشريعة الإسلامية ، وأصروا على تطبيقها حتى كتب النصر لها فأصبحت القانون السارى فى البلاد ، وتلك مآثر الفقهاء وأهل الدين لابد أن تذكر لهم فى دفاعهم عن الشرع الحنيف ، سواء فى إندونيسيا أو فى المغرب الأقصى .

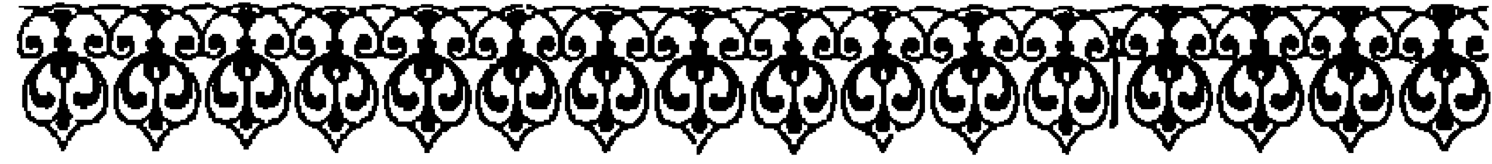
ولقد كان من حسن الحظ أن تمكن الإسلام وحده – دون حرب أو عنف – من القضاء على مملكة الماجاباهيت فى سومطرة قبل مجىء الأوربيين ، فقد كانت هذه الدولة وثنية هندوكية ، وكانت تحمى الهندوكية ، ولو أنها كانت قائمة عندما دخل الأوربيون لأيدوها على المسلمين كما فعل الإنجليز فى الهند ، عندما اعتمدوا على الرؤساء والأمراء من الهندوكيين ضد الأمراء لإضعاف السلاطين المسلمين ، واجتهدوا فى وقف انتشار الإسلام فى الهند ، فكانت نتيجة تلك السياسة الاستعمارية أن ضعفت السلطة السياسية الإسلامية فى الهند وصار الأمر إلى مانراه اليوم . أما فى إندونيسيا ، فلم تكن هناك إلا إمارات وسلطنات إسلامية عندما دخل الاستعمار ، فلم يكن للمستعمر بد من التفاهم مع المسلمين ، وانتهى الأمر إلى النتيجة الباهرة التى نراها اليوم – أن تسعين فى المائة من أهل هذه الجزر من المسلمين ، وإندونيسيا بذلك هى أكبر بلد إسلامى على الأرض وأعمرها بالمسلمين .

ومن أسف أن الحكومة الإندونيسية الراهنة ، تسمح للجمعيات التبشيرية بالعمل بحرية تامة فى بلادها ، وقد استطاعت هذه الجماعات ، أن تكسب أتباعا لعقائدها من بين المعدمين وضعاف العقول والقلوب ، وتكونت نتيجة لذلك أقلية مسيحية فى ذلك البلد الإسلامى . وستكون لذلك نتائج وخيمة فى المستقبل ، فلعل القائمين بالأمر هناك ينتبهون للأمر قبل أن يفوت الأوان .





انتشار الإسلام في شبه جزيرة الملايو أو ملقا



الملاويون سكان شبه جزيرة ملقا فرع من الشعب البولينيزى الذى يعمر كل جزء الجنوب الشرقى لآسيا وشرقها . والأصول القديمة لشعب اليابان كذلك بولينيزية . ويعتبر الشعب البولينيزى من أوسع شعوب الأرض انتشارا ، فهو يمتد من مدغشقر إلى هاواى ، وهو شعب بحرى قوى متميز عن غيره من شعوب آسيا ، ومنه يتكون معظم سكان إندونيسيا ، وماليزيا ، والفيلبين ، وآلاف الجزر فى المحيط الهادىء .

فى شبه جزيرة ملقا استقرت جماعات من هذا الشعب من زمن مغرق فى القدم ، ودخل بعضها فى الهندوكية أو البوذية وبقى بعضها الآخر على الوثنية ، وامتدت هذه الجماعات إلى الشمال فى شبه الجزيرة حتى خط عرض ١٥ شمال خط الاستواء ، وهذا الخط هو الفاصل بين الصينيين والسياميين فى الشمال والملاويين البولينزيين فى الوسط والجنوب ، وإلى هذا الخط أيضا تنتهى حدود ملقا ، وهو الاسم الذى يطلق على الجزء الملاوى من شبه الجزيرة .

وقد عرف المسلمون ملقا من زمن بعيد ، وأطلقوا عليها اسم بلاد كله أو كله بار ، ولفظ بار الذى يكثر استعماله فى المحيط الهندى هو لفظ « بر » العربى محرفا ، فيقال لشاطىء الهند الغربى مالابار أى برمالا ، ويكتبه ابن بطوطة مليبار ، وشاطىء أفريقية الشرقى يسمى زنجبار ، أى ساحل الزنج ، حتى اسم جزيرة مدغشقر أصله ملجاشبار ، أى ساحل الملجاش ، وهم سكان جزيرة مدغشقر ، ثم تحرف لفظ ملجاشبار إلى مدغشقر .

وقد قامت فى شبه جزيرة الملايو ممالك وإمارات كثيرة ، فقامت على الساحل الغربى مجموعة من الإمارات الصغيرة ، اتحدت فيما بينها حتى سميت بالإمارات الملاوية المتحدة ، وأهمها بيراك وسيلانجور ونجيرى وسيميلان ، وتقع كوالا لومبور عاصمة ماليزيا الحالية فى إمارة سيلانجور . وعلى الشاطىء الغربى أيضا قامت إمارتا برليس وكده .

أما فى الشرق فقد قامت إمارتا كيلوفنان وترنجاتو ، وفى أقصى الجنوب تقع إمارة جوهور .

ولكن أكبر الوحدات السياسية فى شبه الجزيرة كانت ملقا ، وتقع فى الشمال ، وتمتد من الساحل إلى الساحل ، وإلى مملكة ملقا هاجر جماعة من جنس هندى يسمى التاميل . وكان التاميل قد أسلموا من زمن بعيد ، وهم أول من حمل الإسلام إلى ملقا .

ثم هاجر إلى ملقا أعداد من المسلمين قدموا من إمارة « بينانج – كباو » خاصة ، وكان أهلها قد دخلوا فى الإسلام ، وكان من بين هؤلاء المهاجرين عدد كبير من التجار والدعاة إلى الإسلام ، استقروا فى مدينة ملقا عاصمة مملكة ملقا وأخذوا يدعون للإسلام ، فاستجاب لهم الناس . ثم وفد على ملقا تاجر وداعية عربى من أهل جدة يسمى سيدى عبد العزيز ، وكان ذلك فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، وقد تمكن هذا الرجل من إقناع ملك ملقا بدخول الإسلام ، فاعتنقه وتبعه فى ذلك أهل مملكته ، وكانت تلك هى الخطوة الحاسمة التى جعلت من بلاد الملايو بلاد إسلام ، لأن معظم إمارات شبه الجزيرة تبعت مملكة ملقا فى دخول الدين بعد القرن الثالث عشر ، وما أن أسلم ملك ملقا حتى أقبل على اللغة العربية يتعلمها لكى يقرأ بها القرآن ، وشاركته فى ذلك زوجته وأولاده الثلاثة ، الذين سماهم راجا معظم شاه ، وراجا محمد شاه ، وراجا سليمان شاه ، وسار الإسلام فى طريقه فى ملقا حتى عمّ بلاد الملايو كلها .

وقامت فى أثناء ذلك فى ملقا ممالك إسلامية أخرى ، دخل معظم سكانها فى الإسلام ، واتصل أهلها بمسلمى جاوة وسومطرة وبقية الهند الصينية ، وهكذا أصبح هذا الجزء الكبير من العالم جزءا من مملكة الإسلام وركنا من أركانه المنيعة .

ومن الثابت لدينا أن إمارة قويدة ، وكانت تقع في شمال شبه الجزيرة كان يحكمها ملك هندوكي يلقب بالراجا ، فأسلم هذا الأمير على يد داعية عربي ، يسمى عبدالله حوالى سنة (١٥٠١) ميلادية ، وقد اجتهد الشيخ عبدالله فى بناء المساجد فى بلاد قويدة ، وجعل فى كل مسجد أربعين من أحسن القومة والدعاة ، وحثهم على العمل على توسيع رقعة الإسلام فى البلاد حتى عمها كلها . وكتب راجا قويدة إلى سلطان أتشيه فى شمال سومطرة – وسنتحدث عنه – يطلب إليه موافاته بكتب عن الإسلام فأجابه إلى ماطلب .

وماأن انتشر الإسلام فى بلاد ملقا ، حتى توافد عليها دعاة المسلمين وتجارهم من كل ناحية ، فأصبحت بلاد الملايو كلها بلاد إسلام .

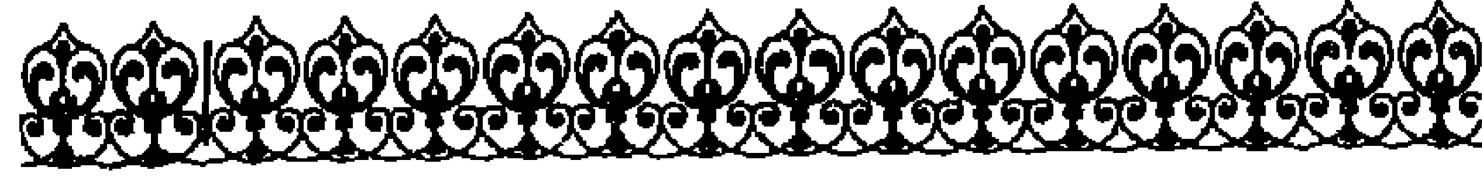
ومن حسن الحظ أن ذلك تم قبل مجيء البرتغاليين ، فقد عدوا على مملكة ملقا ، واحتلوا عاصمتها وحاولوا نشر المسيحية فيها ، فى أوائل القرن السادس عشر ، فتصدى لهم الناس فى حزم وثبتوا على دينهم ، بل زادهم العدوان البرتغالى تمسكا بالإسلام ، فهم لم يروا فى الإسلام إلا خيرا ، أما المسيحية فقد عرفوها عن طريق البرتغاليين ، وهم أهل سلب ونهب . وكان الهولنديون قد وصلوا فى ذلك الحين إلى جزر إندونيسيا وعولوا على أن يجعلوا منها مستعمرة لهم ، وكانت بلاد إسلام ، فلم يسترح الهولنديون لجوار البرتغاليين فى ملقا ، فلم يزالوا بهم حتى أخرجوهم منها ، واجتهد الهولنديون كذلك فى إبعاد الإنجليز ، وانتصروا عليهم فى معركة بحرية فى مضيق ملقا ، فانصرف الإنجليز أيضا عن بلاد الملايو ، ولم يحتلوا منها إلا موقع سنجابور لكى يؤمنوا مرور سفنهم فى خليج الصند (مضيق ملقا) بين شبه جزيرة ملقا وسومطرة ، ولما احتل الهولنديون إمارات بلاد الملايو عاهدوا الملاويين ، فكانوا يحتكرون التجارة فى حاصلات بلادهم فى مقابل قيام الهولنديين بإبعاد بقية الأوربيين الطامعين فى خيراتها .

وقد كتب الملايون لغتهم بحروف عربية ، وكانت لغتهم خليطا من لهجة بلادهم الأولى ولغة التاميل فدخلت فيها مع الإسلام ألفاظ كثيرة عربية وفارسية .

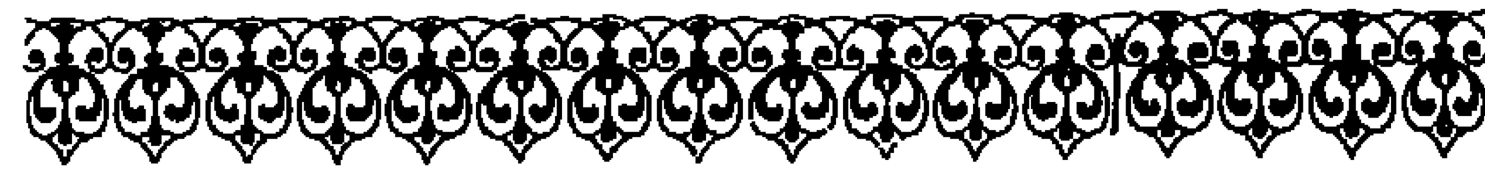
وبلاد الملايو ، وهى اليوم القاعدة الرئيسية لمملكة ماليزيا ، بلاد غنية تنتج المطاط والتوابل والأخشاب الغالية ، وفيها اليوم أكبر مناجم الصفيح فى الدنيا ،

وفيها كذلك بترول كثير ، ولازالت إلى يومنا هذا بلاد إسلام حنيف وأمن ورخاء ، ومازالت تتبع نظام التحالف ، فهى مملكة اتحادية تتكون من سلطنات كثيرة ذكرنا بعضها ، ويرأس حكومتها ملك منتخب هو رمز وحدة البلاد وإسلامها ، وقد ضمت إليها عند إنشاء ماليزيا سلطنتا صباح وبروناى فى شمال شبه جزيرة بورينو ، وكلها سلطنات إسلامية . وكانت فيها أول الأمر سنغافورة ثم انفصلت عنها وأنشأت لنفسها جمهورية قائمة بنفسها . ومازالت لغتهم الملاوية تكتب بالحروف العربية ، وهى بلاد إسلام صحيح .





الإسلام فى جزر الفليبين



قبل أن يصل الأسبان إلى مجموعة الجزائر التى يطلق عليها اليوم الجزر الفليبينية سنة (١٥١٦) ، لم تكن هذه المجموعة الكبيرة من الجزر بلدا واحدا ، وإنما كانت جزرا متفرقة ، تعيش فيها قبائل متنازعة ، وكانت الجزر امتدادا لجزر إندونيسيا ، وهذه وتلك كانتا من منازل الشعب البحرى البولينيزى الواسع الانتشار الذى أشرنا إليه .

وكان الإسلام يمتد فى هذه الجزر على مهل قادما من الجنوب والشرق ، فوصل إلى لوزون ، وهى الجزيرة الكبيرة الشمالية ، فى الوقت نفسه وصل فيه إلى أرخبيل سولو وجزيرة مندناو ، وهى أكبر الجزر الجنوبية ، وكان ذلك فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

ويغلب على الظن أن الدعاة الذين حملوا الإسلام إلى الفليبين أتوا من سلطنة جوهور الواقعة فى الطرف الجنوبى لشبه جزيرة الملايو ، ويذكر مؤرخو الفليبين من المسلمين أن أول من حمل الدعوة الإسلامية إلى بلادهم رجل يسمى شريف كابو نجسوان ، وصل إلى الجزيرة أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وتمكن هو ومن جاء معه من الدعاة من كسب معظم سكان جزيرة مندناو للإسلام ، وانتشر الدين انتشارا واسعا فى أرخبيل سولو أو خولو الذى يقع فى جنوب الجزر الفليبينية ، وكذلك بدأ الإسلام يوغل فى جزيرة بلوان أو بهلوان الكبيرة الواقعة شرقى مجموعة الجزر .

وعندما وصل الأسبان إلى الجزر سنة (١٥١٦)بقيادة سجاستا ، ظنوا أن الجزر على دين الوثنية كما كانت الحال فى معظم جزر بولينيزيا ، فأعلنوا على عادتهم أن هذه البلاد مسيحية ، وسموها باسم ملكهم فيليب الثانى ، وهو الذى أرسل سجاستا وحملته إلى تلك الجزر .

ولكن الأسبان ماكادو يوغلون فى جزيرة لوزون ، حتى اصطدموا بطلائع المسلمين . وقد تعودوا فى صراعهم مع المسلمين فى الاندلس والمغرب ، على أن يطلقوا عليهم لفظ الموروس Las Moros وهى الصيغة الأسبانية للفظ كان شائع الاستعمال فى الكلام على المسلمين ، وأهل الغرب منهم خاصة ، فى العصور الوسطى هو لفظ ماورى mauri ومفرده maurus ، وكان هذا هو اسم قبيلة مغربية بربرية عرفها الرومان وحاربوها فى المغرب ، ومن ذلك أتت تسمية العرب والمسلمين بهذا الاسم عند الأسبان وباسم The moors فى الإنجليزية و Les maures بالفرنسية . وإلى يومنا هذا لا يزال الناس يطلقون تسمية الموروس على مسلمى الفليبين .

ولم يلبث الصراع أن نشب بين الأسبان والموروس ، وهم المسلمون الفليبينيون فى جزيرة مندناو ، وكان دعاة الإسلام قد داخلوا الناس وصاهروهم ، ونشروا دينهم بينهم ، وكانوا يفعلون ذلك على مهل ودون لجوء إلى عنف ، ثم إنهم كانوا أفرادا متطوعين لاتؤيدهم دولة أو قوة عسكرية ، فجاء الأسبان بجيوشهم يقتحمون البلاد على أهلها ، كما كان دأبهم فى غزواتهم فى العالم الجديد ، ففر الناس منهم وأخذوا جانب المسلمين ، واستمر الإسلام يواصل تقدمه فى مندناو ، ومندناو جزيرة وعرة كثيرة الجبال والهضاب والأحراش والمستنقعات ، فأسرع الأسبان بالوسائل التى كانت فى أيديهم ، وحاولوا وقف التقدم الإسلامى ، ولكنهم لم يوفقوا ، فقد اتسمت الإدارة الأسبانية فى مستعمراتها بالفساد والقسوة ونهب أموال الناس ، وعمدوا إلى تنصير الناس بالقوة ، ففتر تقدم الإسلام فى لوزون ، ودارت المعركة فى مندناو ، وجزر الجنوب ، وخاصة فى دواخل جزيرة مندناو ، حيث تعصب للإسلام عدد كبير من رؤساء القبائل ، ومع أن الأسبان أقاموا فى الجزر حكومة منظمة وأمدوها بالسلاح والعتاد وإطارات الحكم فإن فساد الموظفين أدى إلى تعثر الحكم الأسبانى فى الجزر الفليبينية ، واستبسل المسلمون فى الدفاع عن

دينهم وأراضيهم ، فلم يتمكن الأسبان من سيادة الجزء الشمالى من جزر الفليبين إلا بعد حروب طويلة . ومع هذا التوفيق القليل ، فإنهم أعلنوا رسميا سنة (١٨٧٨) أنهم أتموا غزو جزيرة مندناو وأرسلوا بعض سفنهم إلى جزيرة بلوان وأرخبيل سولو . وقد تمكن أهل هذه الجزر الجنوبية من إنزال هزيمة بحرية بالأسبان وردهم إلى لوزون .

وقد أساء الأسبان إلى أهل الجزر كلها إساءات بالغة ، وكانت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر فى تدهور بالغ فى كل الإدارة الأسبانية فى أسبانيا نفسها ، وكل مستعمراتها ، وكانت الولايات المتحدة تعمل بنشاط للقضاء على النفوذ الأسبانى فى أمريكا الجنوبية من منتصف القرن الماضى ، وخاصة بعد قيام حركات الاستقلال والتحرير فى تلك البلاد . فلما استغاث أهل الجزر الفليبينية بالأمريكيين ، بادر هؤلاء بإرسال أسطول كبير ، أنزل بالأسبان هزيمة قاصمة فى مياه الفليبين ، وعلى أثر ذلك تخلى الأسبان للأمريكيين عن الجزر سنة (١٨٩٨) . ولكن الأسبان قبل خروجهم كانوا قد أنشئوا المؤسسات الكنسية ، وأرسلوا جماعات الرهبان والمبشرين إلى الجزر ، فسارت المسيحية فى طريقها فيها . وإلى جانب ذلك أتى الأمريكيون بالبروتستانتية ، وقامت المنافسة الشديدة بين دعاة البروتستانتية والكاثوليك .

ولكن محنة الإسلام فى جزر الفليبين بدأت بعد استقلال البلاد بعد الحرب العالمية الثانية ، وقيام حكومة وطنية على رأسها رئيس من الكاثوليك ، إذ إن القساوسة اهتموا بإثارة الحكومة على المسلمين ، مما دفع هؤلاء إلى رفع علم الثورة والمطالبة بحقوقهم ، وعندما طال النزاع طالبوا بالانفصال بجزيرة مندناو وأرخبيل سولو ، وقد استعانت حكومات الفليبين بالأمريكيين فى صراعهم مع المسلمين ، فزاد تراجع الإسلام فى مندناو ، ولم تبق له من مناراته القديمة إلا جنوب مندناو وأرخبيل سولو . ومازال الصراع قائما إلى اليوم .

ولابد أن نذكر هنا الداعية الجليل ، صاحب الفضل فى إسلام أرخبيل سولو وهو الشريف كريم المخدوم ، فهذا الداعية النشيط ، الذى يرجح أنه من أصل عربى ، وصل إلى ملقا حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، حيث تمكن من كسب السلطان محمد شاه وشعبه فى ملقا إلى الإسلام ، ثم أبحر إلى جزر

سولو سنة (١٣٨٠) واستقر في يوانا ، قاعدة سولو القديمة ، فأدخل الكثير من كبار أهلها فى الإسلام ، ولقى منهم تقديرا عظيما ، وتوفى ودفن فى جزيرة سبوتو ، وخلفه الداعية أبو بكر وهو عربى بدأ عمله فى ملقا ثم ذهب إلى بالمبانج فى بورينو ، ثم انتقل إلى بروناى ، ووصل سولو حوالى سنة (١٤٥٠) فبنى عددا من المساجد ، ونجح فى الدعوة نجاحا كبيرا ، ثم زوجه سلطان باجندا المسلم من ابنته ، وجعله وارث عرشه . فلما وصل إلى العرش قام بتنظيم حكومة سولو على أسس إسلامية ، وهو الذى نظم القوة العسكرية لأهل جزر سولو ، وهم من أشجع أهل هذه الجزر الفليبينية وأصبرهم على القتال . ومع أن مؤرخى الأسبان والفليبين يزعمون أن الإسلام لم يعد له إلا وجود قليل فى سولو ومندناو ، فإن الحكومات الإسلامية عنيت فى السنوات الأخيرة بإرسال البعثات للتعرف على أحوال المسلمين هناك ، فوجدوا الإسلام والحمد لله قائما فى كل الجزر وإن كان مضطهدا ومطاردا من الحكومة . وقد كانت السلطات فى الجزر تظن أن الإسلام لاناصر له هناك ، وأنها تستطيع اتباع سياسة عنف للقضاء على الإسلام ، فانكشف الغطاء وتبين أن المسلمين هناك متمسكون بدينهم ، وأنهم يكونون الغالبية من سكان أرخبيل سولو وجزيرة مندناو ، وأنهم رغم قلة مواردهم يستطيعون الثبات لخصومهم ، وبفضل تدخل البلاد الإسلامية ، خففت السلطات الفليبينية من ضغطها على المسلمين ، وأعلنت أنها لاتفرق بين مسلم ومسيحى من أهل البلاد ، ولكن رجال الدين لايزالون يضغطون على الحكومة ، مما جعل قضية مسلمى الفليبين من القضايا الأساسية ، التى ينبغى أن يضع المسلمون لها سياسة ثابتة بعيدة المدى فإن المسلمين فى الجزر كثيرون ، ثم إن الكثير من القبائل فى وسط مندناو لايزالون على الوثنية ، وهم أميل إلى الإسلام منهم إلى ديانة أخرى .

إن قضية المسلمين فى الفليبين ماهى إلا جزء من الصراع الطويل ، بين الإسلام وغيره من الأديان فى آسيا ، وقد كان ينبغى أن تصبح آسيا كلها إسلامية لو أن المسلمين وضعوا لأنفسهم سياسة شاملة بعيدة المدى لإدخال هذه القارة فى الدين ، ولكننا أضعنا الوقت فى خلافات داخلية ، واتجهنا إلى مصالح عاجلة ، فلم نستطع كسب هذه القارة كلها للإسلام ، والخطأ هنا خطأ المسلمين وحدهم . فهم فى الواقع لم يقوموا بحق الإسلام عليهم فى العصور الماضية ، أيام كانت الدنيا فراغا خاليا من تعقيدات السياسة ومصالحها اليوم .

ولكن الإسلام تكفل بأمر نفسه ، وانتزع فريقا من أهل الفليبين ، واستطاع بجهاد قلة من أهله ، أن يحقق لنفسه كسبا عظيما فى جنوبى آسيا ووسطها على الخصوص . ولقد منى الإسلام فى وسط آسيا وشرقها بالشيوعية الكافرة بالأديان ، وابتلى فى بعض مواطنه الآسيوية الأخرى بسياسات حكومية مناهضة للإسلام ، ولكننا إذا وفقنا إلى المحافظة على الموجود وتقويته وتعميق جذوره ، لخرجنا فى النهاية بنتيجة طيبة . ويهمنا قبل أن نغادر الفليبين إلى قطر آخر من أقطار آسيا ، أن نذكر كل مسلم بإخوته المجاهدين فى تلك الجزر ، فإن أعداءهم كثيرون ، والمؤامرات التى تدار عليهم شريرة وخبيثة ، ولابد لنا من وقفة حازمة جاسمة مع أعداء الإسلام هناك فى وقت قريب ، قبل أن يتسع الخرق على الراقع .





الإسلام فى كشمير والتبت



تبلغ نسبة المسلمين فى كشمير مابين (٧٠٪ و ٧٥٪) من جملة السكان . فهى بهذا من أكثر أقطار الدنيا إسلاما ، ولانجد لدينا تفسيرا لهذه الظاهرة أو تفصيلا عنها ؛ لأن سلطان دول الهند الإسلامية عليها لم يكن ثابتا أو متصلا ، ولكن معظم الباحثين يردون هذا التحول إلى جهود الدعاة من الفقراء والصوفية ، ونفر من دعاة الإسماعيلية ، كانوا يعملون من مركزهم فى قلعة ألَمُوت ، فى إقليم طبرستان جنوبى بحر قزوين .

ويقال : إن أول هؤلاء الدعاة من الصوفية رجل يسمى بلبل شاه ، تمكن من إقناع ملك كشمير الهندوكى بالانتقال إلى الإسلام ، ولقبه بصدر الدين ، فى مستهل القرن الرابع عشر الميلادى من الدعوة للإسلام فى كشمير ، وإنشاء أول مسجد فيها .

وفى سنة (١٣٨٨ م) هرب من همذان جماعة من الصوفية الفرس المعروفين بالسادة ، وكان زعيمهم يسمى سيد على الهمذانى ، وكان معه سبعون من السادة ، فروا نجاة بأنفسهم من سخط تيمورلنك ، فتفرقوا فى بلاد كشمير ، وأنشئوا الربُط والزوايا وخلوات الصوفية فى كل مكان فى كشمير ، وأصبحت هذه الربط مراكز لنشر الإسلام ، وزاد إيمان سلاطين كشمير بالإسلام ، حتى قام أحدهم وهو السلطان إسكندر (١٣٩٣ - ١٤١٧ م) بهدم معابد الهندوس ، وتحطيم أصنامهم؛فلقبه الناس لهذا بلقب بوتشيكان . وحوالى نهاية القرن الخامس عشر ، قدم من العراق أحد دعاة الشيعة ، ويسمى مير شمس الدين ، فوضع جذور التشيع فى كشمير .

وفى أيام سلاطين دلهى الكبار أصبحت كشمير من أكبر وأهم ولايات دولتهم ، فزاد انتشار الإسلام فيها ، ووفد عليها علماء المسلمين من كل مكان ، وفى أيام أورانجزيب تحول راجا كشتوار أحد رؤساء الراجابوت إلى الإسلام على يد صوفى يسمى : سيد شاه فريد الدين .. اشتهر بكراماته . وبذلك امتد الإسلام إلى حدود التبت .

ثم أخذ الإسلام طريقه إلى التبت ، وغزا ولايتى بلستان ولداخ ، وسار الإسلام قدما فى التبت حتى القرن التاسع عشر ، ولكن أحد راجات الحدود ، واسمه رافبير سنك كان من السيخ المتعصبين ، فبدأ يعمل على وقف تقدم الإسلام ، وتشجيع البوذية فى التبت ، فأبطأ انتشار الإسلام ، ووقف عند الجزء الجنوبى من التبت ، وهناك نجد جماعة كبيرة من السكان ، نشأت عن تزاوج تجار الهنود المسلمين ، ومن حذا حذوهم من أهل البلاد من التبتيات ، وظل عدد هذه الجماعة فى زيادة إلى يومنا هذا .

ولاتخلو مدينة رئيسية فى التبت من المسلمين ، وفى لهاسا عدد كبير من المسلمين ، لايقل عددهم عن أربعين ألفا . ومن التبت انتقل الإسلام إلى ولاية يونان من جنوب الصين وولاية سشوان أيضا .





الإسلام في الصين



تذكر التواريخ الصينية أن أول دخول الإسلام فى الصين ، كان فى أيام أسرة تانج ، التى عاصرت البعثة المحمدية ، وعصر الراشدين وعصر بنى أمية . وكان القادمون إلى الصين من المسلمين تجارا دخلوا بلاد الصين من الجنوب ، أيام بنى أمية ، فاستقروا فى كانتون حيث أنشئوا لأنفسهم جالية زاهرة ، واتخذوا المساجد ، وأطلق عليهم أهل الصين لقب هوِى هوِى .

وفى أيام الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ / ٧٠٥ – ٧١٥ م) ، عبر قتيبة بن مسلم نهر سيحون ، وتخطى الحدود الغربية لدولة الصين ودخل كشغر وضم جزءا من ولاية سنكاينج إلى دولة الإسلام . وفى سنة (٧٢٦ م) أوفد الخليفة هشام بن عبد الملك سفيرا يسمى سليمان إلى الإمبراطور هزوان تونج ، وانعقدت أواصر الصداقة بينه وبين المسلمين ، وعندما قامت ثورة على هذا الإمبراطور قادها ابنه سور تسونج سنة (٧٥٦) وطرد أباه من العرش ، استنجد الامبراطور المعزول بالخليفة المنصور العباسى فأنجده بقوة من الرجال أعادته إلى عرشه . ولم تعد هذه القوة إلى بلادها ، بل استقرت فى الصين ، وتزوج أفرادها من الصينيات ، وانضموا إلى إخوانهم أعضاء جالية كانتون ، فكثر عددها وحاول حاكم البلد إخراجها من البلد بالقوة ولكنه عجز . وانتهى الأمر بأن سمح لهم الإمبراطور بالإقامة فى كانتون ، فاستقروا وأمنوا ولم يلبثوا أن امتزجوا بالسكان ، ويتحدث مؤرخ صينى كتب فيما بين سنتى (٧١٣ و ٧٤٢) عن كثرة عدد جالية كانتون ، ولكننا لانعلم إن كان أفرادها قد بذلوا جهدا لنشر الدعوة بين أهل البلد أم لا .

وعندما اجتاحت عالم الإسلام موجة الغزو المغولى ، هاجرت إلى الصين أعداد كبيرة من المسلمين من أهل فارس والعراق ، وبلاد ماوراء النهر ، واستقرت هناك واندرجت فى أهل البلاد ونشرت الإسلام ، وظهر من بينها رجال كسبوا ثقة المغول ، فولوهم عددا من كبريات وظائف الدولة ، من أمثال رجل يسمى عبد الرحمن تولى رئاسة بيت مال الدولة سنة ١٢٤٤ . وعندما اعتلى قبلاى خان العرش سنة (١٢٥٩) عهد إلى مسلم من أهل بخارى يسمى محمد شمس الدين ، المشهور بالسيد الأجل ، فى إدارة أموال الإمبراطورية ثم أقامه حاكما لمقاطعة يونان ، وكان رجلا حكيما يعرف كيف يستميل قلوب الناس ، فبنى مساجد كثيرة ، وكذلك بنى معابد كونفوشيوسية عديدة . وقد واصل أبناء السيد الأجل تقليد أبيهم فى توطيد دعائم الدين الإسلامى فى الصين ، فحصل حفيد له سنة (١٣٣٥) من الإمبراطور على اعتراف بأن الإسلام هو الدين الحق الخالص ، وقد ظل الإسلام يحتفظ بهذا الوصف فى الصين حتى قيام الثورة الشيوعية هناك . وأذن الإمبراطور فى سنة (١٤٢٠) لشخص آخر من أحفاد السيد الأجل فى بناء مسجدين كبيرين فى عاصمتى الدولة ، وهما « سنجان – فو » و « نانكين » ، مما أثار حفيظة الكثيرين من الصينيين المتعصبين ، ولكن الإسلام استمر يتوسع فى الصين ، حتى قرر ماركو بولو الذى عاش فى الصين فيما بين سنتى (١٢٧٥ و١٢٩٢) أن أعدادا كبيرة من المسلمين تعيش فى إقليم يونان ، وقرر رحالة آخر زار الصين فى الوقت نفسه أن جميع سكان تاليفو حاضرة يونان من المسلمين ، وكذلك وصف ابن بطوطة الذى زار الصين فى منتصف القرن الرابع عشر ، ترحيب إخوانه المسلمين فى مدن الصين به ، وقرر أن كل مدينة من مدن الصين فيها حى للمسلمين ، ينفردون بسكناه ولهم فيه المساجد العامرة ، وقال : إنهم معظمون محترمون فى كل بلد من بلاد الصين .

يذكر مرجع صينى قديم يسمى : « التاريخ القديم لأسرة تانج » ، أنه فى السنة الأولى لحكم الإمبراطور يوانج – واى (٣١ هـ / ٦٥١ م) ، وفد على بلاط هذا الإمبراطور وفد من المسلمين حاملين هدايا للإمبراطور ، وقالوا : إن دولة الإسلام قامت منذ إحدى وثلاثين سنة ، أى أن ذلك الوفد زار الصين فى خلافة عثمان . ويقول الصينيون من المسلمين : إن هذه كانت أول مرة يدخل فيها

الإسلام إلى الصين ، ويزعمون أن رئيس ذلك الوفد كان سعد بن أبى وقاص ، وأنهم وفدوا إلى الصين عن طريق البحر ، فأرست بهم السفن على شاطىء الصين الجنوبى ، ومن ثم اتجهوا إلى بلاد إمبراطور أسرة تانج فى عاصمة تشانج – آن .

ويقول المرجع نفسه : إن إمبراطور الصين استفهم عن أمر الإسلام وسأل عنه ، فسمع خيرا ؛ فوافق على دخول الإسلام فى الصين ، وأذن فى الدعوة له ، واعتبره على المستوى نفسه ، مع الكونفوشيوسية ، وأذن للمسلمين فى بناء مسجد فى العاصمة تشانج – آن ومازال هذا المسجد قائما فى ذلك البلد الذى يسمى الآن شيان .

وعندما كبرت سن سعد بن أبى وقاص – هكذا تقول الرواية الصينية – أذن الإمبراطور له فى العودة إلى بلاده ، فشرع فى الرحلة ولكنه مات فى الطريق ، ودفن فى بلدة كوانج تشو ، وأقيم مسجد إلى جوار قبره ، ومازال هذا المسجد قائما هناك إلى اليوم ، وهو ثانى المساجد الأثرية فى الصين .

وكان للعرب والفرس الذين استقروا فى الصين ، مكان مرموق فى تجارة الصين فى عصر أسرة تانج هذه . وعندما انتقل الأمر إلى أسرة سونج (٣٤٩ – ٦٧٨ هـ ٩٦٠ – ١٢٧٩) ، كانت كوانج تشاو أكبر مراكزهم . كان لهم فيها حى كبير فيه سوق ضخم ، وأنشأت حكومة الصين إدارة خاصة للتجارة البحرية ، ومراقبة الموالى ، وتحصيل الضرائب ، وكان يشغل هذا المنصب دائما رجل من المسلمين .

وبينما كان الإسلام يثبت أقدامه على سواحل الصين الجنوبية ، بعد أن أدخله فيها التجار ، دخل الإسلام الصين من ناحية الشمال الغربى عن طريق البر . وقد دخلت فى الإسلام قبائل هسيونج فو ، الضاربة فى مداخل الصين الغربية من ناحية حوض التاريم . وفى سنة (١٣٨ / ٧٥٥) قامت ثورة على الإمبراطور هوان تسونج – هزتانج فاضطر إلى اللجوء إلى سشوان والتحصن فيها ، فأرسل يستنجد بمسلمى شمال غربى الصين ، فسارعوا بإرسال قوة من ثمانية آلاف رجل أنجدته ، وتعبيرا عن شكره للمسلمين خيرهم بين البقاء فى بلاده أو العودة فاختاروا كلهم البقاء ، فقدم إليهم الأموال وزوجهم بصينيات وأعطاهم أرضا وبنى لهم بيوتا . ومن أولاد هؤلاء نشأت الجاليات الإسلامية الضخمة فى شمال شرقى الصين .

وعندما تحسنت علاقات قبائل هسيونج نو بإمبراطور الصين ، ازداد تدفق المسلمين من الفرس والأفغان على الصين ، وانتقل الكثيرون منهم إلى العاصمة تشانجان ، وزاد انتشار الإسلام بين الصينيين أنفسهم .

ازدهار الإسلام فى الصين ثم اضمحلاله :

تمتع الإسلام فى الصين بقبول حسن ، ولقى المسلمون معاملة طيبة طوال عصر أسرة تانج ، التى انتهت سنة (٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م) ، فلما خلفتها أسرة سونج ، ازدادت التجارة ازدهارا ، وتزايد توافد المسلمين على الصين ، وأصبحت كل تجارة الصين مع بقية بلاد الشرق وأوربا فى أيدى المسلمين ، فعرفت أوربا حرير الصين وخزفها وتحفها وصناعاتها الدقيقة عن طريقهم ، وحملوا إليها متاجر أوربا وغربى آسيا . وكبرت جاليات المسلمين فى بلاد الصين ، وانتشر الإسلام فى الصين أكثر وأكثر . ونظرا لما امتاز به المسلمون من خلق طيب ، وأمانة والتزام بالقوانين ؛ فقد احترمهم شعب هان ، وهو اسم الشعب الصينى فى لغتهم ، وزاد انتشار الإسلام تبعا لذلك .

وأعقبت دولة سونج دولة يوان وهى دولة غريبة عن الصين ، أنشأها خلفاء جنكيز خان ، وذلك أنه بعد وفاة جنكيز خان قسمت امبراطوريته بين أولاده ، وكانت الصين ومنغوليا من نصيب قبلاى خان ، فأنشأ أسرة يوان ، وكان الإسلام قد امتد فى أثناء حكم المغول إلى وسط آسيا . ولما كانت الصين ومنغوليا قد دخلتا بمساحتيهما الشاسعة فى دولة واحدة ، فقد اتسع المجال لانتقال السكان من مكان إلى آخر فيها ، فانتقل الكثيرون من الصينيين إلى آسيا الوسطى ، وانتقل الكثيرون من العرب والترك إلى الصين ، وكثر توافد المسلمين من كل صنف إلى الصين ، فكان بينهم تجار ومتطببون وطلاب علم ، وفلكيون ومنجمون ومحاربون ، وقد دخل الكثيرون من هؤلاء الاخيرين فى الجيش الصينى . وبلغ المسلمون درجة كبيرة من القوة فى عهد هذه الأسرة ، وشغلوا الكثير من المناصب الكبرى ، مما أتاح للإسلام الفرصة للامتداد والانتشار ، ويقول المؤرخ الصينى تنج : — هسيو : أنه كان هناك ثلاثون مسلما يحتلون مناصب رئيسية فى بلاط بكين ، وكان منهم حكام لكثير من الولايات .

وكان أكبر الموظفين المسلمين في بلاد الصين رجلا ذا كفاية عظيمة وقدرات متعددة ، هو السيد الأجل ، وقد تدرج فى المناصب حتى أصبح القائد الأعلى للقوات العسكرية المنغولية فى سشوان ، ثم أصبح حاكما لتلك الولاية فى سنة (٦٧١ / ١٢٧٢) ، وبعد سنتين تولى حكومة ولاية يونان ، وبفضل كفايته انتشرت الثقافة الإسلامية فى بلاد الشمال الغربى ، وكان السيد الأجل يحكم بعدل وإنصاف تامين ، لايفرق بين مسلم وغير مسلم ، حتى أنه أذن بإنشاء معابد للكونفوشيين .

ويقول المؤرخ رشيد الدين فضل الله فى كتابه « جامع التواريخ » : إنه فى عصر الأسرة المغولية كانت الصين مقسمة إلى اثنتى عشرة ولاية ، لكل منها حاكم ونائب حاكم ، وإن ثمانية من بين الحكام كانوا مسلمين .

وهذا يدل على القوة التى وصل إليها المسلمون فى عصر أسرة يوان .

دامت أسرة يوان حوالى تسعين سنة (٦٧٩ - ٧٧٠ / ١٢٨٠ - ١٣٦٨) ثم خلفتها أسرة منج التى حكمت ثلاثة قرون تقريبا (٧٧٠ - ١٠٥٤ / ١٣٦٨ - ١٦٤٤) . وفى عهد هذه الأسرة ازداد انتشار الإسلام حتى أصبح من أديان الصين الكبرى .

وعندما بدأت أسرة منج حكمها كان عمر الإسلام فى الصين ستة قرون ، وازداد عدد المسلمين زيادة كبيرة ، ولكن المسلمين ظلوا رغم ذلك يعيشون وفق نظامهم الخاص ، دون اتصال كبير ببقية السكان من غير المسلمين ، وكانت لغتهم صينية عربية وعاداتهم إسلامية ، ولم يقع اختلاف كبير بينهم وبين غيرهم من غير المسلمين ، ثم أخذوا يندمجون فى السكان ويتخذون اللغة والعادات الصينية ، ولم يعد من الممكن التفريق بينهم وبين بقية الصينيين . حتى أسماؤهم الإسلامية أعطوها طابعا صينيا : فمن ذلك أن كل مسلم يبدأ اسمه بحرف م مفتوحة سمى نفسه ما وهو لفظ صينى شائع معناه الحصان فتسمى باسم « ما » من كان اسمه محمود أو مسعود ، أما من كان اسمه يبدأ بميم مضمومة ، مثل محمد ومراد ومصطفى فقد اتخذ اسم « مو » ، ومن المسلمين من اتخذ اسما مقاربا فى النطق لاسمه ، فداود سمى نفسه « تا » وحسين تسمى باسم « هو » ، ومن كان اسمه مركبا

مع لفظ الدين مثل خير الدين وشمس الدين تسمى « تنج » ومن كان اسمه سعيدا تسمى باسم « ساى » ومن كان اسمه نصر أو نجيب تسمى « نا » ، وسليم وصالح ، تسمى باسم « سا » وعيسى وأمين تسميا باسم « آى » وهكذا .

واستمرت المكانة نفسها لمسلمى الصين فى عهد أسرة منج ، ولكننا نلاحظ فى عصر هذه الأسرة تطورا جديدا ، وهو أن أباطرة هذه الأسرة خافوا من أن تنزل ببلادهم غزوة جديدة مخربة مثل غزوة مغول جنكيز خان ، فأغلقوا أبواب بلادهم ، وساروا على سياسة الانعزال ، فانقطعت الصلة بين مسلمى الصين وإخوانهم خارج الصين ، فأخذوا يندرجون فى أهل البلاد ، وأقبلوا على الزواج من الصينيات ، فنشأ أولادهم صينيين مسلمين ، وكان هذا مما ثبت أقدام الإسلام فى الصين ، وقد لقى أولئك المسلمون الصينيون كرامة كبيرة من مؤسس دولة منج ، وهو الإمبراطور هونج ، فمنحهم امتيازات كثيرة وشجعهم على إنشاء المساجد ، فزاد عددها زيادة كبيرة فى كل نواحى الصين ، خلال عصر هذه الأسرة (١٣٦٨ – ١٦٤٤ م) .

وقد تشجع أمراء المسلمين المجاورين للصين بهذه المعاملة ، وطمعوا فى كسب الإمبراطور إلى دينهم ، فكتب إليه واحد منهم هو الشاه رخ بهادر سلطان التركستان خطابين طويلين يدعوه فيهما إلى اغتنام السعادة بالدخول فى دين الله (انظر نصهما فى كتاب الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد ، ترجمة حسن إبراهيم وآخرين الطبعة ٣ سنة ١٩٧٠ ص ٣٣٧) ، وكان لهاتين الرسالتين صدى بعيد ، فقيل فى بعض الحكايات الشعبية : إن أحد أباطرة الصين اعتنق الإسلام . وقد حكى تاجر مسلم يسمى سيد على أكبر زار الصين فى نهاية القرن الخامس عشر أن عدد المسلمين الذين استقروا فى الصين كان عظيما ، وأنه كان فى مدينة كنج فو حوالى (٣٠٠٠٠) أسرة من المسلمين (أى ١٥٠٠٠٠ نسمة على وجه التقريب) وأنهم كانوا يعيشون عيشا سعيدا فى عطف من الدولة ورضا من الحكام .

وقد تغيرت سياسة الأباطرة بعض الشيء تجاه المسلمين ، حينما حلت أسرة مانشو محل أسرة منج فى حكم الصين سنة (١٦٤٤ م) ، إذ انتهز رجال الدين البوذيون والكونفوشيون فرصة تغير الدولة ، وحرضوا رجال الدولة الجديدة على

المسلمين حسدا منهم ؛ لما كانوا يلقونه من نجاح فى نشر دعوتهم ، فانقلبت عليهم السلطات ، فكانت النتيجة أن قاموا بثورة فى ولاية خانسو ، ولكن الثورة لم تلبث أن خمدت ، واستعاد المسلمون علاقاتهم الطيبة بالدولة ، لأن الإمبراطور يونج تشى تبين براءتهم مما اتهموا به ، واتضح له أن المسلمين من خيرة رعاياه . وأخلصهم وأكثرهم نشاطا ، ثم زادهم خليفته كينى لانج تكرمة ، نظرا لمعاونة اثنين منهم له فى إخماد ثورة قامت عليه – وكانا أصلا من كبار الأتراك العارفين بشئون الحرب .

وبعد القضاء على هذه الثورة نقل هذا الإمبراطور إلى زنجاريا – وكانت مركز الثورة – عشرة آلاف من المحاربين العاملين فى جيشه ، وكانوا جميعا من المسلمين ، فأخذ جيرانهم من الصينيين يقبلون على الإسلام احتذاء بهم . وكثر توافد الدعاة إلى الصين الغربية والجنوبية ، بل هناك خبر يتعلق بداعية صينى قبض عليه فى كوانج – سى بتهمة الدعوة للإسلام ، وذلك بتحريض من الكهنة .

ويقرر المبشرون الكاثوليك فى القرن التاسع عشر ، أن عدد المسلمين فى الصين زاد زيادة عظيمة ، ويردون هذه الزيادة إلى أن المسلمين الصينيين يحاولون العيش فى سلام مع غيرهم ، ولهذا يتحاشون القيام بنشاط واسع فى الدعوة مخافة إثارة شكوك كهنة البوذيين ، وإنما كانت أعدادهم تزيد نتيجة لزواجهم من الصينيات وإنجابهم الأولاد الكثيرين ، وكان المسلمون يعمدون أيضا إلى شراء الأطفال من آبائهم فى أوقات المجاعات وتنشئتهم تنشئة إسلامية ، ولم يكن فى تقاليد الصين مايحرم ذلك . بل كان يعد من أعمال الخير ؛ لأنه يعين الآباء الفقراء على تحمل مصاعب المجاعات ، وفى إحدى المجاعات التى نزلت بولاية شانتونج ، اشترى المسلمون نحو (١٠٠٠٠) طفل تربوا فى كنف الإسلام ونشئوا مسلمين . وحدث هذا مرة أخرى سنة (١٧٩٠ م) ، عندما نزلت المجاعة بمقاطعة كوانج تونج إذ اشترى المسلمون مثل هذا العدد من الأطفال ، وكذلك كانوا يفعلون حيثما استطاعوا ، بل عندما قامت حرب الأفيون المعروفة بحرب البوكسوز اشترى المسلمون الآلاف من أولاد قتلى هذه الحرب ، مابين مسيحيين وصينيين . وقد تضخم عدد المسلمين فى الصين بهذه الطريقة ، حتى بلغ عددهم فى الصين قبل الحرب العالمية الأولى نحو (٥٠) مليونا وبهذا أصبح الإسلام من أديان الصين الكبرى .

وكان المسلمون فى الصين يدركون كراهة أهل الصين لمن ليس من جنسهم ، أو من لايجرى على مألوف عاداتهم ، ولهذا حرصوا على أن يعيشوا فى أحياء خاصة بهم ، حتى لا يطلع الآخرون على صلواتهم ومايقومون به من شعائر عقيدتهم ، بل كانوا لايبالغون فى تعلية مآذن مساجدهم حتى لا يثيروا حفيظة الكهنة وسدنة المعابد ، وحرصوا على أن تكون هذه المساجد من الطراز الصينى . ولم يمانعوا فى أن يضعوا فى كل مسجد من مساجده لوحة كان القانون يفرضها ، فيها دعاء للإمبراطور بطول العمر .

وفى المناطق التى كثر فيها المسلمون الصينيون مثل منغوليا – وهى بلاد التتار الصينيين – كان المسلمون يتبعون التقاليد الصينية بكل أمانة ، حتى أن الموظفين منهم كانوا لايرفضون الانحناء ثلاث مرات للإمبراطور ، ولكنهم إلى جانب ذلك كانوا دائما حريصين على السير طبقا لتعاليم الإسلام ، وتطبيق عباداته وشريعته فيما بينهم .

وقد تمتع المسلمون فى الصين بكل حقوق المواطنين ، وشغلوا أعلى مراتب الدولة فكان منهم كبار الموظفين والقواد .

واستمر مركز المسلمين فى صعود وديانتهم فى انتشار حتى العصور الحديثة . بل إن جمهورية صن يات صن التى قضت على أسرة مانشو استمرت فى إضفاء العطف والرعاية على المسلمين . كان مركزهم هناك كمركز مسلمى الجمهورية الهندية ، وقد اشترك المسلمون كمواطنين صينيين فى حروب التحرير ضد اليابان ، وفى حروب الجمهورية ضد الحركة الشيوعية . ولم تنس لهم حكومة الثورة الشيوعية ذلك ، فاضطهدتهم كما اضطهدت غيرهم من أهل الأديان المنكرة للشيوعية ، فهاجر الكثيرون منهم إلى تايوان (فورموزا) وأصبحت هذه الجزيرة مركزا للجمعية الإسلامية الصينية ، ويؤكد العلامة الصينى المسلم تا (داود) تنج أن عدد المسلمين فى الصين فى سنة (١٩٥٠) خمسون مليونا،أى واحد إلى اثنى عشر من سكان الصين إذ ذاك ، فعددهم اليوم على حساب الزيادة العامة لسكان الصين قرابة (٦٥) مليونا ، أى أن الصين تجىء الخامسة فى أعداد المسلمين فيها بعد إندونيسيا وبنجلادش والهند وباكستان ، ولكن حكومة الصين لاتعلن هذه الحقيقة .

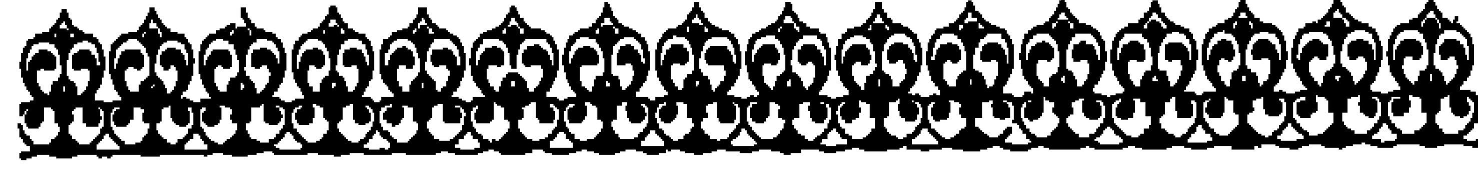
وليس فى ذلك التقرير مبالغة ، ففى طبعة سنة (١٩٤٨) من الكتاب السنوى الصينى الذى كان يصدر فى شنغهاى ، نجد عدد مسلمى الصين بلغ (٤٨,١٠٤,٠٠٠) نسمة ، وفى الكتاب نفسه نقرأ بوضوح أن نسبة المسلمين فى الصين هى العشر ، وإنه لمما يثير الدهشة رغم ذلك أن حكومة الصين أعلنت فى سنة (١٩٥٠) أن عدد المسلمين فيها عشرة ملايين فقط ، ثم تقرر فى الوقت نفسه أنهم يؤلفون أكبر الأقليات الدينية فى الصين ، وعددها أربع هى على الترتيب : المسلمون (ويسمونهم هوى) والمغول (ويسمونهم منج) والتبتيون (ويسمونهم تسانج) والمنشوريون (ويسمونهم مان) .

وجاليات المسلمين وهم جميعا اليوم صينيون تتجمع فى مقاطعات الشمال الشرقى والشمال الغربى ، أى فى مقاطعات هونان وهوباى وشانتونج ، أما فى الجنوب الغربى فنجد أكبر جماعاتهم فى يونان وسشوان ، وفى الجنوب الشرقى نجدهم فى وادى اليانجستى فى مقاطعة أنوى ، وهى التى تضم العدد الأكبر من مسلمى الصين ، أما أقل النواحى الصينية إسلاما فهى المقاطعات الساحلية : كيانجنسو وتشكيانج وفوكبان وكوانجتونج مع أنها كانت فيما سبق أكثر نواحى الصين إسلاما ، ومن دلائل ذلك أن أسرة منج عندما جعلت عاصمتها فى فانكنج كان فيها ستة وثلاثون مسجدا .

ونتيجة للظروف التى كانوا يعيشون فيها قبل الانفتاح الصينى على العالم ، فى أواخر أيام ماوتسى تونج ، نجد أن المسلمين كغيرهم قد انقطعت صلتهم بإخوانهم فى العالم الخارجى خلال تلك الحقبة . ولم يعودوا يستقبلون الدعاة والفقهاء كما كانوا يفعلون قبلا ، ولم يعودوا يستطيعون السفر إلى الخارج بحرية ، وكل هذه أحوال أدت إلى اضمحلال جماعاتهم ، فبينما كانوا فى الماضى – فى عهد أسرة يوان – فى عداد الجماعات الغنية فى البلاد ، فكان منهم تجار وماليون وموظفون كبار وشخصيات كبيرة تضاءل ذلك كله الآن . وفى عصر أسرة منج ، كان فيهم عدد كبير من أهل الفكر فى الصين ، وكان تجار المسلمين يسيطرون على التجارة البرية مع بقية آسيا من مراكزهم فى شرق الصين ، وكانت قوافلهم رائحة غادية ، وفى كل حوضى اليانجتسى وهواى هو ، والنواحى التى اشتهرت بزراعة الأرز كان المسلمون يحتكرون تجارة الحبوب ، ولايشغل المسلمون فى الصين الشعبية

وظائف تذكر بينما يحتلون مركزاً أعلى فى تايوان ، ومساجدهم هناك عامرة زاهرة ، وليس معنى ذلك أن الإسلام ضعف هناك ، بل معناه أن السياسة الاشتراكية التى تسير عليها الصين لاتشجع الأديان جميعا ، بل تتجاهلها ، ومع ذلك فمازال المسلمون نشيطين تحتل جالياتهم مكان الصدارة فى النواحى التى يتكاثرون فيها وقد ذكرناها ، وفى بقية نواحى الصين نجدهم مشهورين بأعمال الصياغة ، وجميع التحف والمصنوعات الجلدية ، وتصنيع الشاى والتجارة فيه ، وتربية الماشية والقصابة وتجارة اللآلىء ، واليشب المعروف بالجيد ، وهم مشهورون بإجادة الرسم والتصوير وكتابة الخطوط . وهذا ليس بغريب ، ففى عصر أسرة تشنج كانت تجارة التحف والطرف والجواهر فى بكين وغيرها من كبريات بلاد الصين فى أيدى المسلمين ، ولايزالون إلى اليوم أكبر الاختصاصيين فى الجواهر فى بلاد الصين .





الإسلام فى روسيا



خلال القرن الرابع عشر الميلادى ، وبعد أن أنزل جنكيز خان ورجال دولته وآله ماأنزلوا ببلاد الإسلام من تخريب ، وبعد ماكان منه من القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد سنة (٦٥٦ / ١٢١٨) ، وماتلا ذلك من امتداد سلطان المغول على الجناح الشرقى لمملكة الإسلام ، نجد ذلك الدين القيم يعود فيغزو بفضائله المغول أنفسهم ، فيدخل فيه خانات إيلخانية إيران ومنهم زرقة بانو عم هولاكو على ذلك القسم من إمبراطوريته الواسعة ، وأول من هداه الله منهم بركة خان ، الذى اعتنق الإسلام وتسمى باسم الملك السعيد بركة خان ، وأخذ كل المغول التابعين له باعتناق هذا الدين ، واجتهد فى تعويض الإسلام عما لحق به من الأذى على أيدى أجداده ، فاهتم بإنشاء المساجد واستقدام الفقهاء والإحسان إليهم ، وتيسير مهمتهم فى نشر الدين ، وفى عهد هذا السلطان بركة خان المغولى نجد العلاقات تتوطد بينه وبين سلطان مصر المملوكى ركن الدين بيبرس البندقدارى .

وكانت طائفة كبيرة من المغول تسمى القبيلة الذهبية ، تسكن الأراضى الواسعة الممتدة من شمال بحر ارال إلى شمال بحر قزوين ومصب الفولجا . وكان أولئك المغول تابعين اسميا لخان مغول إيران ، وهو بركة خان ، فلما أسلم أخذ الإسلام ينتشر بينهم .

وقد أنكر فريق من المغول على بركة خان إسلامه ، وكانوا على ديانة الشامانية ، ففكروا فى الخروج على طاعته والانضمام إلى هولاكو الذى ورث أملاك المغول فى الجزء الغربى من الدولة ابتداء من إقليم الجبال أو عراق العجم ، فانقسمت

صفوف المغول مرة ثانية ، وانفصلت عنهم قبيلة نوجاى ، وهى تضم أتباع القائد نوجاى ، وكان شامانيا ، وكان يسيطر على منطقة واسعة بين بحر أرال وبحر قزوين .

وفى سنة (١٣١٣ م) ، تولى زعامة القبيلة الذهبية أوزبك خان ، الذى ظل يحكمها حتى سنة (١٣٤٠) ، وكان مسلما متحمسا للإسلام حريصا على إدخال كل القبيلة الذهبية فيه . وكانت مملكة أوزبك خان تمتد من شمالى بحر آرال إلى مصب الفولجا ، فوضع خطة لنشر الإسلام فى كل بلاد الروس ، وكانت المسيحية قد انتشرت بينهم على يد دعاة مسيحيين من بيزنطة (القسطنطينية) . وكان الإسلام يسود مصب نهر الفولجا حتى نوفوجورود ، ويسترسل حتى بلاد القرم . ولكن أوزبك خان كان متسامحا ، فلم يأذن لنفسه فى اضطهاد المسيحيين فى بلاده ، بل ترك دعاة المسيحية يبشرون كيف شاءوا ، وله خطاب شهير كتبه سنة (١٣١٣) إلى المطران بطرس رئيس المسيحيين فى بلاده ، يؤكد له فيها تسامحه وتقديره للمسيحية ، ورد عليه البابا يوحنا الثانى عشر سنة (١٣١٨) بخطاب شكر وتقدير . وبهذا لم يقدر لهذا الزعيم المغولى المسلم المتحمس أن يوقف تقدم المسيحية فى بلاد الروس ، وظل الإسلام فى روسيا مقتصرا على المناطق التى خضعت لمغول القبيلة الذهبية ، أتى من مصب الفولجا إلى نوفوجورود مع امتداد إلى الغرب حتى بلاد القرم . أما بقية الروس مابين مسيحيين ، وغير مسيحيين ، فقد ظلوا يؤدون الجزية لأوزبك خان دون أن يرغموا على اعتناق الإسلام .

وكان يجاور مغول القبيلة الذهبية فى جنوب الروسيا شعب إسلامى آخر من أصل تركى هو شعب البلغار ، وكان يسكن شمالى البحر الأسود وشرقه ، ويرجع إسلام البلقاء إلى أيام الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ / ٩٠٨ - ٩٣٢) إذ إنه أرسل إليهم رسولا وعددا من الدعاة والفقهاء .

وقد اجتهد البلغار فى تحويل الروس إلى الإسلام ، وكانت مملكة هؤلاء الآخرين تقوم فى كييف ، وكانوا على الوثنية ، وكان ملكهم يسمى فلاديمير ، وكان التنافس شديدا بين المسلمين والنصارى على اجتذابه ، وقد أبدى ميلا للإسلام ، ولكنه كره الختان ولم يقبل تحريم الخمر ، وكان الروس شديدى الولع

بها ، وكذلك أخفق اليهود فى كسبه فى حين أرسل المسيحيون داعية لَسِناً ذكيا شرح له المسيحية شرحا حسنا بليغا كان له أعمق الأثر فى نفسه ، خاصة وقد وعده ذلك الداعية بملك مملكة السماء إذا هو دخل المسيحية ، وأخيرا انتهى رأيه إلى أن يبعث بوفدين من الروس إلى بلاد النصرانية وبلاد الإسلام ، فأى الوفدين وجد البلاد التى زارها أسعد وأرخى حالا كان ذلك دليلا على امتياز دين أهلها فى رأيه ، فأما الوفد الذى ذهب إلى بلاد الإسلام فذهب إلى بلاد البلغار ، فوجد فيها فقرا فاشيا ، ووجدها – فيما قال – كئيبة ، ووجد مساجدهم بسيطة لازينة فيها ، وصلاتهم جليلة وقورة لاموسيقا فيها ولا إنشاد . وأما الذين ذهبوا إلى بلاد المسيحية فقد توجهوا إلى بلاد الألمان الكاثوليك ، فوجدوا وجوها نضرة وأجساما ضخمة وكنائس جليلة ، يصلى الناس فيها على نغمات الموسيقى والإنشاد البهيج ، ثم ذهبوا إلى القسطنطينية حيث أحسن الإمبراطور وفادتهم ، وجعلهم يشهدون الصلاة فى كنيسة أياصوفيا بضخامتها وجلالها ، وملابس قساوستها الزاهية الألوان وتراتيلهم الرخيمة ، فوقع فى نفسهم أن عقيدة أهل القسطنطينية لابد أن تكون فى رأيهم أقرب العقائد إلى الله سبحانه ، إذ إنه أضفى عليها هذا الجلال كله ، وبعد تداول طويل بين الملك ونصحائه استقر رأيه على اتباع المسيحية على مذهب الكنيسة الإغريقية ، وهى مانسميه نحن بعقيدة الروم الأرثوذكس سنة (٩٨٨) ، وهكذا كسبت المسيحية شعب الروس كله ، وانتشرت فى كل ماسكنوه وخضع لهم من بلاد ، وهذا حدث يعتبر من أخطر حوادث التاريخ الإسلامى ، ولانزال نحس أثره إلى اليوم ، خاصة وقد تعصب قياصرة الروس للمسيحية تعصبا شديدا ، وأوقفوا تقدم الإسلام فى بلادهم ، بل أخذوا فى توسعهم فى آسيا يضطهدون الإسلام فيما ضمه من بلاد . ولم يتنفس مسلمو روسيا الصعداء إلا فى سنة ١٩٠٧ عندما أعلن قيصر روسيا التسامح الدينى فى بلاده .

وعندما قامت الثورة الشيوعية فى روسيا سنة (١٩١٧) ، كان هناك فى روسيا أعداد كبيرة نسبيا من المسلمين ، معظمهم من التتار الذين كان القياصرة يستجلبونهم من آسيا للاستعانة بهم فى الشئون العسكرية ، وكان هؤلاء يسكنون مساحات واسعة تمتد من بلاد القرم إلى السفوح الشرقية لجبال الكربات ، وكان الإسلام فى القرم قديما كما ذكرنا ، وكانت هناك أعداد كبيرة من أولئك التتار

فى ليتوانيا ، وكانت سهول القرغيز التى تقع شمال شرقى بحر الخزر (قزوين) ، وتصل إلى شرقى الفولجا عامرة بالمسلمين ، فأين ذهب هؤلاء جميعا ؟

نلاحظ أولا أن السلطات الروسية كانت تكره أن ينشىء التتار مساجد لهم ، فكانوا يقيمون شعائر دينهم فى زوايا صغيرة نائية يتخذونها من الخشب فى قراهم ، وفى أحياء المدن التى يسكنونها . ولم يكن بينهم علماء أو رجال دين يفقهونهم فى أمور دينهم ، فكان إسلامهم تشوبه أشياء كثيرة خارجة عن الإسلام ، ثم إنه لم يكن يسمح لهم بالزواج بالروسيات إلا إذا دخلوا المسيحية على مذهب الروم الأرثوذكس ، ثم بدأت الحكومة الروسية فى أيام كاترين الثانية تعمل على تنصيرهم ، وتضطهدهم وتنزل بهم العقاب الصارم والاضطهاد العنيف .

وقد تحمل تتار الروسيا هذا العسف كله ، لكى يحتفظوا بدينهم ، وعاشوا فى فقر وعسر فى مناطقهم محتفظين بدينهم ، حتى جاءت الثورة الشيوعية فى أكتوبر (١٩١٧) ، فرفضوا التخلى عن ديانتهم ، وأخيرا فى أوائل أيام لينين ، صدر قرار بنقلهم جميعا إلى سيبريا وتفريقهم فى نواحيها .

وفى فيافى سيبريا وغاباتها اختفى تتار الروسيا المسلمون .

وأما تتار القرغيز ، فقد ظلوا متمسكين بدينهم الإسلامى رغم كل محاولات الروس فى تنصيرهم ، وفى أيام كاترين الثانية لجأت الحكومة الروسية الاستعمارية فى ذلك الحين إلى حيلة مضللة ، فقيدت أولئك الناس فى السجلات مسيحيين ، واعتبرت من يبقى على الإسلام منهم بعد ذلك مرتدين توقع عليهم عقوبة صارمة . وزعمت الوثائق الروسية أنهم كانوا فى الأصل وثنيين ثم تنصروا ثم ارتدوا عن المسيحية . ولما كان هؤلاء المساكين جهلاء وأميين وفقراء ، لم يعلموا شيئا عما صنعته الحكومة بهم ، وتعرضوا للاضطهاد والعقاب الشديد ، دون أن يفهموا كيف تزعم الحكومة أنهم كانوا وثنيين ، ثم دخلوا المسيحية ثم ارتدوا عنها إلى الإسلام .

ومن أغرب ماحدث وأكثره دلالة على قوة الإسلام الذاتية الدافعة ، أن القرغيز كانوا رغم ذلك يزدادون إقبالا على الإسلام ، بل أنشئوا فى قازان – عاصمة قطرهم – مركزا للدعوة الإسلامية ، وكانوا يطبعون منشورات الدعوة إلى الإسلام

والتعرف به بلغتهم ، وكان العارف بالإسلام عندهم يسمى الملا وهو لفظ فارسى معناه الشيخ أو الفقيه ، وهم يجمعونه على « مليات » فكان المليات منهم من أساتذة جامعة قازان وطلابها ينتشرون فى القرى والفيافى ، يدعون بني جلدتهم إلى الإسلام ، ويعرفونهم به ، وقد نجحوا فى ذلك نجاحا كبيرا ، وأدخلوا فى الإسلام ألوفا من القرغيز وخاصة ابتداء من سنة (١٩٠٥) ، وهى السنة التى أعلنت الحكومة القيصرية فيها حرية الأديان فى الإمبراطورية الروسية ، وبلغ عدد من دخل الإسلام على أيدى أولئك المليات فيما بين سنة (١٩٠٦ و ١٩١٠) ثلاثة وخمسين ألفا ، وكان مجتمع القرغيز المسلمين فى ذلك الحين أرقى وأعلى مستوى وأشد تماسكا من المجتمعات الآسيوية ، التى كانت تعيش فى أقاليم السهوب فى وسط آسيا . وكانوا ينفرون من المسيحية ، ويرفضون الدخول فيها ، لأن القساوسة كانوا يلجئون إلى العنف ويستعينون على هؤلاء الناس بجاه الدولة ، فارتبطت المسيحية فى نظرهم بسياسة الدولة الروسية الغاشمة فى ذلك الحين ، وأصبح الإسلام عندهم دينا قوميا مناسبا كل المناسبة لظروف حياتهم .

وكان ميل هؤلاء القرغيز ومن جاورهم إلى الإسلام قديما ، ففى القرن الثانى عشر دخلت فى الإسلام قبائل الفوتياك التى كانت تسكن شمال بلاد القرغيز ، وتمتد شمالا بغرب وتصل إلى البحر الأبيض الشمالى ، وفعلت مثل ذلك قبائل الشريميس التى كانت أراضيها تجاور الفوتياك ، فأقبل رجالها على الإسلام إقبالا شديدا ، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بل وصل الإسلام عن طريق هذه القبائل إلى فنلندا ، فدخل فيه نفر من الفنلديين ، ولكن الجماعة الإسلامية فى ذلك القطر الأوربى المتطرف إلى الشمال ، كانت منفصلة تماما عن الجماعات الإسلامية الكبيرة ، ولم يكن بينها رجال يعلمون الناس الدين الصحيح أو يؤلفون لهم رسائل فيه .

وكل هذا الانتشار للإسلام فى روسيا يرجع الفضل فيه إلى التتار ، الذين كانوا فى يوم من الأيام من ألد أعداء هذا الدين ، وليست هذه أول ظاهرة نرى فيها ظاهرة تحول أعداء الإسلام إليه وتحمسهم له وعملهم على نشره ، فالحقيقة أن الإسلام فاتح غلاب ، وقد دل على قوته وقدرته على التسرب إلى قلوب خصومه ،

وهدايتهم إلى طريق الحق منذ طوى أعداءه الألداء من القرشيين المكيين تحت جناحه ، وسيرهم فى خدمته ، وفتح لهم أبواب النصر والقوة والتوفيق .

وليس لدينا أى معلومات يعتمد عليها عن موقف الإسلام فى روسيا اليوم ، لأن الروس ، كأهل الصين وكافة الشيوعيين ، لا يذيعون بيانات صحيحة عن أنفسهم أبدا ، ولكن سلطان الفكر الشيوعى فى تلك البلاد غاشم ، وهو فكر إلحادى يضع مبادىء الماركسية واللينينية فوق الدين ، ويضطهد مخالفيه دون رحمة ، ومن هنا فأنت لا تستطيع التفاؤل كثيرا بوضع الإسلام وأحوال المسلمين ومستقبلهم فى أى بلد يسوده النظام الشيوعى ، بما فى ذلك المسلمون فى الجمهوريات الروسية الإسلامية فى آسيا وعددها ست هى : ١ - أذربيجان ٢ - تركمانستان ٣ - طاجيكستان ٤ - أوزبكستان ٥ - قرغيزستان ٦ - قازاكستان .

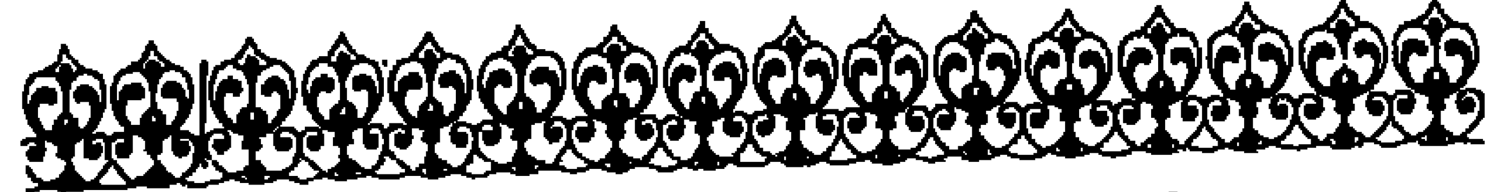
الإسلام بين تتار سيبريا ووسط آسيا :

كانت سيبريا - أو الجانب الأكبر منها على الأقل - داخلة فى بلاد الإمبراطورية المغولية التى أقامها جنكيز خان ، فلما مات صارت فى أملاك ابنه الأكبر جوجى خان ، ثم توارثها أبناؤه من بعده ، حتى صار عرشها فى القرن السادس عشر إلى كوتشم خان أحد أحفاده ، وقد بدأ حكمه سنة (١٥٧٠ م) ، وكان شديد الحماس للإسلام فقام بكل ما يستطيع لإدخال رعاياه فى دين الله ، واستقدم الدعاة والفقهاء من بخارى ، وجعل عاصمته قازان على نهر ايرتيش مركزا كبيرا للدعوة الإسلامية .

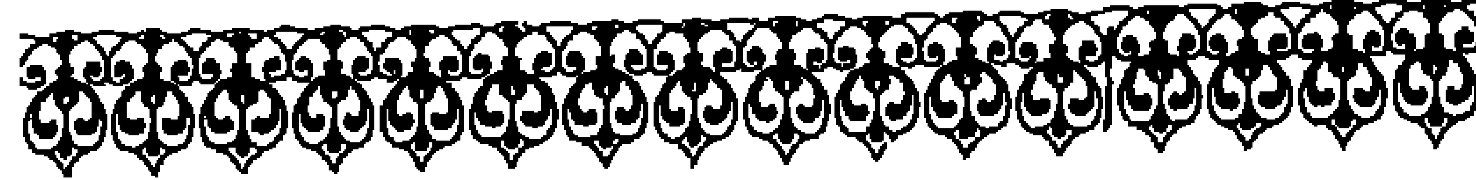
فى ذلك الحين - النصف الثانى من القرن السادس عشر - كانت الجيوش الروسية تتقدم فى سيبريا غازية ، فاجتاحت سهول القرغيز وكل نواحى سيبريا ، التى كان الإسلام قد انتشر فيها ، وبدأ الروس تطبيق سياسة التعصب للمسيحية الأرثوذكسية ، كما هو دأبهم ، ولكن الإسلام ظل يتقدم فى سيبريا ، وظلت كل قبائل نواحى القرغيز ومنغوليا متمسكة بالدين الحنيف ، بل أنشأ شعراؤها قصائد تضم قواعد الإسلام ، وتحكى بطولات عظماء الفاتحين المسلمين . حقا إن الدولة الروسية الشيوعية تحاول القضاء على الإسلام فى تلك النواحى عن طريق إرغام

الناس على الدخول فى المذهب الشيوعى ، وهو مذهب مادى يلغى الأديان ولا يعترف بها ، والنتيجة أن عدد المسلمين فى النواحى التى ذكرناها من سيبريا يتناقص وإسلامهم يزداد سطحية يوما بعد يوم نتيجة للدعاة الشيوعيين ، وتوجيه التعليم كله توجيها علمانيا إلحاديا ماركسيا . ونعتقد أن أقل مانستطيع عمله لمعاونة هؤلاء الأخوة ، أن نخصص إذاعات لهم بلغاتهم ، ويكون الإرسال من مراكز الإذاعات الإسلامية ، وليس من الضرورى أن تتناول هذه الإذاعات مسائل سياسية ، بل يكون تركيزها فى مخاطبة الناس على شئون الدين ، فيعرف الناس بدينهم وعقائده وعباداته مرة بعد مرة ، ويتلى عليهم آيات القرآن ، ثم تنقل معانيها إلى لغاتهم ، وكذلك تفعل مع الأحاديث النبوية ، ولابد كذلك من تعريفهم بتاريخ الإسلام وأمجاده وأبطاله ودوله وحضارته ، وتذكيرهم بماضيهم الإسلامى المجيد مع النص دائما على أنهم مسلمون وأن واجبهم هو المحافظة على دينهم ، هذا مع بيان مافى العقائد الماركسية من مغالطات ومخالفات لقواعد الإنسانية ومكارم الأخلاق . إنهم يخصصون محطة إذاعة ماركسية للدعوة فى بلادنا مركزها إريفان فى جمهورية أرمينية ، فلماذا لانقيم محطة مماثلة كل عملها المحافظة على أولئك الأخوة داخل نطاق الإسلام حتى يأذن الله بالفرج القريب ؟ .





انتشار الإسلام
فى أفريقية المدارية والاستوائية



نترك آسيا ونتجه الآن إلى أفريقية ، لنرى كيف أن الإسلام فتح مافتح من بلادها بفضائله الذاتية ، وبالحكمة والموعظة الحسنة التى عرض بها دعاة الإسلام هذه الفضائل واقتدى الناس بها ، والكلمة الطيبة التى فتحت مغاليق القلوب ، ونقلت إلى الإسلام أقواما كان الغرب يقول إلى حين قريب : إنهم ليسوا من البشر .

لم يفتح المسلمون من بلاد أفريقية بالجيوش إلا مصر والشمال الأفريقى ، أما بقية مادان للإسلام من بلاد هذه القارة التى يسمونها بالسوداء ، وماهى بسوداء أصلا ، فقد دخل الإسلام رغبا وعن محبة صادقة .

وكما سبق أن ذكرنا ، لم يحارب المسلمون أهل مصر ليفرضوا عليهم الإسلام ، بل هم حاربوا الروم الذين كانوا يحتلون أرض مصر ، ويفرضون عليهم سلطانا غاشما ، وقد كان من المفروض بعد أن استقر أمر المسيحية فى بلاد الدولة الرومانية أولا ، ثم فى بلاد دولة الروم ثانيا ، ودان بها أهل مصر كما دان بها أهل روما والقسطنطينية ، أن يستوى الحاكم والمحكوم تحت راية المسيحية ، وأن يزول كل معنى من معانى الاستعمار والسيادة والاستغلال ، فى أرجاء هاتين الدولتين المسيحيتين ، ولكن المسيحية لم تغير من قلوب أهل القسطنطينية شيئا ، وظلوا يعتبرون أهل مصر والشام وبعض نواحى العراق والمغرب أتباعا لهم وخدما ، بل تعدى الأمر إلى ماهو أسوأ من ذلك ، فقد ذهب أهل دولة الروم مذهبا خاصا

بهم فى المسيحية ، وهو المذهب الذى قرره الأساقفة فى مجمع خلقيدونية ، الذى عقد سنة (٣٥١ م) وقرر أن المسيح عيسى بن مريم له طبيعتان ، إنسانية من ناحية أمه السيدة العذراء مريم بنت عمران ، وإلٓهية لأنه كلمة الله التى تجسدت بشرا سويا ، ثم غلبت فى رأيهم الطبيعية الإلٓهية على البشرية فلم يبق بشرا من عيسى بن مريم عليه السلام إلا الصورة ، أما حقيقته فهى إلٓهية خالصة ، فهو الله - سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - حل فى جسد عيسى بن مريم ، ليتعذب على الصليب فيما قالوا ويشترى بعذابه خطيئة آدم عليه السلام عندما خالف ماأمره به ربه ، فمن آمن بالمسيح على هذا المذهب فقد برىء من خطيئة آدم ودخل فى جملة المخلصين من العذاب ، وكان عليه بعد ذلك أن يظل تابعا للقساوسة والكنيسة ، لأنها هى وحدها سبيل استمرار المغفرة وبدونها يعود الإنسان إلى اللعنة الأبدية .

ورأى قيصر الروم وأهل حاشيته أن القيصر راعى الكنيسة وحامى المسيحيين ، ومن ثم فإن له ولبطارقته الحق فى صياغة هذه العقيدة ، على النحو الذى يرون أنه أصلح لرعاياهم ، فذهبوا فى ذلك مذاهب شتى كلها ترمى إلى جعل المسيحية خاضعة للدولة ورجالها ، ورفض أهل مصر ذلك وتمسكوا بما رأى بطارقتهم من الحق ، وقالوا : إن السيد المسيح عيسى بن مريم طبيعة واحدة إلٓهية وبشرية فى آن معا . وإن البشرية لم تتلاش قط ، وخاطبوه قائلين : أبانا الذى فى السموات والأرض ، وسموا مذهبهم هذا بالمونوفيزية ، أى مذهب الطبيعة الواحدة ، وكذلك قال معظم أهل الشام ، وأخذت الدولة تضطهد أهل مصر والشام والمغرب ممن كان يقول بالطبيعة الواحدة .

وبينما أهل مصر والشام والعراق والمغرب فى هذا العذاب ، إذ دخلت جيوش الإسلام فاتحة ، فلم تفرض الإسلام على أحد ، وإنما تركت الناس أحرارا ، فمن أسلم منهم فهذا حظه وقد هداه الله ، ومن لم يسلم فقد خلص من اضطهاد دولة الروم ، وأقبل على دينه يمارسه كيف يشاء . وفى تاريخ فتوح مصر نجد المقوقس عظيم أقباط مصر يصالح العرب باسم أهل مصر ، فى حين يعارضهم قيرس ، ممثل كنيسة القسطنطينية ، والمقوقس مصرى ، وأخوه مينا الذى يسميه العرب أبا ميامين

كان بطريق المصريين ، وابنته أرمانوسة هى التى أسرها عمرو بن العاص فى بلبيس ، فمن عليها وأطلقها فعادت إلى أبيها معززة مكرمة .

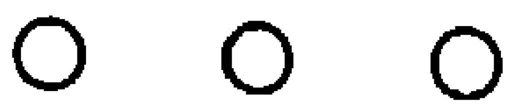
وكان فتح العرب للمغرب كذلك تحريرا لأهل المغرب من البربر من الروم فى أفريقية خاصة ، وهى تقابل مايعرف اليوم ببلاد تونس ، فلما قضى العرب على الروم أخذ الناس فى المغرب يدخلون فى دين الله أفواجا ، أما طول مدة فتح المغرب فلا يرجع قط إلى أن البربر رفضوا الإسلام وأراد العرب قسرهم عليه ، وإنما يرجع إلى اتساع بلاد إفريقية والمغرب ووعورة أراضيها وتعدد قبائل البربر وتأبِّى مواطنى بعض القبائل .. ثم إن دعاة المذاهب الخارجية انبثوا بين البربر وأخذوا يحرضونهم على بنى أمية ودولة السنة والجماعة،وثبت على مذهب السنة معظم البربر ، ودارت الحرب بين الجانبين ، فهى إذن ترجع إلى الخلافات التى وقعت بين البربر المسلمين وأحفادهم من أتباع مذهب الخوارج مع العرب أهل السنة والجماعة ، فهى إذن حروب داخلية فى إطار أمة الإسلام التى أصبح البربر بإسلامهم جزءا منها .

وقد انتهت الحروب بتمام إسلام أهل المغرب وعودتهم جميعا إلى مذهب السنة والجماعة ولله الحمد والمنة ، وكان ذلك النصر المؤزر فى نهاية القرن الهجرى الثانى / الثامن الميلادى . وأصبح أهل الشمال الأفريقى جميعا أهل إسلام ، بل مد الإسلام ظلاله على الأندلس .



وقد عاشت أفريقية قبل الإسلام وهى منقسمة إلى قسمين ، وكأنهما عالمان لايعرف الواحد منهما الآخر : أفريقية شمالى الصحراء الكبرى ، وهى بحر الرمال المتهيل ، وأفريقية المدارية والاستوائية جنوبى ذلك البحر .

ولكن الإسلام كما قلنا دين طيار ، ينتقل مع الريح من بلد إلى بلد لاتقف فى سبيله جبال أورمال ، فكيف عبر الإسلام وحده ، وبقوته وفضائله ، بحر الرمال الشاسع ، وأدخل فى أمته أمما ماتحت الصحراء ؟



والصحراء الكبرى حاجز طبيعى منيع يحول دون اتصال أفريقية المتوسطية بأفريقية المدارية ، كما لو كان محيطا من المياه ؛ لأن عرضها يبلغ فى أضيق أجزائها ثلاثة آلاف كيلومتر ، كانت تقطع فى الماضى فى ثلاثة شهور على الأقل ، ومن العسير جدا على أى مسافر أن يحمل معه ماء لشخصه ولدابته يكفى ثلاثة شهور ، ثم إن رحلة الفرد الواحد مستحيلة لكثرة الأخطار وصعوبة تدبير النوم والراحة والطعام على إنسان بمفرده ، فلابد من قافلة من بضع مئات من الناس معهم بضع مئات من الدواب ، وهنا تتبين استحالة قطع الصحراء ، فليست هناك عيون ماء تكفى لهذا القدر من الأحياء مسافة شهور ثلاثة .

لنضف إلى ذلك أن جو الصحراء - حتى فى الشتاء - لايسمح لأهل الشمال بالعبور إلى الجنوب ، ولأهل الجنوب بالانتقال إلى الشمال بانتظام ، فإن أهل الشمال لايستطيعون الصبر على لأواء الرمال السائلة ، وهى العروق ، والصحارى الحجرية ، وهى الحمادات ، زمنا طويلا ، لأن حرارة الشمس طوال النهار حتى فى الشتاء ، لايحتملها إلا من تعود عليها من المولد ، ثم إن عواصف الرمال عنيفة ومفاجئة وخانقة ، وهى أحيانا تدوم أياما وتجفف المياه حتى فى القرب ، وقد هلك الألوف من أهل الشمال فى هذه الرحلة المهلكة . أما السود من أهل أفريقية المدارية والاستوائية فلا يصبرون على حرارة الشمس فى الصحراء إلا بضعة أيام ، تجف بعدها أجسادهم ويموتون ؛ لأن طبيعة أجسادهم مكونة على أساس شرب مقادير كبيرة من الماء وتبخير معظمها عن طريق المسام ، وبهذا يستطيعون تبريد أجسادهم فى حر المناطق الاستوائية والمدارية .

وعلى طول التاريخ لم تكن هناك إلا ثلاثة طرق للاتصال بين شمال أفريقية ووسطها :

أولها **طريق نهر النيل** ، فيهبط المسافرون إلى إسنا ، ومن هناك يشرع طريق يسمى طريق الأربعين ، لأنه يقطع فى أربعين يوما ، تصل القافلة بعدها إلى كردفان ، وعاصمتها الأبيض ، وهى واحة كبيرة وافرة المياه ، ومن ثم تسير القوافل إلى إقليم دارفور وقاعدته الفاشر ، وهى من كبرى محطات القوافل فى الطريق إلى واداى ، ووادای كانت إقليما وافر المياه بعض الشىء بين دارفور وإقليم بحيرة

تشاد ، وقاعدة واداى زالنجى ، ومن هناك تسير القوافل إلى منطقة بحيرة تشاد ، وتسمى فى نصوصنا بلاد الكانم ، وكانت فيما يلى واداى غربا منطقة تجمع مائى : تهبط إليها مياه الجبال القريبة منها ، وكذلك مياه أنهار أفريقية الاستوائية ، وهذه المياه لا تجرى فى وديان أو مسايل وإنما تتسرب إلى باطن الأرض ، وتسير فى مسارب تحتية ويحفر الناس عليها .

والطريق الثانى هو الطريق من طرابلس فى ليبيا إلى إقليم فزان الغنى بواحاته وعيون الماء وآباره ، وبعد ذلك تمر القوافل بمنطقة ضيقة تتوالى فيها الواحات الصغيرة تسمى منطقة كوار ، وبين الواحة والواحة مالايزيد على مسيرة يومين ، ولهذا تسمى منطقة كوار عند الفرنسيين بدهليز الواحات . بعد ذلك تصل القافلة إلى بلاد الكانم ، ومنها تتجه إلى حيث شاءت من بلاد أفريقية المدارية والاستوائية .

والطريق الثالث هو طريق ساحل المحيط الأطلسى من وادى درعة فى أقصى جنوبى المغرب إلى وادى نهر السنغال ، ومسافة الصحراء هناك نحو شهرين ، منها مسافة شهر يوجد الماء فيها على مراحل معقولة ، ولكن تتوسطها مساحة صحراوية لاتقطع فى أقل من شهر بلا ماء أصلا ، فكانت القوافل تتزود بالماء لهذه المدة . وهذه الصحراء يسميها البكرى صحراء تنسر ، وكانت تسكنها فى الماضى قبائل مغربية صنهاجية تسمى فى مجموعها بصنهاجة الصحراء ، وأكبر قبائلها لمتونة وجُدالة ، ومسوفة ولمطة ، وبنووارث ، وهذه هى المجموعة القبائلية التى أقامت دولة المرابطين . وكانت القوافل تتزود بالماء والغذاء من منطقة تافلالت جنوبى منابع نهر الملويه ، وهى منطقة واحات وعيون ماء جارية وقاعدتها سجلماسة التى ذكرناها ، فإذا رحلت القافلة من سجلماسة سارت فى حماية قبائل صنهاجة الصحراء حتى تصل وادى نهر السنغال ، والمحطة الأولى فى طريقها مدينة أودغشت . وهى باب أفريقية المدارية من هذه الناحية .

وقد استطاع الإسلام أن يجد طريقه إلى أفريقية المدارية والاستوائية عن هذه الطرق الثلاثة . فما كاد يدخل المغرب حتى أخذ يتلمس طريقه إلى الجنوب ، واستطاع بقوته الذاتية وفضائله أن يجد طريقه عبر الصحراء ، ويصل إلى أهلها ، ويدخل قلوب أهلها شيئا فشيئا .

وفى دراسة مفصلة نشرتها فى المجلد الأول من مجلة كلية الآداب بالجامعة الليبية سنة (١٩٦٩) عنوانها « **فزّان ودورها فى انتشار الإسلام فى أفريقية** » بينت كيف وصل الإسلام أول ماوصل إلى أفريقية المدارية عن الطريق الثانى الذى تحدثنا عنه آنفا : طريق طرابلس ففزان وودان فكوار ، وذكرت كيف وصل الإسلام إلى فزان وكوار لأول سنوات فتح المغرب ، فقد كان عمرو بن العاص بعد أن أتم فتح برقة سنة (٢١ هـ / ٦٤١ م) ثم طرابلس سنة (٢٢ هـ / ٦٤٢ م) قد أرسل إلى فزان بعثا عسكريا يقوده نافع بن عبد القيس الفهرى – وهو زوج أخته – ففتح بلاد الصحراء : زويلة وودان وفزان ، وترك فيها حامية إسلامية ودعاة يعلمون الناس قواعد الإسلام .

وكان عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى يرافق أباه فى ذلك البعث ، وكانت سنه إذ ذاك لا تجاوز عشر سنوات . وبعد ذلك أقام نافع بن عبد القيس سنوات متنقلا مابين الإسكندرية وبرقة وزويلة وفزان . وعندما عاد إلى الفسطاط ترك ابنه عقبة مع القوات الإسلامية المعسكرة فى نواحى الصحراء فنشأ عقبة جنديا مدربا عارفا بشئون الصحراء وطرقها ومداخلها وقبائلها .

وكان عقبة بطبعه رجل دين ودعوة ، فكانت تلك السنوات سنوات تكوينه العقلى والدينى . واشتهر أمره فى هذه النواحى بسبب حرصه على نشر الإسلام بين الناس .

وفى سنة (٥٠ / ٧٥٠) أقامه يزيد بن معاوية بن أبى سفيان قائدا على قوات الإسلام الغازية فى المغرب ، فسار فى قوة من الفرسان أمده بها يزيد من مصر إلى برقة فزويلة ففزان فودان ثم كوار .

وفى كل ناحية من هذه النواحى كان يستوثق من إسلام رؤسائها وطاعتهم للعرب ، ويترك فى الناس من يعلمهم أصول الإسلام .

ومن كوار صعد عقبة بن نافع بجيشه إلى غدامس ، ومنها دخل أفريقية (وهى تونس) وقد أقامه يزيد واليا عليها . فبدأ عمله بإنشاء القيروان ، لتكون قاعدة للإسلام فى أفريقية ومركزا تصدر منه جيوش الفتح بدلا من صدورها من الفسطاط . وقد استغرق إنشاء عقبة للقيروان ومسجدها خمس سنوات (٥٠ – ٥٥ / ٧٥٠ – ٧٥٥) .

والمهم لنا الآن هو أن عقبة فتح طريق فزان وكوار للإسلام ، فبدأت قوافل التجارة ، وفيها مسلمون ، تسير فى هذا الطريق وتدخل الإسلام إلى أفريقية المدارية ، ومع الزمن أنشئت على الطريق المساجد والزوايا والربط ، وقامت الجماعات الإسلامية .

عن هذا الطريق هاجرت خلال القرن الثالث الهجرى قبيلة بربرية لانعرف ماذا كان اسمها فى مواطنها الأولى فى المغرب ، واستقرت بعض الوقت فى إقليم تشاد ، ثم اتجهت غربا إلى حوض النيجر ، واستقرت فى غرب المنطقة التى يسميها العرب بالساحل . والمقصود بذلك الساحل الجنوبى من الصحراء الكبرى ، إذ إن هذه الصحراء عندهم هى بحر الرمال . وهناك منطقة أخرى تعرف بالساحل تقع شرقي منطقة الجريد التونسية ، وهذه المنطقة هى الساحل الشمالى لبحر الرمال . أما منطقة الساحل غربى حوض النيجر فهى ساحله الجنوبى . والواحات فى ذلك البحر الواسع تسمى بالجزائر ، وواحدتها جزيرة ، ويلاحظ أن لفظ الواحات أو الواح كان لايطلق إلا على واحات مصر الغربية ، وهى سيوة (سنتريه عند العرب) والفرافرة (الفرفرون عندهم) والبحرية (وهى البحرين عندهم) والخارجة . واللفظ مصرى قديم معناه الماء .

فى منطقة الساحل النيجرية هذه عرفت تلك القبيلة البربرية المهاجرة باسم سوننكة ، وتمكنت من السيطرة على إقليم الساحل كله ، ومدت سلطانها حتى حوض نهر النيجر الأعلى ، وسيطر رجالها على مدن مثل تنكيت (تمبكتو) وماسه وجنى ، وتغلبوا على قبائل الإقليم المجاور لهم مثل البمبارا والونقارا والتكرور ، واتخذوا لأنفسهم عاصمة تتوسط ملكهم وهى: غانة ، وموضعها اليوم مدينة خربة تسمى كومبى صالح ، إلى الشمال من باماكو عاصمة جمهورية مالى الحالية . وأول من أرخ لهذه القبيلة هو محمود كعت[1] فى كتابه المعروف باسم « الفتاش » .

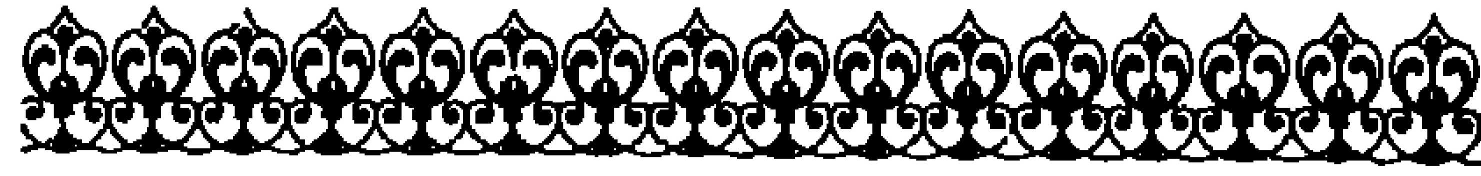
---

(١) بدأ محمود كعت كتابه هذا سنة ٩٢٥ / ١٥١٩ . ونشره المستشرق الفرنسى هوداس فى باريس سنة ١٩١٣ . وهو من أهم مراجعنا عن تاريخ الإسلام فى أفريقية المدارية والاستوائية .
(انظر قائمة المراجع فى آخر هذا الكتاب)

وقد اتسع ملك السوننكة ، وتمولوا بفضل تبر الذهب الذى يكثر فى أنهار هذا الإقليم ، واختلطوا بالسكان ، وصاهروهم ، ولكنهم ظلوا يحتفظون بشخصيتهم ولون بشرتهم الأسمر . فكان رعاياهم من السود يعتبرونهم غرباء وظل ملكهم قائما حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى .

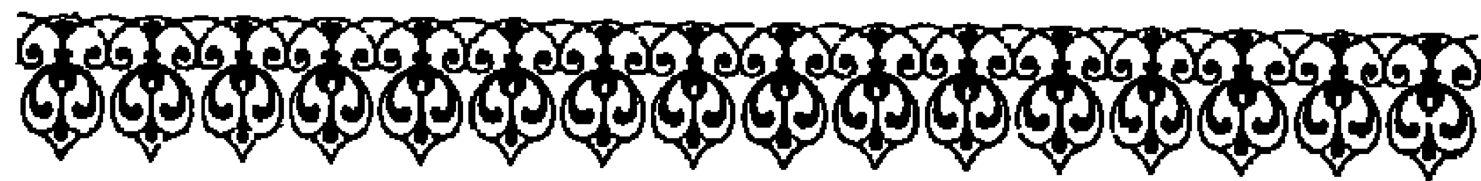
وقد حمل الإسلام إلى السوننكة فى مواطنهم فى أفريقية المدارية التجار والدعاة القادمون عن طريق فزّان ، وقد أفاض المؤرخ محمود كعت الوعكرى فى كتابه المسمى « بالفتاش » عن اتساع مملكة السوننكة هذه ، ووصف ملوكها بأنهم ملوك الذهب ، وسمى مملكتهم مملكة غانة نسبة إلى عاصمتها ، أو مملكة كيمغ نسبة إلى أول ملوكها ، ومعنى كيمغ ملك الذهب .





إسلام مملكة غانة

أولى الممالك الإسلامية في أفريقية المدارية



فى نهاية القرن الثامن الميلادى قامت قبيلة من قبائل السوننكة وهى سيسى أو صوصو ، وقضت على ملك آل كيمغ وحلت محلها . وكان الصوصو قد اختلطوا بأهل البلاد ، حتى أصبحوا سودا مثلهم ؛ ولهذا لم يجدوا صعوبة فى بسط سلطانهم على كل ماكان يملكه أسلافهم . أما بقايا السوننكة من البربر فقد هربوا إلى إقليم التكرور عند مجرى نهر الغامبيا . وتغلبوا على التكاررة ، وحكموا بلادهم ، وظلوا يسودونها حتى قام عليهم التكاررة وغلبوهم فتفرقوا فى البلاد ، ومنهم من ذهب إلى الصحراء الكبرى الغربية التى تفصل بين المغرب وأفريقية المدارية . وفى الصحراء أقاموا ودخلوا فى شعب الطوارق واختلطوا به ، ومنهم من ذهب إلى بلاد غانة .

ولم يكن السوننكة السود كلهم على الإسلام ، وإنما كان الكثيرون منهم وثنيين ، وكان الدين الحنيف ينتشر بينهم ، ويحل محل الوثنية شيئا فشيئا . وهؤلاء المسلمون الغانيون الذين دخلوا الإسلام على أيدى السوننكة ، هم الذين مهدوا لتحويل بلاد غانة كلها إلى الإسلام عندما دخلها المرابطون فيما بعد .

وكان سادة غانة الجدد من السوننكة أقوى من سكانها القدامى ، وكان سلطانهم أوسع ، وجدير بالذكر أن دولتهم كانت تسمى غانة أيضا ، وكان يطلق على ملوكها لقب كيمغ أو قيمغ كذلك .

وقد تمكن رجال هذه الدولة من الاستيلاء على أودغشت ، وقد كانت مركز التجارة الرئيسى لكل القوافل الصادرة من غانة وغيرها من بلاد أفريقية المدارية ، إلى بلاد المغرب عبر الصحراء ، ومسافتها هناك شهران ، فإذا عبرت قوافل أودغشت الصحراء الكبرى قرب ساحل المحيط الأطلسى ، وصلوا إلى واحات سجلماسة عاصمة إقليم تافللت .

وكانت البلدتان : أودغشت وسجلماسة ، أكبر المراكز التجارية فى أفريقية كلها وقد تحدث عنها الجغرافيون العرب فى تفصيل كثير ، وأوفاهم كلاما عنها أبو عبيد البكرى والشريف الإدريسى وابن حوقل على الترتيب . ولهذا يعتبر استيلاء حكام غانة من السوننكة حادثا فاصلا فى تاريخ انتشار الإسلام فى أفريقية المدارية ، لأنه مكن للغانيين من السيطرة على طريق التجارة ، وطريق التجارة هنا هو طريق إسلام .

وقد اندرست أودغشت اليوم ، والبكرى يقول : إنها كانت تقوم على مسافة شهرين من سجلماسة ، وعلى خمسة عشر يوما من مدينة غانة القديمة ، التى تقوم مكانها اليوم مدينة خربة تسمى كومبى صالح ، وتقع على مقربة من بليدة تجدادست شرقى منطقة تاجنت .

كذلك استولى الغانيون على أهم المدن غربى نهر النيجر ، مثل ولاته وأنباره وكوغه وسامه . وخلال القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، بلغت مملكة غانة الثانية التى أنشأها الصوصو أوج اتساعها وقوتها ، وقد وصف امتدادها د . إبراهيم على طرخان فى كتابه القيم عن « إمبراطورية غانة الإسلامية » (القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٠) فقال : « وشملت من الأقاليم الهامة – بجانب إدكار وهود – باسيكورو ووجادو فى الشرق وديارا فى الغرب ، وكانياجا موطن الصوصو فى الجنوب الشرقى ، والواقع أن مدى اتساع إمبراطورية غانة ليس معروفا بالضبط ، ولكن المحقق أن نفوذها كان واسعا ، بحيث كانت صاحبة السيادة والنفوذ فى جميع المساحات الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسى ، وصارت أعظم قوة سياسية فى السودان الغربى ، ويمكن القول بصفة عامة : إنها امتدت نحو الشمال ، وخضع لها أغلب قبائل الصحراء الجنوبية ، وربما وصلت غزواتها إلى منطقة

إدرار[1] وامتدت من ناحية الغرب إلى أعالى السنغال وفرعه باولى ، وحدود مملكة التكاررة . ووصلت فى الشرق إلى قرب تنبكت ، وجنوب الغرب إلى أعالى النيجر وأعالى السنغال ومنطقة الذهب فى ونقارة ، ولكنها لم تتحكم فى ونقارة نفسها » ، وأضاف .. « إنه من المحتمل أن تكون قد امتدت إلى أطراف منطقة الغابات الاستوائية ، واقتربت من مواطن الوثنيين المعروفين فى الكتب العربية باسم الكفار اللملمبة كما يقول الإدريسى » .

وقد ازدهرت غانة غاصمة هذه الدولة الكبيرة – ومكانها اليوم موضع كومبى صالح كما ذكرنا – فى عصر دولة السوننكة الثانية التى نتحدث عنها ، وكان فيها حى كامل للمسلمين ، ولكن الوثنية كانت غالبة على المملكة وأهلها ، وكانوا يعبدون أصناما تسمى الدكاكير ، مفرده الدكور ، ونفهم من كلام أبى عبيد البكرى أن الحى الإسلامى فى غانة كان مدينة قائمة بذاتها منفصلة عن « مدينة الملك » ، وهى المدينة الأصلية وعاصمة البلاد . وكان فى القسم الإسلامى أحد عشر مسجدا أما فى « مدينة الملك » ، فكان يوجد مسجد واحد لمن يفد من المسلمين .

مدينة أودغشت بين المسلمين وملوك مملكة غانة

قلنا : إن مدينة أودغشت كانت مركزا تجاريا ضخما فى أفريقية المدارية ، وكانت تقع فى شمالى حوض السنغال ، وهى أول مايلقاه من يعبر الصحراء الكبرى قادما من الشمال من كبار المدن ذات الأسواق العامرة ، وكان مرد غناها إلى أنها كانت السوق الكبيرة للذهب الذى يستخرج من بعض أنهار أفريقية المدارية ، ثم إنها كانت تقع فى منطقة واسعة الموارد ، فكانت لذلك عمادا كبيرا لمملكة غانة . وكانت قبائل صنهاجة الصحراء تمتد حتى تصل إلى أودغشت وحوض السنغال ، واسم النهر نفسه مشتق من اسم صنهاجة ، فقد أطلق ذلك الاسم عليه البرتغاليون ، فقالوا صنهاجال أى الصنهاجى ، ونطقوه سنغال **Senegal** ولزم الاسم النهر من

---

(١) إدارة منطقة تقع إلى غرب الطرف الجنوبى لجبال الأطلس الصحراوية جنوبى المغرب الأقصى .

ذلك الحين ، أما المسلمون فقد أطلقوا على هذا النهر نهر غانة ، وقبل أن تستولى قبائل صنهاجة الصحراء على أودغشت كانت شهرتها بالذهب قد طبقت الآفاق ، قال أبو عبيد البكرى فى وصف أفريقية والمغرب : « وذهب أودغشت أجود من ذهب أهل الأرض » ، وهو يطنب فى كتابه فى الكلام عن غنى تلك المدينة ، وما كان لأهلها من الثروة والخيرات ، ويقول إن معظم الناس هناك كانوا من الصنهاجيين ، ولكنهم كانوا خاضعين لسلاطين غانة ، وقبل أن يدخل المرابطون الناحية كان الإسلام قائما فى أودغشت . يقول : « وكان صاحب أودغشت فى عَشْر الخمسين وثلاثمائة تين بروتان بن ويسنو بن نزار ، رجل من صنهاجة ، وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكا من ملوك السودان ، كلهم يؤدى إليه الجزية ، وكان عمله مسيرة شهرين فى مثلها فى عمارة ويعتد فى مائة ألف نجيب » .

ولم يذكر البكرى أو غيره أن ملك غانة هذا كان مسلما ، ولكن أهل أودغشت كان فيهم إسلام كثير ، نشره فيهم تجار المغرب ، والصنهاجيون منهم خاصة ، وشيئا فشيئا أسلم معظم أهل أودغشت وأصبحت مركزا للإسلام فى أفريقية المدارية ، كان ذلك قبل مجيء المرابطين .

دخول المرابطين أودغشت وإسلام مملكة غانة

وعلى الرغم من أن صاحب أودغشت ومعظم كبراء دولته كانوا من المسلمين ، فإن الإسلام لم يعم أهلها ، وكانت غالبيتهم من السود الكعارتة والماسينا والياتنجا والفولا وكان معظمهم يدينون بالولاء لممكلة غانة ، بل كان صاحب أودغشت يخشى دولة غانة وسلطانها ، وعندما ضعفت مملكته بعد وفاته ، أدى خلفاؤه الجزية لغانة ، ودخلت فى طاعة ملكها السوننكى .

وكانت مملكة غانة خطرا شديدا ، يهدد بربر صنهاجة الضاربين فى الطرف الغربى للصحراء الكبرى ، الفاصلة بين المغرب وأفريقية المدارية ، وأهمها لمتونة ومسوفة وجدالة وجزولة وبنو وارث وتارجا ، وكانت هذه القبائل الصنهاجية مهددة من الشمال فى الوقت نفسه بقبائل زناته التى بسطت سلطانها على المغرب الأقصى

(١) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، تحقيق دى سلان . الجزائر سنة (١٨٥٧) ص (١٥٨)

كله ، خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، بعد انقضاء الدور الأول من تاريخ دولة الأدارسة على يد الفاطميين ، ونتيجة لنزاع هؤلاء مع الأمويين فى الأندلس على مصير المغرب الأقصى ، فانتهز الزناتيون الفرصة وسادوا المغرب الأقصى حتى استولوا على سجلماسة ، وضغطوا على صنهاجة الصحراء ضغطا خطيرا .

وهذا الشعور بالخطر على المصير والضياع بين الزناتيين من الشمال وسلطان غانة من الجنوب كان الدافع الحقيقى الذى جعل يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة جدالة يرحل إلى الشرق باحثا عن وسيلة يستطيع أن يجمع بها كلمة قومه وتوحيدهم لتحريرهم من استبداد الزناتيين من الشمال وضغط الغانيين من الجنوب . ولعله نظر فى ذلك إلى ما أدركته قبيلة أوربة وحلفاؤها عندما اتحدت تحت لواء إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن أبى طالب وأقامت دولة الأدارسة وعزت بها . كان يحيى بن إبراهيم يعرف أن عصب الدين هو الرباط الوحيد ، الذى يمكن أن يجمع الصنهاجيين بعضهم إلى بعض ، ويخرجهم من فوضى المنازعات المحلية القبلية الصغيرة ، ويطلق قواهم الكامنة التى تستطيع تحطيم النطاق المضروب عليهم ، وعندما التقى يحيى بن إبراهيم بأبى عمران الفاسى فى القيروان ، أخذت الفكرة صورة واضحة أمامه : فهو فى حاجة إلى إمام يعلم قومه الدين والأخلاق والنظام والاتحاد ، خاصة وقد كانت جدالة من أكثر القبائل الصنهاجية الصحراوية فوضى واختلاف أمر ، ولم يجد أبو عمران من طلابه شابا طموحا عميق الإيمان جرىء القلب يقوم بهذه المهمة ، فنصح يحيى بن إبراهيم بأن يطلب ذلك إلى وجاج بن زللو فقيه سجلماسة ، وكان يقيم فى قرية من قرى تافللت هى ملكوس ، وكان أيضا صنهاجيا صحراويا من قبيلة لمطة ، وكانت مضاربها فى أقصى الصحراء جنوبا على أبواب أفريقية المدارية ، ومركزها مدينة مشهورة على البحر تسمى نول لمطة ، كان بعض الجغرافيين العرب يرون أنها آخر بلاد الإسلام فى أقصى بلاد المغرب إلى الجنوب .

وطلب إبراهيم الجدالى إلى وجاج بن زللو أن يرشح له واحدا من تلاميذه ، بعد أن شرح له المهمة التى كان يرجو أن يقوم بها هذا التلميذ . فهى مهمة دينية سياسية ، والفقيه المطلوب ينبغى أن يكون من ناحية معلما للقوم ومن ناحية أخرى

زعيما سياسيا لهم . وقع اختيار وجاج بن زللو على عبد الله بن ياسين ، وكان شابا عظيم النشاط واسع الذكاء ، وكان مؤهلا بطبعه للقيام بهذه المهمة ، فقد كان رجل سياسة قبل أن يكون رجل فقه ، وكان يحس بمأساة قومه إحساسا عميقا . ذهب إلى الأندلس وعاد إلى سجلماسة مخترقا المغرب الأقصى من شماله إلى جنوبه ورأى استبداد زناته بصنهاجة ، وقدر فى نفسه – كما يقول ابن عذارى – قوة الزناتيين ، وأحس أنها قوة يسيرة يسهل التغلب عليها ، فما كاد وجاج بن زللو يعرض عليه الأمر حتى قبل ، وتوجه مع يحيى بن إبراهيم الجدالى إلى مواطن جدالة ، وأراد أن يدفعهم فى الطريق الذى رسمه لنفسه بالعنف ، فثاروا به وطردوه ؛ فعاد إلى وجاج ؛ فأرسله إلى لمتونة أقوى قبائل صنهاجة الصحراء وأكثرها تماسكا ، وكان يرأسها شيخ ذو خبرة وتجربة وطموح وبعد نظر ، هو يحيى بن عمر ، فرحب بعبد الله بن ياسين . وكان هذا الأخير قد تعلم كثيرا من التجربة السيئة عند الجداليين ، فقرر أن يربط بين طموحه وطموح صاحبه يحيى ابن عمر ، فعبد الله بن ياسين هو الإمام والمعلم والموجه الدينى ، ويحيى بن عمر هو الرئيس السياسى،ومع أن العلم الصحيح بالفقه الإسلامى لم يتوافر لعبد الله بن ياسين ، فكان يفتى أحيانا بما يخالف السنة ، إلا أنه كان يعوض هذا النقص بالعمل على أن يكون ليحيى بن عمر نصيب الأسد مما كان عبدالله بن ياسين يفرضه من إتاوات باسم الزكاة – حتى أنه كان يلزم المؤمنين بإخراج ثلث أموالهم زكاة لكى يطهر لهم الثلثان الباقيان كما قال – فحظى بذلك يحيى بن عمر .

وكان يرأس لمتونة بيت عريق هو بيت طرغوت بن ورطاسن . وقد صاهر يحيى ابن عمر ورطاسن وتزوج ابنته ، واندرج فى غمار بنى طرغوت بن ورطاسن ، حتى ذهب كثير من المؤرخين إلى أنه ابن لورطاسن ، وتمكن يحيى بن عمر بملكاته من أن يصل إلى الرياسة بعد موت ورطاسن ، ولكنه كان ذكيا أريبا ، فحفظ لآل طرغوت بن ورطاسن مكانتهم ، وأشرك رجالهم معه فى الحكم فأيدوه وشدوا أزر عبدالله بن ياسين صاحبه ، وإذا كان يحيى بن عمر قد أصبح رأس البيت المالك فإن أولاد ورطاسن ظلت لهم فى الدولة مكانة كبرى ، وخصوصا اثنين من بنى ورطاسن هما بيت بالونكا أو سلنكان وبيت واسينو ، فأما بيت سلنكان فقد أبرز سلسلة من أعاظم قادة المرابطين هم مزدلى بن سلنكان وبنوه ،

وأما بيت واسينو فقد أبرز القائدين العظيمين يحيى بن واسينو وابنه عمر ، ولكل من آل سلنكان وآل واسينو صفحات مجيدة فى تاريخ جهاد المرابطين فى الأندلس .

المهم أن عبدالله بن ياسين وفق توفيقا عظيما فى مهمته ، فتمكن من جمع صفوف لمتونة وتكوين قوات من المجاهدين فى سبيل الدين سماهم المرابطين ، وتمكن بعد ذلك من جمع كلمة كل قبائل صنهاجة الصحراء إلى لواء واحد ، فانضمت صفوف جدالة ولمتونة ومسوفة وتارجا وبنى وارث ، واستطاع هذا الرجل أن يحول هذه الكتلة الصنهاجية إلى قوة عسكرية مجاهدة ضخمة فى جبهتين : جبهة زناتة فى الشمال ، وجبهة السودان الغانيين فى الجنوب ، وفى كلتا الجبهتين كان توفيقه عظيما ، واستولى على أودغشت من الغانيين وعاقب أهلها لخضوعهم للسوننكيين الغانيين ، واستولى على سجلماسة من أيدى الزناتيين ، وبهذا ملك المرابطون طريق التجارة والثروة والمال ، وتجردوا لما هو أهم من ذلك وأبعد مدى ، وهو الجهاد .

فقد وصل المرابطون مجاهدين فى ناحية الجنوب إلى حوض السنغال ، ثم استولوا على غانة ، واستولوا كذلك على تمبكت وولاته ، وبلاد قبيلة جنى ، ثم وضعوا أيديهم على مناجم الذهب الكبرى شمالى جبال فوتا جالون ، وكانت هذه المناجم إلى جانب تبر الأنهار أعظم مصدر للذهب فى الدنيا حتى اكتشاف أمريكا ، وقد أكد ذلك رينيه مونتاى . وبهذا الذهب اشتد ساعد حركة المرابطين ، وخاصة إذا ذكرنا سيطرتها التامة على طرق التجارة الرئيسية من المغرب الأقصى إلى أفريقية المدارية والاستوائية . وهذا الذهب كان الأساس فى إصلاح العملة المرابطية المشهورة ، فقد أعادوا الدينار إلى وزنه ، وأصبحت العملة المرابطية من أصح عملات الدنيا ، وانتشر استعمالها فى غرب أوربا ، وعرف الدينار المرابطى هناك باسم **moravedi** نسبة إلى مرابط .

هذا يفسر لنا كيف تمكن المرابطون من التغلب على الزناتيين الذين كانوا يسودون أحواض ووديان درعة وأم الربيع وتانسيفت ، وعندما استقر المرابطون فى السهل الواسع الذى يشقه نهر تانسيفت ، شرعوا فى إنشاء مدينة مراكش فى

(٢٣ رجب ٤٦٢ / مايو ١٠٧٠) التى أصبحت فيما بعد من أعظم عواصم الإسلام وأجملها .

ولكن إنشاء مراكش يعنى لنا انقسام دولة المرابطين إلى دولتين : شمالية وجهتها شمال المغرب الأقصى ، وجنوبية وجهتها بلاد السودان . وكل اهتمام المؤرخين المسلمين بعد ذلك اتجه نحو الفرع المرابطى الشمالى ، الذى أتيح له أن يوحد المغرب الأقصى وإقليم تلمسان بل أدخل مدينة الجزائر فى سلطانه ثم عبر بعد ذلك إلى الأندلس ، وقام بإنقاذ جبهة الإسلام المتداعية في ذلك الحين على يد يوسف بن تاشفين ، مما مد فى عمر الإسلام فى الأندلس أربعة قرون ، فى حين لم يذكر لنا أحد شيئا وافيا عن أعمال المرابطين الجليلة فى أفريقية المدارية .

ونفصل ما أجملناه في الفقرة السابقة فنقول : إن يحيى بن عمر توفى فى جهاده فى السودان ، فخلفه أخوه أبو بكر بن عمر ، الذى سار فى طريق أخيه معتمدا على عبدالله بن ياسين ، حتى توفى هذا الأخير سنة (٤٥١ هـ / ١٠٥٩) فى حروبه مع زنادقة برغواطة في شمال المغرب الأقصى .

وكان لعمر بن إبراهيم والد يحيى بن عمر وأخيه أبى بكر أخ يسمى تاشفين عمل فى خدمة أخيه حتى مات فخلفه ابنه يوسف ، وكان شابا موهوبا فارتفع مكانه عند ابن عمه أبى بكر ، وأصبح من أكبر قواد المرابطين . فبينما كان أبو بكر ابن عمر يرتب بناء مراكش ، بلغته أخبار مقلقة عن أهله فى جنوبى الصحراء ، وحوض السنغال ، لأن قبيلة جدالة اعتدت على قبيلة لمتونة فاستغاثت به ، فترك القيادة فى يد ابن أخيه يوسف بن تاشفين ومضى إلى الجنوب إلى ديار المرابطين الأولى ، وما كاد يوسف بن تاشفين يصل إلى القيادة ، حتى عمل من أول الأمر على الاستبداد بالأمر ، فكسب ولاء المرابطين الذين كانوا معه ، ثم تزوج زينب بنت إسحاق النفزاوية ، تلك الأميرة الجميلة التى كان أبو بكر بن عمر قد تزوجها ثم طلقها عندما سار إلى الجنوب . فلما عاد أبو بكر بن عمر من الجنوب ، بعد أن اطمأن على مصير لمتونة ، وجد ابن أخيه قد أخذ كل شيء وتبين ألا فائدة فى النزاع ، وكان رجلا ورعا ، فاتفق مع ابن أخيه على أن يقتسما الأمر : فيتولى يوسف بن تاشفين ومن معه العمل فى الشمال ، ويتجه أبو بكر بن عمر إلى غانة ، وبالفعل انسحب إلى الجنوب وقضى بقية عمره فى الجهاد .

قيام دولة غانة الإسلامية

استولى المرابطون على أودغشت سنة (١٠٥٥ م) ثم اتجهوا بقيادة أبى بكر ابن عمر إلى غانة واقتحموها سنة (١٠٧٦) ، وقضوا على الوثنية فيها ، وعملوا على تحويلها كلها إلى بلاد إسلامية خالصة ، وأقاموا عليها حاكما مسلما من الغانيين أنفسهم ، ممن دخل آباؤهم الإسلام منذ زمن طويل . ومن ذلك الحين أصبحت بلاد غانة كلها بلادا إسلامية ، وهكذا يكون أبو بكر بن عمر قد حول معظم بلاد أفريقية الغربية المدارية إلى الإسلام وجعلها جزءا أصيلا من دولته . وعندما توفى مجاهدا سنة (١٠٨٧) م كان قد وقف بالإسلام على أبواب أفريقية الاستوائية إلى منطقة الغابات الكثيفة واستعدوا للتوغل فيها .

ومنطقة الغابات الأفريقية الاستوائية تبدو للمقبل من الشمال ، وكأنها سياج ضخم لايقتحم من الغابات الاستوائية الكثيفة ، وبالفعل كانت الحدود الشمالية للغابات الاستوائية حاجزا هائلا ، يمنع شعوب أفريقية المدارية من دخول أفريقية الاستوائية ، مثلها فى ذلك مثل حاجز الصحراء الكبرى ، فقد كانت هى الأخرى حاجزا طبيعيا حضاريا ، يفصل أفريقية الشمالية المغربية عن أفريقية المدارية .

فأما الحاجز الصحراوى فقد حطمه الإسلام كما رأينا وشق طريقه خلال رمال الصحراء عن طريق طرقه الثلاثة التى ذكرناها . والآن هو يتأهب لتحطيم حاجز الغابات .

لقد ضعف سلطان المرابطين على غانة بعد موت أبى بكر بن عمر سنة (١٠٨٧) م ، ولكن الإسلام ظل ينتشر ويتوسع . وبهذا يكون أبو بكر بن عمر قائد الجناح المجاهد الجنوبى من المرابطين ، قد قدم للإسلام خدمة لاتقل أهمية عما أداه يوسف بن تاشفين قائد الجناح المجاهد الشمالى من حركة المرابطين .

وكانت نهاية دولة غانة الإسلامية على يد فريق من قبائل الصوصو ، الذين كانوا يسكنون جنوبى مملكة غانة غربى الحوض الأدنى للنيجر ، وكان الصوصو على العموم قبيلة قوية من سكان أفريقية المدارية الغربية ، وقد رأينا أن فريقا منهم هم الذين قضوا على دولة غانة الأولى ، التى أنشأها مهاجرون مغاربة عبروا الصحراء عن طريق الممر الأوسط : فزان ثم كوار ، وهم السوننكة الذين ذكرناهم .

وقد خضع بقية الصوصو لملوك غانة المسلمين ، حتى إذا تفرق أمرهم وضعفت مملكتهم أعلنوا استقلالهم وانفصلوا عن الدولة ، فلما تأكدوا من ضعفها تشجعوا للهجوم عليها ، فبدءوا يغزون إقليم دابارا المجاور لهم ، وكان جزءا من دولة غانة ، فلما لم يصادفوا رد فعل قويا من ناحية ملوك غانة ، قام أحد رؤسائهم وهو سوما نجورو بالتقدم شمالا ، واستولى على مدينة غانة عاصمة الدولة سنة (١٢٠٣ م) ، وقضى على الدولة ، وهرب فريق من سكان مدينة غانة من المسلمين ، بقيادة زعيم يسمى الشيخ إسماعيل إلى مدينة ولاته إلى الشمال وأنشئوا مركزا تجاريا كبيرا ، أصبح بعد ذلك من أعاظم مراكز التجارة فى أفريقية الغربية الإسلامية .

تمكن سوما نجورو من الاستيلاء بعد ذلك على بلاد دولة غانة ، ثم اصطدم في الجنوب برجال دولة إسلامية صغيرة ، كانت إذ ذاك ناشئة فى كانجابا وأصحابها من قبائل الماندنجى ، الذين سنتحدث عنهم فى الفقرة التالية ، فانتصر عليهم وقتل ولدين من أولاد ملكهم ناريه نمغان .

أما أصغر الأولاد (وهو الابن الثانى عشر للملك) فقد هرب ونجا من الموت ، وهو المشهور فى التاريخ باسم مارى جاطة أى ولد الأسد ، هرب إلى الجنوب ، وكان ذلك فيما بين سنتى (١٢١٨ و ١٢٣٠) . وفى منفاه البعيد ، أخذ مارى جاطة يجمع الأنصار ، ويستعد للانتقام ممن قضوا على ملك أبيه ، وقد تمكن من ذلك سنة (١٢٣٥) ، بعد مغامرات ومخاطرات ، ثم دخل مدينة غانة ، وقضى على بقية الصوصو ثم خربها تماما سنة (١٢٤٠) . وكان مارى جاطة مسلما ، وعلى يده قامت ثانية الدول الإسلامية فى أفريقية الغربية المدارية وهى دولة مالى .

دولة مالى الإسلامية

خلفت دولة غانة فى رياسة المغرب الأفريقى المدارى دولة مالى ، ومالى اسم حديث بعض الشىء لدولة قديمة ، تعاقبت عليها الأسر المالكة قبل الإسلام ، وقد أنشأها نبيل عظيم من أهل السودان الغربى يسمى بالماندنجو .

ولقبائل الماندنجو أسماء أخرى كثيرة أطلقها عليهم جيرانهم ، ومن اتصلوا بهم

من الأمم ، فسماهم أهل حوض نهر غمبيا باسم الماندنجو ، وعنهم أخذ البرتغاليون والإنجليز هذا الاسم .

أما قبائل الحوسى الذين يسمون عادة باسم الهاوسا (وسنتحدث عنهم) وهم جيرانهم من الشرق ، فقد أطلقوا عليهم اسم ونقاره أو ونجاره . وهم يعنون بهذه التسمية فرعين من شعب الماندنجو ، وهما فرع السوننكة الذى تحدثنا عنه وهو منشىء دولتى غانة الوثنية والإسلامية ، وفرع الفولا .

أما الفولا أو الفولانيون وبعض التكاررة ، فيسمونهم باسم مالنكه ، ثم أخذ الفرنسيون الاسم فاستخدموا لفظ مالنكة فى الكلام على الماندنجو .

وتطلق عليهم قبائل البامبارا التى تسكن إلى جنوبهم ، وهى فروع من الماندنجو اسم مالى .

وأصل اسم الماندنجو غير معروف على التحقيق ، فهناك من يقول : إنهم منسوبون إلى ماندى وهو لفظ معناه المدينة أو العاصمة . فهم على هذا القول أهل المدينة أو أهل الحاضرة .

وهناك من يقولون : إن اللفظ مكون من « ما » ومعناه الدم و « دنج » وهو الطفل أو الابن ، والمعنى إذن ابن الدم أى المنسوب إلى أمه .

وفى الحقيقة يشتق الاسم من ماندى ، وهو اسم اللغة التى كانت تتحدث بها غالبية القبائل الساكنة فى المجرى الأعلى لنهر النيجر والمحيط الأطلسى ، فالماندنجو هم المتكلمون باللغة الماندية ، وهم يضمون قبائل المالنكى ، وهى التى تزعمت الماندنجو ، وأنشأت دولة مالى ، والبامبارا الذين يسكنون فى الجنوب ، ويحرف هذا الاسم إلى بانمانا على ألسنة المستعمرين البرتغاليين . وقد قام بينهم — أى البرتغاليين — وبين البامبارا صراع عنيف ، لأن هؤلاء الأخيرين تزعموا الماندنجو فى القرن السابع عشر ، وتولوا الصراع مع المستعمرين .

والسوننكة الذين تحدثنا عنهم فرع من فروع الماندنجو .

أما لفظ مالى الذى يستعمل عادة للدلالة على الماندنجو ، والدول التى أنشئوها ، فهو تحريف للفظ ماندى الذى اشتق منه اسم ماندنجو ، وهو اسم

مدينتهم الكبرى التى عرفت باسم مالى . ويسميها بعض الكتاب العرب باسم مَلِ بدلا من مالى .

التكرور :

ومن الخطأ القول بأن الماندنجو هم التكرور ، أو التكاررة ، إذ الحقيقة أنهم شعب غير الماندنجى ، ولكنهم خضعوا لهم فترة من الزمن ، ولهذا تلقب ملوك مالى أحيانا باسم ملوك التكرور .

ولفظ تكرور – والجمع تكاررة – يستعمل فى السودان الشرقى للدلالة على كل السودانيين الذين يسكنون غربهم إلى المحيط . وبالمثل يطلق لفظ الفلاتة فى السودان النيلى على كل قادم من بيجيريا .

والتكاررة فريق من أهل السودان الغربى يسكنون حوض نهر السنغال الأوسط ، فالسنغاليون تكاررة ، وقد نطق الاسم تكور أو توكور ولهذا يسميهم الفرنسيون توكوليير ، وأصلهم فرع من الفولا أو الفولانيين ، وهم شعب كبير معروف فى كل أفريقية المدارية ، أصلهم البعيد من بربر إقليم فزان ، عبروا إلى ناحية تشاد ، ومن ثم انتشروا وتكاثروا واختلطوا بالسكان وأصبحوا سودانيين ، وإن كانوا أقل سوادا من جيرانهم . وفى أراضى السهوب الممتدة من غربى نيجيريا الحالية إلى ساحل المحيط ، وعلى هذا الساحل من السنغال إلى الكاميرون ، تمكن الفولا من إنشاء عدد من مراكز التجمع الفولانية الكبيرة : فى فوتاتورو وفى السنغال ، وعند سفوح جبال فوتا جالون فى غينيا ، وفى إقليم ماسينا فى جمهورية مالى الحالية ، وفى إقليم ليبتاكو فى جمهورية الفولتا العليا ، وفى ناحية واسعة تمتد من شمال نيجيريا إلى الكاميرون تسمى ببلاد أدماوة .

والفلانيون الذين استقروا فى إقليم فوتاتورو فى السنغال ، هم الذين عرفوا بالتكاررة الذين نتكلم عنهم .

وفى موطنهم هذا أسلم التكاررة على يد عبدالله بن ياسين فى اندفاعه نحو الجنوب ، وتحمسوا للإسلام حماسا شديدا ، وفى الجزء الأدنى من نهر السنغال الذى سكنوه ، تقع الجزيرة التى اتخذها عبدالله بن ياسين معتصما لأصحابه ، ومهدا لتكوين الجماعة الذين سماهم المرابطين ، ومن قلب بلاد التكروخرجت

شرارة الحركة المرابطية ، التى احتضنتها قبائل صنهاجة الصحراء (لمتونة ومسوفة وجدالة وبنو وارث وتارجا) التى حملت الدعوة بعد ذلك . وعندما انقسمت حركة المرابطين إلى قسمين : شمالى وجنوبى ، كان التكاررة هم صلب الجناح الجنوبى الذى قاده أبو بكر بن عمر وغزا به غانة . ومازال التكاررة أو التكرور بعد ذلك حصنا من أقوى حصون الإسلام فى إفريقية المدارية الغربية ، وهم الذين نهضوا بحركة الحاج عمر ، التى سنتحدث عنها فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وقد تمكنت جماعات منهم سكنت أفريقية المدارية ، من السنغال إلى إريتريا ، من إنشاء دويلات إسلامية أفريقية كثيرة .

وعندما قامت دولة مالى خضع لها التكاررة ، ولكنهم ظلوا كتلة إسلامية متماسكة ، داخل الكيان المالى ، مسيطرة على بلاد فوتاتورو فى السنغال ، وكان لهم أثر بعيد فى إسلام دولة مالى نفسها .

والآن نعود إلى تاريخ مالى حيث تركناه .

سيطر الماندنجو ، وهم أصحاب دولة مالى ، على البلاد الممتدة من نهر النيجر إلى المحيط الأطلسى ، وأقاموا قبل وصول الإسلام إلى هذه النواحى أسرا حاكمة ، مثل أسرة الترورريين فى حوض السنغال الأعلى وأسرة الكوناتيين (نسبة إلى كوناته) شمال بلاد الترورريين ، وأسرة كايتا التى لانعرف شيئا محققا عن أصلها ، وإن كانت المأثورات الشعبية فى مالى تقول : إن منشئها كان رجلا مسلما من الماندنجى ، أو الفولا الخاضعين لهم ، يسمى موسى ديجيو ، تولى عرش مالى فيما بين سنتى (١٢٠٠ و ١٢١٨) . وهناك رواية تقول : إنه من سلالة بلال الحبشى مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء طفلا من الحجاز ، أو جاء أبوه إلى بلاد الماندنجى ، وتزوج فيهم واستقر فى بلاد التكاررة ، ثم دخل فى عداد جماعة البولا (بالباء الخفيفة وهى جماعة من العسكريين المرتزقة ، كان ملوك أسرة الكوناتيين يعتمدون عليهم) . ودخل ابنه فى عداد هذه الطبقة ، وتمكن عن هذا الطريق من الوصول إلى السلطان . وأنشأ أسرة كايتا ، وكايتا لقب اتخذه ، وهو محرف عن عبارة عربية ماندنجية ، هى : « الله - كوى » ، أى الله خالق كل شىء ، ثم حرفت إلى الاكوى ثم الاكويتا ثم كويتا ثم كايتا ، وربما كان

هذا كله مجرد فرض لأن كايتا كان لقب أسرته من أول الأمر ، ثم اخترعت الاسطورة بعد ذلك .

اتخذ موسى ديجيو أو موسى الاكوى أو موسى كايتا مدينة جرية فى إقليم كانجابا عاصمة له .

وأنجب موسى عددا كبيرا من الأولاد ، فخلفه أكبرهم ويسمى نارى فان ماجان أو نارى فامغان الذى ظل يحكم حتى سنة (١٢٣٠ م) ، وقد بذل فى أثناء حكمه جهودا كبيرة لنشر الإسلام بين رعيته .

وقد خاض نارى فامغان حروبا طويلة مع إخوته الذين نازعوه العرش ، وتغلب عليهم آخر الأمر ، ونقل عاصمته إلى شرقى جبال الفوتا جالون .

وعندما توفى سنة (١٢٣٠ م) خلفه ابنه كونتيوغو – سمبا – كايتا ، وفى أيامه قام سوما نجورو ملك الصوصو بهجوم عنيف على دولة مالى ، وهزم الماندنجى ، وقتل ملكهم وعشرة من إخوته ، ولم ينج من هذا المصير إلا ابنه الأصغر سنديانا .

تشرد سنديانا فى الأقاليم الجنوبية لدولة مالى وفى صحبته نفر من أصحابه الشجعان ، وتمكن من أن يجمع جيشا قويا من الماندنجى ، ويقودهم فى صراع عنيف مع ملك الصوصو الوثنى ، وتمكن من الانتصار عليه سنة (١٢٣٥ م) فى موقعة حاسمة عند كيرينا قرب باماكو الحالية ، وطرد الصوصو من بلاد مالى ، وأعاد الاستقلال إلى بلاده وتربع على عرشها ، وغلب عليه اللقب الذى أطلقه أصحابه عليه ، وهو مارى جاطه ، أو مارى دياتا ومعناه الأمير الأسد أو أسد مالى .

ويعتبر مارى جاطة البطل القومى لبلاده ، وهو أعظم سلاطين مالى على الإطلاق ، فقد وسع حدود مالى ، وغزا بلاد الصوصو وأخضعهم تماما ، ثم خرب ما بقى من مدينة غانة القديمة ، وقسم دولته إلى اثنى عشر قسما إداريا ، وولى على كل منها رجلا من كبار قواده . وكان عظيم الاهتمام بإدخال كل رعاياه فى الإسلام ، وينسب إليه إدخال زراعة القطن فى مالى . وفى أيامه ازداد رخاء مالى وتكاثر سكانها وعمهم كلهم الإسلام ، ومازال يعمل حتى دخل فرع الونجارا كله – من أكبر فروع الماندنجى – فى الإسلام .

وفى أيامه ثبتت عاصمة مملكة مالى فى نيانى ، وقد اهتم بها وعمرها حتى أصبحت من أكبر المدن الأفريقية ، ومن اسم نيانى اشتق اسم مالى الذى أطلق على المملكة كلها ، وحل محل اسم مملكة الماندنجى التى ضمت أراضى مملكة غانة السابقة ، مضافا إليها بلاد الماندنجى بكل فروعهم ، فامتدت هذه المملكة حتى شملت حوض نهر غمبيا أيضا ، وشملت كذلك بلاد التكرور فى حوض السنغال ، وبلاد الجلف (يسمون فى الكتب الأوربية الولف) ، فأصبحت بذلك أكبر مملكة ظهرت فى أفريقية المدارية فى العصور الوسطى ، إذ شملت كل غربى أفريقية المدارية من المحيط الأطلسى ومعظم حوض النيجر الأعلى والأوسط حتى الحدود الشمالية للغابة . وقد قدرت مساحة مملكة مالى الإسلامية أيام مارى جاطة بمساحة أوربا كلها .

وقد عرفت دولة مالى أيام جاطة باسم مالى الجنوبية ، أما مالى الشمالية فهى مالى التى غزاها الصوصو وخربوها وحكموها ، حتى طردهم منها مارى جاطة كما ذكرنا . وقد توفى سنة (١٢٥٥) .

وخلف مارى جاطة ابنه منسا على ، فسار على طريقة أبيه فى سياسة الدولة والاهتمام بنشر الإسلام فيها ، ثم تعاقب الملوك من أسرة كايتا على مالى ، حتى نصل إلى عصر السلطان كنكن موسى (٧١٢ - ٧٣٨ / ١٣١٢ - ١٣٣٧) الذى بلغت الدولة أوجها فى أيامه قوة وثروة وحضارة ، وقد اشتهر أمر ذلك الرجل فى عالم الإسلام بسبب علاقاته التى ربطها مع ملوك الإسلام المعاصرين له ، وتتحدث كتب التاريخ عن حجته المشهورة سنة (٧٢٤ / ١٣٢٤) ، وقد مر فيها ببلاد الإسلام من مالى إلى القاهرة عن طريق بلاد البرنو والكانم ثم وادای . ولقى السلطان محمد بن قلاوون وأهدى إليه وإلى رجال السلطنة من هدايا الذهب ما بهر عيون الناس فى مصر والشام ، وأعطى الناس فكرة مبالغا فيها عن ثراء هذه المملكة السودانية المسلمة وثروتها . وقد ترجم له ابن حجر العسقلانى فى الدرر الكامنة (٤ / ٣٨٣) وسماه موسى بن أبي بكر سالم التكرورى ملك التكرور . وفى الحجاز أفاض الهدايا والصدقات على الناس .

وقد زادت هذه الحجة التاريخية من هيبة السلطان كنكن موسى أو منسا

موسى ، فتمكن بعد عودته إلى بلاده سنة (٧٢٥ / ١٣٢٥) من ضم تنكيت إلى بلاده ، ثم أعاد غزو مملكة صنغى فى حوض النيجر ، وثبت دعائم الإسلام فيها . ولم يثبت لقوات منسا موسى إلا أهل دولة جنى فى حوض النيجر الأوسط وذلك بسبب حصانتها لإحاطة المستنقعات بها من كل ناحية .

وخلف كنكن موسى ابنه مغان الأول (٧٣٨ - ٧٤١ هـ) - وسنتحدث عنه بعد قليل - ثم خلفه أخوه منسا سليمان ، وكان على شاكلته فى الحماس للإسلام (٧٤١ - ٧٥٧ / ١٣٤١ - ١٣٥٦) فأكثر من بناء المساجد ، واستقدام العلماء والإغداق عليهم ، فكثرت حلقات العلم فى المساجد ، وأنشئت الكتاتيب فى القرى والمحلات لتعليم اللغة العربية ، ثم حج سنة (١٣٥٦) . وفى أيامه زار ابن بطوطة سلطنة مالى فى عصر أبى عنان فارس المتوكل ، سلطان بنى مرين (٧٤٩ - ٧٥٩ / ١٣٤٨ - ١٣٥٨) ، وقد دخل ابن بطوطة مالى فى جمادى الأولى (٧٥٣ / يوليو ١٣٥٢) ، وغادرها فى (المحرم ٧٥٤/فبراير ١٣٥٤) ، وهو يصور مالى دولة إسلامية زاهرة .

وبعد منسا سليمان أخذ أمر مالى فى التدهور ، بسبب سوء الحكم وفساد التدبير ، وهجمات أعدائها عليها ، وأهمهم هنا رجال دولة صنغى ثم الفولانيون والتكاررة وأخيرا البرتغاليون .

وكان ملوك صنغى من ألد أعداء مالى ، فمازالوا يهاجمونها حتى اضطر سلطان مالى إلى الاستغاثة بالأتراك العثمانيين سنة (١٤٨١) ، وكانوا قد ثبتوا أقدامهم فى طرابلس وأفريقية والجزائر ، ولكنهم لم يسعفوه ، ثم استعان بالبرتغاليين سنة (١٤٨١) ، فلم يكن حظه معهم بأحسن ، ولكنه فتح أبواب بلاده للبرتغاليين ، فعرفوا طرقها وأحوالها ، مما كان له أثر سيىء بعد ذلك فى تيسير مهمة الاستعمار .

وعلى أى حال فقد ضعف أمر مالى ضعفا شديدا ، ابتداء من القرن السادس عشر ، تحت ضربات صنغى التى حلت محلها فى الرياسة السياسية فى غرب أفريقية المدارية .

دولة صنغى أو صنغاى

الصنغى (صنغاى) قبيلة من أهل السودان الغربى يسكنون من قديم الزمان على ضفاف النيجر الأوسط ، ومدينتهم الكبرى جاو التى ستصبح عاصمة دولتهم ، وتمتد بلادهم حتى تشمل المساحة الواسعة فى انحناء النيجر الأكبر .

وتجاورهم من الشمال جماعات من الطوارق ، وهم خليط من سكان الصحراء القدامى والبربر وبقايا المرابطين ، وهم – أى الطوارق – يسيطرون على طرق الصحراء الكبرى التجارية وواحاتها ، وهم ليسوا لصوص صحراء أو قطاع طرق كما يصفهم الفرنسيون ، بل هم شعب أفريقى قائم بذاته له خصائصه من الشهامة والشجاعة وعزة النفس ، حتى لُقّبوا بأمراء الصحراء ، وقد اندرجت فيهم جماعات من بقايا المرابطين بعد هزيمتهم أمام الموحدين ، مفضلين العيش أحرارا فى شظف الصحراء على الحياة الآمنة تحت سلطان الدول الكبرى وخاصة الموحدين .

وتجاور الصنغى من الغرب والجنوب جماعات شتى من أهل السودان أهمها الماندنجى أصحاب غانة ، وقد تحدثنا عنهم ، والجورمان والموسى الذين يسميهم مؤرخو العرب الموشى ، الذين يسكنون إقليمى ياتينجا وجورمان والكعارته والمسينا ، وتمتد بلاد صنغى شرقا حتى تتصل بالبرنو والكانم فى إقليم تشاد .

كان الصنغى فى أول أمرهم جماعة متماسكة من قبائل نهر النيجر التى لاتدخل فى جماعة الماندنجى الكبيرة ، وظلت أعدادهم تتزايد حتى سيطروا على المساحة التى ذكرناها .

ومن فروع الصنغى نذكر السوركو ، وكانوا يعملون فى صيد السمك فى نهر النيجر ، وربما يكون أصلهم من مهاجرة العرب ، وهناك أسطورة شعبية تؤيد هذا القول ، فتزعم أن مهاجرَين بربريين وصلا إلى حوض النيجر الأوسط عبر الصحراء ، وكانا ذوى علم وتجربة ؛ فتمكنا من كسب ثقة الصنغى ؛ فبايعهما هؤلاء ملكين عليهم ، وجاء من بعدهما أولادهما الكثيرون .

ومن ملوك صنغى من السوركو هؤلاء أسرة ديا التى حكمت صنغى من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر الميلاديين ، ومن أشهر ملوكهم الملك كوغا أو كوكية الذى يذكره ابن حوقل .

وهؤلاء السوركو هم الذين أسسو مدينة جاو ومدينة بومبا ، وانتشروا حتى فى بلدة جنى ، وهى مركز منافسيهم جماعات البورو ، وكانوا صيادى سمك أيضا .

وكان الملوك من أسرة ديا ، يحرضون الصنغيين من أهل المدن والاستقرار على دفع السوركو إلى الشمال تخلصا من منافستهم لهم .

ثم قام الملك صِنيا الخامس عشر باتخاذ جاو عاصمة له فى قلب بلاد السوركو . وهذا الملك هو الذى تحول إلى الإسلام وتبعه فى ذلك الصنغيون والسوركو . وكان استيلاء الملك صنيا على جاو عظيم الأهمية ؛ لأن الطرق الصحراوية التى تؤدى إلى فَزّان وطرابلس ومصر تشرع من عندها ، ولازالت إلى يومنا هذا المحطة الأخيرة لطريق السيارات من مدينة الجزائر إلى نيجيريا ..

وقد دخل الإسلام بلاد صنغى من زمن بعيد من ناحية الطريق الصحراوى الأوسط ، ولانستطيع تحديد تاريخ وصوله بلاد هذا القبيل القوى من أهل السودان ، ولكنهم يظهرون على مسرح التاريخ فى القرن الحادى عشر الميلادى . وعلى رأسهم ملوكهم المسلمون الذين جاءوا بعد الملك صنيا .

وقد تعرضت بلاد صنغى للغزو من قبل دولة مالى أيام توسعها ، فقام على بن مارى جاطة الأول بغزو بلادها ، ثم غزاها سيكرة الذى اغتصب عرش مالى من أحفاد مارى جاطة ردحا من الزمان ، وتمكن من الاستيلاء على جاو عاصمة صنغى ، ولكن سلطان مالى على صنغى لم يدم طويلا ، فلم يلبث هذا السلطان أن تراخى . فلما عاد السلطان منسا كنكن موسى من حجه سنة (١٣١٥) ميلادية أمر قائده سجمان الذى يسميه ابن خلدون سقمنجه فغزا صنغى واحتل عاصمتها جاو ، ثم زارها كنكن موسى وابتنى فيها جامعا ، وترك فيها حامية ، وأخذ عددا من رؤسائها وأبناء أمرائها رهائن وفرض عليهم الجزية . ثم دخل كنكن موسى مدينة تنبكت ، وكانت خاضعة لصنغى ، وقد رحب به أهلها ؛ لأنهم كانوا يئنون من سلطان صنغى عليهم ، ونهبهم أموالهم ، وكان ذلك سنة (٧١٨ - ٧١٩ / ١٣١٨ - ١٣١٩) وفيها بنى دارا للمملكة أو للحكم وجعلها مستقر حكمه .

وبعد عودة كنكن موسى إلى مالى قامت قبائل الموسى أو الموشى الوثنية بغزو تنبكت حوالى سنة (٧٣٠ / ١٣٣٠) ، ونهبتها وخربتها ، ثم عادت تنبكت بعد

ذلك إلى سلطان مالى ، وظلت خاضعة لها مدة قرن من الزمان ، حتى عاد صنغى إلى الاستيلاء عليها بعد أن قوى شأنها .

وفى عهد مغان الأول بن منسا كنكن موسى (٧٣٨ - ٧٤١ / ١٣٣٧ - ١٣٤١) هرب رهائن صنغى ، وعادوا إلى بلادهم ، وكانوا نفرا من خيرة رؤساء قبائل الصنغى وأمرائهم ، وكان منسا كنكن موسى يعرف أن وجودهم عنده هو أكبر ضمان لطاعة أهل صنغى ، ولهذا كان يشدد الحراسة والرقابة عليهم ، فلما جاء ابنه مغان أهمل هذه الحراسة ، فتمكن الرهائن من تدبير أمر هربهم والعودة إلى بلادهم ، وكان فيهم أميران من أمراء صنغى هما على كولن وأخوه سليمان نار ، فجمعا قومهما وتمكنا من التغلب على حامية الماندنجى فى جاو ثم مضيا قدما فى استخلاص بلاد الصنغى من حكم مالى ، وتصدى لهم منسا سليمان الذى خلف منسا مغان الأول بنجاح واسترجع الكثير من بلاد صنغى ، ولكنه عجز عن استرجاع جاو عاصمتها .

وتولى على كولن العرش فى جاو سنة (١٣٥٥ م) واستقلت صنغى عن مالى بعد أن ظلت خاضعة لها نحو نصف قرن ، ثم أخذت فى التوسع فى أراضى مالى منتهزة فرصة ضعفها ، وتألب أعدائها عليها ، وخاصة قبائل الموشى أو الموشى ، وكانت على الوثنية ، وبلادها تقع جنوب بلاد مالى ، وكانت لاتكف عن العدوان على بلاد الإسلام فى مالى وغيرها ، فغزا رجالها منطقة بحيرة دبو المتصلة بالنيجر . وعندما قامت دولة صنغى الإسلامية أخذ رجال الموشى يهاجمونها وينهبون بلادها .

أخذ على كولن لقب سُن أو شُن ، ومعناه خليفة السلطان ، أو نائبه ، وهو مؤسس أسرة سن ، وهى ثانية الدول التى قامت فى بلاد صنغى . والأولى هى دولة الأرواء التى قضت عليها مالى .

ظلت حدود دولة صنغى مقتصرة على العاصمة جاو وما حولها أيام سن الأول على كولن وأخيه وخليفته سن سليمان نار ، ولكن خلفاءها تابعوا سياسة غزو أراضى مالى ، ففى عهد سن محمد داع ، وهو العاشر فى سلسلة ملوك أسرة سن، ضرب الصنغيون عاصمة مالى ، وأسروا الكثير من أهلها ، ثم استولى سن سليمان دام ، وهو السابع عشر من ملوك صنغى ، على بلاد « ميم » التى تسمى أيضا باسم

ميما ، ويعرف هذا الملك أيضا باسم « شى دام » وكانت ميم من بلاد مالى وخربها - وقد وصفه القاضى محمود كعت صاحب كتاب « الفتاش » بالفسق والفجور .

تولى العرش بعد سليمان دام أكبر ملوك أسرة سن ، وهو سن على ، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لملك صنغى الواسع ، تولى (٨٧٣ / ١٤٦٨) وتوفى سنة (٨٩٨ / ١٤٩٢) ، وكان رجلا جريئا واسع النشاط قليل التقيد بأشراط الإسلام ، لأن رجال الدين كانوا يعترضون عليه كثيرا فأبغضهم وكثر إيذاؤه إياهم ، وعدوانه على المساجد والزوايا التى كانوا يقرءون فيها ؛ ولهذا حمل عليه السعدى ، صاحب الفتاش واتهمه بالظلم والفجور ، وكانت أم سن على من قبائل الماندنجى أصحاب مالى .

ومع ذلك فقد كان سن على الثامن عشر من ملوك أسرة سُن أعظم فاتح مسلم ظهر فى بلاد السودان الغربى ، فسُمِّى بعلى بر أو على الكبير أو الشّن فقط ، وقد أنشأ خلال سنوات حكمه السبع والعشرين دولة تعدل مساحتها مساحة دولتى إيران والعراق معا تمتد من سيجو على نهر النيجر إلى مايعرف اليوم باسم داهومى ، فطار صيته حتى وصل أوربا ، وأرسل اليه الملك جواو (يوحنا) الثانى ملك البرتغال سفارة تخطب وده .

وفى سنة (١٤٦٨) غزا سن على تنبكت ، وكان الطوارق يحتلونها منذ سنة (١٤٣٥ م) ، وكانت مركزا تجاريا كبيرا حافلا بالمتاجر والمساجد وأهل العلم والدين ، فطرد منها الطوارق ، وجعلها العاصمة الثانية لبلاده ، ثم وقع الخلاف بينه وبين العلماء ، فاضطهدهم وأودع الكثيرين منهم فى السجن ، ثم أحرق البلد .

ثم استولى على جنى ، وهى ثالث بلدة على نهر النيجر فى تلك العصور بعد جاو وتنبكت ، وكان يحكمها رؤساء من السوننكة المسلمين ، فجعلوها إمارة صغيرة غنية ، لأن تجارة الذهب تحولت من غانة إليها ، وكانت شهيرة بعلمائها ومساجدها ، ويقول السعدى : إن سن على لم يستطع الاستيلاء عليها إلا بعد حصار دام سبع سنوات وسبعة أشهر وسبعة أيام ، ثم دخلها بحد السيف ، ولكنه لم يفعل بها ما فعله فى تنبكت ، وإنما اكتفى بالاستيثاق من طاعتها وعاد إلى جاو .

ثم نهض مرة أخرى وهاجم بلاد المجموعات الوثنية الكبرى الباقية فى جنوب حوض النيجر ، مثل البورجو ، واستولى على عاصمتهم مدينتى ، وأطال الإقامة فيها قبل أن يهاجم قبائل الموشى ثم قبائل الدوجون فى عقر دارهم - وكانت بلادهم جبال الباندياجارا - دون أن يستطيع التغلب عليهم ، فانصرف عنهم وعاد إلى محاربة الطوارق . ويذهب بعض الباحثين الفرنسيين إلى أن إصراره على محاربة الطوارق كان ناشئا عن كراهته للإسلام ، والحق أن الرجل لم يكن عدوا للإسلام وإنما كان مبغضا للفقهاء وعلماء القرى ، الذين حرصوا دائما على اتهامه بالفسوق والخروج على الدين .

ثم هاجم بلاد الفولا أو الفولانيين ، وأصلهم من بربر الصحراء جنوبى بلاد السوس ، وكانوا قبيلا قويا نشيطا ، واشتهروا كذلك بجمال نسائهم وذكائهن ، فكانت الواحدة منهن إذا تزوجت أميرا أو كبيرا سودانيا ، لم تلبث أن سيطرت عليه وعلى قصره ، أما رجالهم فلم يلبثوا بفضل علمهم أن تمكنوا من الاستيلاء على الوظائف الكبرى فى دولة صنغى ، فأثار ذلك مخاوف سن على فطردهم من الوظائف وحمل عليهم ، ثم قام بمهاجمة أراضى الفولا فى جورما ثلاث مرات سنة (١٤٦٥) وسنة (١٤٧٠) وسنة (١٤٨٨) فاشتد الدعاء عليه فى هذه البلاد الإسلامية .

وكأنما استجاب الله لدعاء الناس ، فلما قام مرة رابعة بغزو بلاد الفولا فى سنة (١٤٩٢) ، غرق وهو يحاول عبور نهر فى أثناء علو تياره ، وخلفه ابن له مرتد عن الإسلام ، فعزله الصنغيون وولوا على أنفسهم قائد جيشه محمد بن أبى بكر الطورى سنة (١٤٩٣) ، وأنشأ أسرة مالكة جديدة هى أسرة أسكيا أو أسكى أو الأساكى .

أسرة أسكيا :

ويقول السعدى فى أصل هذا الاسم : إن بنات سن على صحن:« أسكيا » و معناه : لايكون إياه ، أى عسى ألا يكون هذا هو غاصب عرشنا ، فلزمت هذه الصيحة آل الطورى وأصبحت اسماليبتهم . والطورى هو الذى تحرف إلى تورى فى استعمالنا اليوم،وأولى بنا إذا قلنا : سيكوتورى أن نقول : الشيخ الطورى .

احتفظت صنغى بازدهارها فى عصر الأساكى خاصة ، وقد كان السلاطين من هذا البيت متمسكين بالإسلام ؛ مما زاد تعلق الناس بهم ، وقد حكم أبو بكر محمد الطورى أو الأساكى من (١٤٩٣ إلى ١٥٢٨) م ، وقد نظم بلاده تنظيما حسنا ، فقسم دولته إلى ولايات ولى على كل منها عاملا من المخلصين له من أهل البلاد المسلمين ، واتخذ تنبكت عاصمة له ، واستقدم إليها العلماء والفقهاء وأكرمهم وأكثر من بناء المساجد والزوايا ، وأفاض المال على الفقهاء والعلماء الذين كانوا يقرءون العلم على الناس فى هذه المساجد والزوايا .

وفى سنة (١٤٩٧) ، قام أسكيا محمد بن أبى بكر الطورى بالحج إلى البيت الحرام ، واصطحب معه ٥٠٠ فارس و ١٠٠٠ جندى وحمل معه ... ٣٠.. مثقال من الذهب ، وقد استقبله شريف مكة من أسرة الحسنيين استقبالا حفيا ومنحه لقب خليفة .

وعاد محمد الطورى إلى بلاده وقد ازداد حماسه للإسلام ، فشدد الحملة على قبائل الموشى فى ياتنجا ، وأدخل الكثيرين منهم فى الإسلام .

وعلى الرغم من قضاء صنغى على ملك مالى ، فإن سياسة الصنغيين فى ترك حكم الأقاليم فى يد أهل الطاعة لهم من سكان البلاد ، أتاح الفرصة لحكام مالى الماندنجيين للاحتفاظ بجانب كبير من استقلالهم ، بل إن كبيرهم فى مالى ظل يحتفظ بلقب منسا . فلما شدد أسكيا محمد بن أبى بكر الطورى قبضته على بلاد مالى ، استغاث آل منسا الماليون بالأتراك العثمانيين سنة (١٤٨١) م ، و كانوا قد ثبتوا أقدامهم فى الجزائر . ولكن استغاثتهم لم تثمر شيئا .

ويذهب المؤرخون البرتغاليون إلى أن محمد الأول منسا ملك مالى اتجه إلى البرتغاليين ، طالبا معاونتهم على سلطان صنغى ، وأن هؤلاء أسرعوا بالاستجابة خوفا من مجىء الأتراك العثمانيين إلى أفريقية الغربية ، فأرسل ملك البرتغال سفارتين جاستا خلال البلاد ، وتعرفتا على أحوالها ورسم رجالها الخرائط والصور ، مما كان له أثر سيىء بعد ذلك على بلاد السودان الغربى عندما شرع البرتغاليون فى اتخاذ المراكز والقلاع الحصينة المعروفة باسم الباسيتون ، على سواحل المغرب وأفريقية . ولم يقدم البرتغاليون لمنسا محمد أى مساعدة .

وقد حاول أسكيا محمد الطورى الامتداد نحو الشرق ، ولكن الحوسى تصدوا له فلم يستول إلا على ثلاث من دويلاتهم ، وكانت بلاد الحوسى مكونة من ولايات صغيرة متحالفة يجاور بعضها بعضا ، ثم اتجه إلى الشمال ووقع بينه وبين حكام الأطراف لدولة السعديين سلاطين المغرب الأقصى فى ذلك الحين وقائع كثيرة ، استولى فيها على مناجم الملح الشهيرة فى جنوبى دولة السعديين ، ولكن أسكيا داود (١٥٤٩ — ١٥٨٢) تنازل عنها لسلطان السعديين فى مقابل مبلغ سنوى قدره (١٠ ٠٠٠) مثقال من الذهب .

وبعد موت أسكيا محمد الطورى ، اختلف أبناؤه على خلافته ، وكانوا فيما يقال نحو المائة . ولكن الأمر عاد فانتظم واستقام سلطان الصنغى فى ملكهم الواسع ، وعمرت تنبكت وأزهرت ، حتى بلغ صيتها بالغنى والأمن ووفرة الذهب بلاد أوربا وتوافد العلماء عليها ، وانتشر التعليم بين أهلها حتى أصبحت الكتب العربية أعظم المتاجر وأوفرها هناك . فى هذه الفترة (أواخر القرن السادس عشر الميلادى) زار تنبكت الرحالة المغربى الحسن الوزان ، الذى ارتد عن الإسلام وتنصر وتسمى باسم ليو الأفريقى إلا أنه عاد إلى المغرب وإلى الإسلام فى أواخر أيامه وزار أيضا بعض بلاد صنغى الأخرى ، ويقال : إن مرابح تجارة الكتب فاقت مرابح تجارة الذهب والملح ، وأضاف أن المصاحف والكتب الدينية العربية ، كانت موضع فخر الناس ، وأن ثروة الرجل ومكانته تقدران بعدد الكتب فى خزائنه وعدد الخيل فى مرابطه .

وعندما كانت بلاد صنغى فى هذا الازدهار ، جاء الغزو المغربى الذى سنتحدث عنه ، فكان ضربة قاصمة ونهائية لدولة صنغى ، فعندما تمكن القائد المغربى جودر باشا من هزيمة جيش صنغى سنة (٩٩٩ / ١٥٩٠) ، ودخلت قواته تنبكت ، قام على صنغى كل أعدائها القدامى : الماليون الماندينجى بزعامة محمد الثالث سلطان مالى ، وخلع سلطان صنغى ، وكذلك قام حمد آمنه سلطان الفولا فى حوض السنغال وأعلن استقلاله عنهم .

انتهى أمر دولة صنغى بهذا الغزو المغربى ، وعادت مالى إلى الظهور وحاول ملوكها الاستعانة ببعض الحكام المحليين ، ولكنهم لم يستطيعوا شيئا ، وحاولوا التعرض للحاكم المغربى فلم يوفقوا إلى شىء .

وعقب ذلك اختفت دولة مالى هى الأخرى،فكأن الغزو المغربى كان نهاية لمجد الدول الإسلامية السودانية الذى وصفناه ، بالضبط كما كان غزو نادر شاه الأفشارى شاه فارس الهند وتخريبه لدلهى نقطة البداية لانحلال سلطان المسلمين فى الهند ، وقد وقع الحادثان المؤسفان فى الوقت نفسه وهو عصر آخر الدول الإسلامية الكبرى التى سادت عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، وهى على الترتيب من الشرق إلى الغرب : سلطنة مغول الهند ، ثم دولة الصفويين ، ثم الأفشاريين فى إيران ، ثم دولة سلاطين مماليك مصر والشام فى الشام ومصر ، ثم دولة سلاطين آل عثمان فى الأناضول والروملى والعراق ومصر والشام والحجاز والمغرب إلى حدود المغرب الأقصى ، عند مجرى المولوية ، ثم دولة سلاطين السعديين فى المغرب الأقصى ، ثم دولتا مالى وصنغى فى بلاد السودان الغربى .

وقد أكلت هذه الدول الإسلامية الكبرى بعضها بعضا بينما كان الأعداء الغربيون يتحفزون على الأبواب : أكل الأفشاريون دولة سلاطين الهند ، وأكل سلاطين آل عثمان سلاطين مصر والشام ، وأكل السعديون دولتى أفريقية الغربيتين الإسلاميتين ؛ فأدوا بذلك أكبر خدمة لقوات أوربا الناهضة لتأكلهم جميعا ، من بحار الهند إلى ساحل الأطلسى بما فى ذلك البحر المتوسط ، وسبحان من جعل بأس المسلمين بعضهم فى بعض شديدا .

غزو سلاطين المغرب لبلاد السودان الغربى

فى ذلك الوقت كان عرش مراكش عاصمة سلاطين السعديين أصحاب المغرب الأقصى ، قد آل إلى أحمد المنصور الملقب بالذهبى (١٥٧٨ ــ ١٦٠٣) فى ظروف مواتية لزيادة قوة البيت السعدى ، فقد كسب أخوه وسلفه عبدالملك فى الرابع من أغسطس (١٥٧٨) نصرا مؤزرا على البرتغاليين فى موقعة وادى المخازن ، المعروفة أيضا بمعركة الملوك الثلاثة ، وكانت نتيجة هذا النصر خروج البرتغاليين نهائيا من بلاد المغرب وانقطاع أطماعهم الاستعمارية فيها ، ونتج عن ذلك النصر أن البيت السعدى قفز إلى مراتب البيوت الحاكمة الكبرى ، فى عالم النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى ، فتوافدت السفارات الأوربية على

بلاط فاس ، وأصبحت هذه عاصمة امبراطورية كبرى تمتد من تلمسان إلى طنجة ، ومن طنجة إلى أقصى السوس جنوبا عند وادى درعة . وقد تمكن أحمد السعدى ، الذى اتخذ لقب المنصور ، من إقامة دولة قوية منظمة أقرت الأمن وأشاعت الرخاء فى الوطن المغربى كله .

وقد اتخذ أحمد المنصور الأتراك العثمانيين مثلا يحتذيه ، فاتبع النظام التركى فى ترتيب قصره وشئون دولته ، واتخذ منهم مدربين لجيشه ، ونظم هذا الجيش على أسس عثمانية ، واتخذ لقب باشا لعمال النواحى ، وكانت فى جيشه أعداد كبيرة من الأسبان الذين دخلوا فى الإسلام ، ومنهم الكثيرون كان آباؤهم قد تنصروا بالقوة فى أسبانيا ، فعادوا إلى الإسلام ، ودخلوا فى خدمة ذلك السلطان المسلم ، وكان فى الجيش كذلك أعداد كبيرة من السودان والقبليين والمتسللين من الجند العثمانى . وكان عدد رجال ذلك الجيش عظيما ، ونفقته ثقيلة . ففكر السلطان أحمد المنصور فى فتح بلاد السودان للفوز بذهبها الكثير الذى طبقت شهرته الآفاق فى تلك العصور ، واختار لقيادة حملة الفتح واحدا من الأندلسيين ، وكانت تلك فكرة غير موفقة من ذلك السلطان الطموح ، لأن بلد السودان كانت تقوم فيه دولة صنغى المسلمة ، وكان سلاطينها من آل سن ، أو شُن ، رجالا أقوياء يعيشون فى صراع دائم مع الوثنيين ؛ لأنهم كانوا يعملون على توسيع رقعة الإسلام من حولهم ، ثم إن المغرب الأقصى كان يجنى خير الثمرات من تجارته النشيطة مع بلد السودان ، وكان علماء المغرب هم حملة الثقافة والعلم فى تلك البلاد الواسعة . وكان ينبغى أن يفكر المنصور فى أن حملة كهذه تعبر الصحراء وتقطع ألوف الكيلومترات فى الفيافى والقفار كان لابد أن تكلف صاحبها مالا طائلا ، ولاتعود عليه بعد ذلك بما يعادل هذه النفقات .

وسارت الحملة فى فوضى شاملة سنة (١٥٨١) وهلك فى رمال الصحراء من رجالها مئات كثيرة ، وكان هدفها مناجم الملح فى تغازه ، وكانت مصدرا كبيرا من مصادر الإيراد لسلطان صنغى . فبدأت الحملة بالاستيلاء على واحات جرارة وتوات فى جنوبى الجزائر الحالية ، وعندما رأى ملك البرنو (وسنتكلم عنهم بعد قليل) أن جيوش سلطان المغرب قد اقتربت من حدوده ، أعلن الطاعة له ودعا له على منابره .

وبعد خمسة أشهر من رحلة مهلكة في الصحراء وصلت الحملة إلى بلاد صنغى وأوقعت هزيمة كبيرة بهم فى موقعة قونديبى على بعد (٥٠) كيلو مترا شمالى جاو فى (١٢ أبريل ١٥٩١) ، ثم دخل الجيش جاو فوجدوها خاوية على عروشها قد غادرها أهلها ، فاستقر جودر باشا برجاله فى تنبكت .

وشعر رجال الحملة بخيبة أمل كبرى عندما علموا أن مناجم الذهب مازالت بعيدة جدا عنهم ، وأنهم لابد أن يسيروا قدر ماساروا فى بلاد صحراوية أيضا حتى يدخلوا فى الغابة ويصلوا إلى سفوح جبال الفوتاجالون .

وشك السلطان أحمد المنصور فى صدق جودر باشا ، فعزله وأرسل مكانه قائدا مغربيا يسمى محمود زرجون ، فوصل إلى تنبكت وأخذ الرياسة من جودر ، وانتقل هذا الأخير إلى جاو .

وتفرق أمر صنغى ، وانتقل بعض زعمائها إلى دندى تاركين بلادهم نهبا للطوارق والبامبارا والفولا .

أما القائد محمود زرجون فلم يوفق فى إرسال مقادير الذهب التى كان السلطان يطالبه بها . فعزله وتولى مكانه القائد منصور ، وأمره السلطان بأن يقبض على القائد محمود زرجون ويقتله ، وأن يضع القاضى فى الحديد ويرسله إلى المغرب مع نفر كبير من فقهاء تنبكت ؛ لأنه اتهمهم بخيانته . وكان من بين من وقع عليهم هذا العقاب المؤرخ أحمد بابا التنبكتى الذى حمل إلى مراكش وظل فى سجن السلطان حتى عفا عنه خليفة المنصور فعاد إلى بلاده سنة (١٦٠٧) .

وأما القائد جودر فانتظر حتى هدأت الأحوال ، ثم عاد إلى مراكش محملا بالأموال ، وأما بقية جنده فقد بقوا فى البلاد وتزوجوا من أهلها واشتركوا معهم فى الدفاع عن البلاد ضد هجمات الطوارق والبمبارة أصحاب سيجو ، والماندنجى أصحاب مالى القديمة ، وفى النهاية قوى أمرهم فى دندى وأصبحوا من أهلها ، فلم ينشئوا دولة ، وإنما اشتغلوا بالتجارة مع بلاد المغرب . فقامت هذه التجارة وانتعشت على أيديهم .

ويئس سلاطين المغرب من بلد السودان ، فلما توفى آخر الباشوات الذين أقاموهم على تنبكت سنة (١٦٢٠) ، لم يبعث السلطان له خلفا . وانفرد الجند

المغربى الأندلسى بالأمر ، وساروا فى الحكم بطريقة سيئة ، وكانت تلك هى الطريقة الوحيدة التى يعرفها ذلك الجند المرتزق . يستوى فى ذلك القادة منهم والجند ، فكانوا جميعا نهابين للأموال لايعمر قلوبهم ولاء لدولة أو إحساس خلقى . ولقد حاول القائد محمود زرجون إعادة تنظيم الدولة الصنغية ، ولكنه لم يستطع ، لأن ميزانه الأخلاقى كان خاليا من أفكار العدل والتنظيم،فكان همه العدوان على سراة الناس وكبار التجار وسادة الناس ، إما للحصول على أموال الناس ، أو خوفا من قوتهم السياسية . فلما مضى لسبيله أصبح اختيار باشا تنبكت أى قائد حاميتها متروكا للجند . فأقاموا فى المدة من (١٦٢٠ إلى ١٦٦٠) واحدا وعشرين باشا وعزلوهم . وفى المدة من (١٦٦٠ - ١٧٥٠) أقاموا وعزلوا (١٢٨) باشا آخرين حتى لقد اقتصرت ولاية بعضهم على ساعات لقوا بعدها حتفهم على أيدى منافسيهم . وكان الضباط منهم يصاهرون كبار السودانيين فى حين تزوج الجنود دون تحفظ . ونشأت عن هذه المصاهرات طبقة جديدة مغربية أندلسية سودانية ، أطلق عليها اسم أرما أو الأرما ، وهو تحريف للفظ الرماة العربى ، لأن أولئك الجنود اشتهروا من أول الأمر بإجادة الرمى بالبندق . ولم تكن البنادق إذ ذاك ترمى الرصاص ، وإنما كانت ترمى قطعا من الرصاص أو الحديد فى حجم البندق . وكان القوس نفسه يصنع من الحديد الصلب الرقيق اللدن ، أما سية القوس فكانت تصنع من حبال قوية من الكتان . وكانت تلك الأقواس توضع على آلة من حجر فيها قناةمحفورة بحجم البندقة ، ويجذب الرامى القوس بيده والسهم فى سيته ورأسه مصوبة نحو البندقة فى مجراها بعد أن يصوب المجرى نحو الهدف ، ثم يطلق القوس فيندفع السهم فى قوة هائلة ويقذف بالبندقة أو بصف من البندقات يرمى فى المجرى فيصيب العدو ، وكان هذا القوس يسمى بقوس الحديد أو قوس الرجل ، لأن الرامى كان يجذب القوس برجله لتكون قوة اندفاعه بعد ذلك أشد . وتلك كانت بنادق القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فلما اكتشف البارود حولت قناة البندق إلى اسطوانة طويلة قطرها قطر البندقة ، وجعل السهم يمر فى القناة ، ثم تحشى القناة من أمام بالبارود ، ويوضع داخل قناة البندق زناد إذا ضربه رأس السهم اشتعل فأشعل البارود فاندفع وقذف بندق الحديد بقوة شديدة ، وهذه هى بدايات البنادق التى نعرفها اليوم ، وقد ظهرت فى القرن السادس عشر ، وعرفها المسلمون واستعملوها .

وقد أصبحت طبقة الأرما السودانية المغربية هى الطبقة الأرستقراطية فى البلاد ، منهم النبلاء وأبناء القادة والنبيلات بنات علية القوم ، وفيهم الأوساط من سلالة الضباط وبنات الأسر . ومنهم العامة من أبناء الجند . ومن الغريب أن معظم هؤلاء الأخيرين اشتغلوا بالحرف وخاصة صناعة السابطات وهى الأحذية واشتهروا بذلك .

والكسب الوحيد الذى حققه السلطان أحمد المنصور الذهبى هو مقادير ضخمة من تبر الذهب أرسلها إليه قادة الحملات الأولى ويقول اليفرانى فى « نزهة الحادى » إن وفرة الذهب الذى وصل إلى المنصور جعلته يدفع رواتب جنده ونفقات جيشه وقصوره بالذهب الصامت . وكان فى دار سكته فى فاس (١٤٠٠) طابع،أى مطرقة لرسم السكة تعمل كل يوم ، ومن هنا لقب هذا السلطان بالذهبى ، ويحكى التاجر الإنجليزى لورنس مادوك الذى أقام ردحا من الزمن وكيلا تجاريا فى مراكش – أنه رأى مرة ثلاثين بغلا محملة بأجوال تبر الذهب الواردة على المنصور ، كل ذلك مع أن المغاربة لم يصلوا قط إلى مناجم الذهب عند سفوح الفوتاجالون جنوبى نهر السنغال ، وإنما جاءهم الذهب مما صادروه من سراة تنبكت وجاو ، وكان التبر عندهم فى خزائن مترعة ، ثم إنهم سيطروا على مناجم الملح فى تغازه ، وكان عامل السلطان هناك يتولى بنفسه عمليات مقايضة الذهب بالملح وزنا بوزن ، فيما يقال ، وهو مستبعد ، ثم إن المنصور جنى ذهبا كثيرا من فدية ألوف البرتغاليين الذين وقعوا فى الأسر فى معركة وادى المخازن .

والذى يهمنا هنا هو أن الغزوة المغربية كانت إيذانا بنهاية العصر الذهبى لدول السودان الغربى الإسلامية ، فقد قضى الجند المرتزق الذى ذكرناه فى عنف وقسوة على تلك الطبقات الممتازة ، من الماندنجيين ، والغانيين ، والصنغيين ، التى قامت ببعث هذه الدول ، ثم إن تخريب تنبكت وجاو مرة بعد مرة ومصادرات سراتها وتجارها واضطهاد علمائها وفقهائها ، كان له أسوأ الأثر على مستقبل الثقافة والحضارة الإسلامية فى تلك البلاد .

ولا يسأل عن ذلك السلطان أحمد المنصور الذهبى ورجال الدولة السعدية ، بقدر ما يسأل عنه قادة الجيوش الغازية من الأندلسيين المسمون بالعلوج ، الذين

شوهوا سمعة الإسلام والمسلمين في بلد السودان الغربى فترة طويلة من الزمن . وكان هذا التشويه من أكبر ما أعان المستعمرين البرتغاليين ، والفرنسيين ، والإنجليز ، على غزو تلك البلاد الشاسعة وتقاسمها بينهم مستعمرات .

الدور الحضارى للدول الإسلامية في أفريقية المدارية الغربية :

وقبل أن نختم هذه الفقرات عن الدول الإسلامية السودانية الغربية الكبرى ، لابد من الإشارة إلى العمل الحضارى الضخم ، الذى قامت به تلك الدول . فقد اجتهدت كلها فى توسيع نطاق الإسلام فى أفريقية المدارية والاستوائية الغربية ، وجعلته الديانة الرئيسية من حدود الصحراء الكبرى إلى بلاد الكونغو . ومع الإسلام أخذت هذه الدول أصول الحضارة العربية ، وسارت بها إلى الأمام وطوعتها لظروف حياتها فى البيئة الأفريقية ، فأنشأت الدول الكبرى ونظمتها على أسس إسلامية ، وأقامت المدن وعبأت الجيوش واتخذت الحروف العربية لكتابة لغاتها ، واجتهد أهلها فى تعليم العربية ودراسة القرآن الكريم ، واقتباس علوم الإسلام وفنونه ، فنهضت الثقافة نهضة كبرى ، وقامت حلقات الدرس فى المساجد فى المدن والزوايا فى القرى .

وكان للشريعة الإسلامية فى تلك البلاد أبعد الأثر ، فلأول مرة يعرف سكان السودان الغربى شريعة محكمة وقانونا يقوم على العدالة ومكارم الأخلاق .

وقد أقبل أهل أفريقية الغربية على دراسة الشريعة الإسلامية ، ورحل المئات من أبناء هذه البلاد إلى مراكش وفاس والقيروان والقاهرة لدراسة الشريعة الإسلامية والتفقه فيها ، وتكاثرت أعداد أولئك الطلاب فى الأزهر خاصة حتى أنشىء لهم رواق خاص يسمى رواق غانة ، وأوقف عليه الناس الأوقاف الواسعة ، وكان ملوك غانة ومالى وصنغى الذين ذهبوا للحج يشترون فى مصر الأراضى والضياع والدور ويوقفونها على رواق غانة ، وكانت مشيخة الأزهر تختار شيخا أزهريا للرواق ، وتحرص على أن يكون ذلك الشيخ غانيا ، لأن الكثيرين من طلاب غانة يستقرون فى مصر ويصبحون من أهلها ، أما العائدون منهم إلى بلادهم فكانوا يحتلون مكانة رفيعة بين الناس ، فيتولون القضاء والإفتاء ، ليقيموا العدل والشريعة ويعلموا الناس القرآن والسنة ، فنشأت الكتاتيب فى كل مكان فى السودان الغربى .

بل كان هؤلاء الفقهاء حملة إسلام ، وعاونوا على إدخال قبائل كبرى فى الإسلام ، لأن رؤساء القبائل الوثنيين كانوا يستدعون الفقهاء إلى بلادهم ليحكموا بين الناس بشريعة الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين ، فقد بهرت هذه الشريعة السمحاء نفوسهم بعدالتها وسموها ، ورعايتها لمكارم الأخلاق ، وعندما كان الفقهاء يستقرون فى البلاد ، كانوا يلقون من الناس تكرمة وأرزاقا واسعة ، فكان ذلك حافزا لهم على التخلق بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، ولحق بهم إخوانهم ، فتكاثروا فى تلك البلاد ، وعملت الشريعة عملها فى اجتذاب الناس إلى الإسلام ، فأسلمت قطاعات واسعة من قبائل الموسى ، التى كانت معادية للإسلام لأسباب قبلية ، بل حدث أن شيوخ قبائل البامبارا والجوكون والبورجو ، التى تعيش داخل نطاق الغابات الكثيفة ، فيما يعرف الآن بداهومى وساحل العاج ، والكاميرون ، والجابون ، استدعت فقهاء الإسلام واتخذت شريعته شريعة لها ، ثم انتهى أمرها بدخول الإسلام .

وهكذا نجد هذا الدين الحنيف المبارك يفتح لنفسه طرقا ومسالك فى أعسر البلاد وأصعبها مداخل ، فهذا نطاق الغابات الاستوائية كان نطاقا عازلا يتعذر على غير أهل البلاد اقتحامه ، وعندما جاء الاستعمار الأوربى فتحت جيوش الفرنسيين والإنجليز والبلجيكيين والبرتغاليين الطرق ، إلى دواخل هذه البلاد بالحديد والنار ، ومع ذلك فهى لم تحكمها قط ، وإنما همها أن ترهب الأهالى ليسلموا لها الأخشاب والتبر وسن الفيل والأبنوس وما إليها دون ثمن تقريبا ، وكانت غارات رجالها متوالية لصيد السودانيين عبيدا ، وبيعهم فى الأسواق رقيقا ، وخاصة للنخاسين الأوربيين الذين أنشئوا لأنفسهم مراكز لصيد السودانيين على السواحل ، وكانوا يستعملون أقسى الأساليب فى هذا الصيد ، حتى لقد كانوا يحرقون القرية على أهلها فى الفجر ليقتنصوا بضع عشرات من الشبان والشابات ، يصيدونهم كالحيوانات ويجرونهم بالسلاسل إلى الشواطىء ، حيث يكدسون فى سفن دون أدنى رعاية صحية أو إنسانية ، فلا يصل منهم حيا إلى الشواطىء الأمريكية إلا العشر ، وهناك يباع الناجون فى الأسواق بالمزاد .

فأين الإسلام السمح الرحيم من ذلك كله ، لقد دخل عن طريق الكلمة الطيبة وعن طريق الشريعة السمحة ، دخل قلوب الناس واستقر فيها ، وفتح لهم طريق الحضارة والنور ، وتحول مع الزمن إلى دين قومى لأولئك الناس .

وقد حكى أحد الرحالة قصة تؤكد ماقلناه ، قال : « أرسلتني جماعتي الدومينيكية إلى قرية صغيرة تسمى باهو غير بعيدة عن الشاطئ في إقليم الفوتاجالون ، وكنت قد تدربت على التطبيب وبناء البيوت واستعمال الأدوات الحديثة ، لكي أخدم أولئك الناس وأجتذبهم إلى الكاثوليكية ، وكان معي ستة من المساعدين ، وقدر طيب من المال لنبني كنيسة ومستشفى ومدرسة ، ومضينا في عملنا ثلاث سنوات ، فبنينا الكنيسة والمستشفى والمدرسة ، وبينما نحن نعمل نزل القرية فقيه مسلم من أهل تمبكتو يسمى حاجي ابسلام (عبدالسلام) وأخذ يدعو ويقضي بين الناس ، وفي أقل من ستة شهور كانت القرية كلها وما حولها قد دخلت في الإسلام بعمل ذلك الفقيه الواحد ، وانصرف الناس عنا وعن كنيستنا ومستشفانا ومدرستنا ، ووجدنا أنفسنا بدون عمل إطلاقا ، وكتبنا بذلك إلى رؤسائنا في بودرو ، فأرسلوا أسقفا ليستجلي الأمر ، فأقام معنا ثلاثة شهور ، ثم قال لنا : أظن يا أولادي أنه لا مستقبل لنا هنا . دعوا كل شيء لأولئك الناس وامضوا عنهم ، فقد تغلب عليكم ذلك الفقيه الواحد[1] » .

وهكذا وبينما كان الملوك يتحاربون ، كان العلماء يعملون في قاعات المساجد ، والمعلمون يعملون في قاعات الكتاتيب وتحت الشجر ، وهاجر الكثيرون من أهل المغرب والأندلس ومصر إلى بلد السودان ، حاملين معهم شتى العلوم والفنون والحرف ، وقد ظهر تفوق الأفريقيين في بعض العلوم والفنون ، ففي الطب والجراحة مثلا نبغ الكثيرون من الماندنجي والغانيين والصنغيين والفولانيين ، وقد ذكر أحمد بابا التمبكتي عددا كبيرا من أطبائهم في « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » وقال : إنه كانت لهم مهارات خاصة في الجراحة ، وفي تنبكت كان أبناء السودانيين يجرون بنجاح عمليات استخراج حصى المثانة وقدح ماء العين وهي عملية الكاتراكتا ، وابتنى المعماريون في عواصم السودان المساجد الجميلة السامقة . أما التجارة فقد استمر ازدهارها فأصبح تجار السودان من أمهر وأغنى تجار العالم الإسلامي كله ، وعمرت طرق التجارة والحج بالقوافل والركبان على مدار العام .

---

(١) رواه الاستاذ شارى مونتاى :
ونقله عنه ابنه المستشرق فنسان مونتاى في دراسة له عن الإسلام في أفريقية الغربية .

وليس من الصواب فى شيء أن يقال إن الأوربيين حضّروا أفريقية . إذ الحقيقة أن العرب والمسلمين عامة هم الذين أخرجوا أفريقية المدارية والاستوائية من سبات القرون ، وأدخلوها فى نطاق التاريخ ، وعندما جاء الأوربيون لم يكن لهم هم إلا القضاء على ما وجدوه من معالم الحضارة هناك . وسنفصل أمر ذلك عند كلامنا عن عالم الإسلام وحركة الاستعمار .

فترة الركود

بعد القضاء على دولة صنغى ، عادت أفريقية الغربية المدارية إلى سابق عهدها من الفوضى ؛ فانقسمت البلاد من جديد إلى إمارات أو مشيخات قبلية صغيرة ؛ ومع أن معظم هذه التكوينات السياسية الصغيرة كانت إسلامية فإن الحروب بينها وعودة الصراعات القبلية القديمة أبطأت من انتشار الإسلام الجماعى بين بقية أهل القبائل التى قامت عليها ممالك السودان الثلاثة الكبرى ، التى ذكرناها . ومع ذلك فقد ظل الإسلام ينتشر فى بطء على أيدى بعض الأمراء الصغار ورؤساء القبائل ، وعلى أيدى الدعاة من أهل الطرق الصوفية والتجار ، الذين لم يكفوا أبدا عن حمل راية الإسلام والسير بها إلى الأمام . كذلك ظهرت دويلات إسلامية صغيرة قامت بنصيب طيب فى ذلك .

وأهم هذه الدول دولتان أنشأتهما قبائل البامبارا على ضفتى نهر النيجر ، بعد زوال دولة صنغى سنة (١٥٩١) . والبامبارا جماعة سودانية زراعية كبيرة كانت تعمل فى الزراعة فى حوض النيجر الأوسط منذ قرون ، ثم استقرت فى بلادها جماعة من دعاة الإسلام من الفولا ، ودفعتهم إلى إقامة نظام سياسى إسلامى ، وابتداء من القرن السابع عشر نشهد قيام دولتين من سودان البامبارا : الأولى على الجانب الأيمن للنهر مركزها سيجو ، والثانية على يساره أنشأها فرع الماساى من البامبارا ومكانها منطقة كعارته . وقد انتشر الإسلام بين البامبارا فى بطء شديد ، لأن هذه القبائل كانت شديدة التمسك بعقائدها التى تقوم على الترويح[1] وهو اعتبار كل الكائنات ذات أرواح خبيثة أو شريرة ، والقول بان هذه الأرواح تقرر كل شيء فى مصائر البشر ، ومن ثم تقام لها الطقوس والعبادات التى لاتخرج

---

(١) ترجمنا بهذا اللفظ لفظ An imation الأوربى .

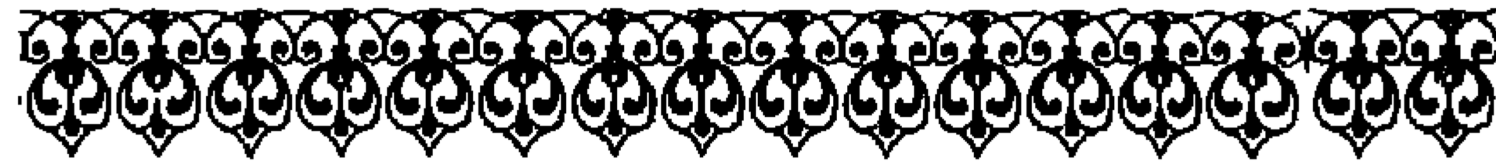
عن الرقص الدينى . وقد حكم البامبارة الشرقيين ملك نشيط هو ممارى كوليبالى (١٧١٢ - ١٧٥٥) ، قاد قوة سنة (١٧٢٥) للهجوم على جيرانهم الأقوياء من قبائل الكونج ، وتمكن من توسيع رقعة بلاده ، وقد استعبد ممارى قبائل الكونج استعبادا حقيقيا مما يدل على ضعف إسلامه أو بعده عن الإسلام تماما ، ثم تولى أمرهم فيما بين سنتى (١٧٦٠ و ١٧٩٠) انجولوديارا فمد سلطانه على كل المنطقة الواقعة فى اتجاه النيجر ، وغير سياسة سلفه ، فرفع الاستعباد وأقر مساواة الإسلام ، وذلك بفضل الفقهاء الذين أتى بهم من تنبكت .

وفى أثناء ذلك فقدت بلاد السودان النظام الذى أقامته الدول الكبرى التى ذكرناها ، وبفقدان النظام والسلطة المركزية عادت القبلية إلى ما كانت عليه ، واحتربت القبائل بعضها مع بعض ؛ فلم تصبح الطرق آمنة كما كانت قبلا ؛ فتراخى نشاط التجارة ، وقلت قوافل البضائع التى كان الدعاة يسيرون فى صحبتها ، وغلبت النزعات القبلية الهمجية ، ومن ثم نجد الوثنية تعود مرة أخرى إلى نواح شاسعة من بلد السودان الغربى . ومع أن الدعاة ظلوا يعملون فى زواياهم ويجتهدون فى الدعوة ، فإن ركائز الإسلام ضعفت ، وهى السلطة الإسلامية القادرة على حماية جماعة العلماء والفقهاء ، ورعاية المساجد وتأمين الأسواق العامة التى كانت الميدان الكبير الذى كسب الدعاة فيه الآلاف من المؤمنين . وظلت هذه الحالة من التراخى قائمة حتى نهض الفولانيون والتكاررة نهضة إسلامية أخرى خلال القرن الثامن عشر أعادت إلى الإسلام السودانى قوته ، وفتحت أمامه مناكب الأرض ومداخل القلوب من جديد .





نهضة الإسلام في السودان بزعامة الفولانيين والتكاررة



كان الفولانيون شعبا من الرعاة موطنه الأصلى فى حوض السنغال ، وقد انتشرت فروع هذا الشعب وجماعاته فى كل المساحة الواسعة الممتدة من السنغال إلى إقليم تشاد . واشتهرت منهم أربعة فروع كبيرة هى :

أ - الفولانيون السنغاليون المعروفون بفولا فوتا تورو .

ب - الفولانيون الغينيون المعروفون بفولا الفوتا جالون .

جـ - الفولانيون فى إقليم ماسينا وبلاد الحوسى (الهاوزا) .

د - الفولانيون فى أدماوه فى جنوب شرقى نيجيريا وبلاد الكاميرون .

دولة الفولانيين السنغاليين فى إقليم فوتاتورو .

وقد دخل الفولانيون فى الإسلام على أيدى المرابطين منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، وتحمسوا له وقاموا يدعونه وكسبوا إلى جانبهم التكاررة أو شعب التكرور ، ومواطنه الأولى فى شمال حوض نهر نمبيبا ، وهم بدو أيضا ، وقد اختلط الفولانيون والتكاررة على مر الزمن ، وأصبحا عماد الإسلام في بلد السودان الغربى ، حتى قيل : إن بلاد التكرو - وهى ملتقى أجناس شتى بحكم موقعها - تشبه المدينة المنورة من حيث إنها مركز إشعاع دينى عظيم .

وقد خضع التكاررة لدولة غانة قبل أن تدخل الإسلام ، ثم أصبحوا حلفاء المرابطين ، ودخلوا فى الإسلام على أيديهم ، وحاربوا فى صفوفهم ، وبفضلهم أصبحت منطقة الفوتا تورو مركزا كبيرا للدعوة الإسلامية ، وقد سبق أن ذكرنا

أنه يقال : إن الفولانيين أصلهم قبيلة من صنهاجة الصحراء ، وهم فى العادة ينسبون أنفسهم إلى مسوفة . إحدى كبريات قبائل صنهاجة الصحراء ، وكان لهم فضل فى إقامة دولة المرابطين .

واستمر التكاررة والفولانيون خاضعين لدولة غانة الإسلامية ، ثم خضعوا لدولة مالى ، وفيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين ، قامت أسرة من أسر قبائل الجلف التى تسمى عادة بالولف – وهم قبيلة هجين من الفولانيين وبربر الصحراء – بإقامة دولة بزعامة إنجاجا إنجياى .

وبسطت سلطانها على بلاد التكرور وكانت إذ ذاك خاضعة لدولة مالى التى كانت فى أوج قوتها . وكان هذا الفريق من الجلف على الوثنية .

وفى سنة (١٧٧٦) ، قام زعيم من التكاررة هو الإمام (فى لغتهم تحرف إلى المامى) بالثورة على سلطان الجلف ، وقتل ملكهم وأدخل هذا الفريق من التكاررة فى الإسلام ، وقامت بفضله دولة إسلامية قوية فى كل حوض السنغال (أى بلاد الفوتا تورو) تضم الفولانيين والتكرور والولف . وقد استمرت هذه الدولة قائمة على نشر الإسلام فيما حولها حتى قضى عليها المستعمرون الفرنسيون .

دولة الفولانيين فى منطقة جبال الفوتاجالون وهى غينيا :

منطقة الفوتاجالون منطقة جبلية واسعة ، وهى تعتبر خط تقسيم مياه ، تنحدر منها إلى الغرب أنهار السنغال والجامبيا والكونكورى ، ومنها ينبع نهر النيجر ويسير شمالا بشرق ، وله فرع ينحدر من الجبال غربا نحو المحيط الأطلسى .

ونظرا للارتفاع ووفرة المياه فى ذلك الإقليم ، نجد بلاد الفوتاجالون منطقة غنية بالزراعات والماشية ، وهى ذات جو معتدل ، وفى القرن السادس عشر الميلادى ، أى فى فترة اضمحلال دولة صنغاى ، تدخل هذه البلاد الغنية جماعات من الفولا السنغاليين ومن الفولانيين الضاربين فى بلاد الماسينا ، فتنشر الإسلام بين أهلها ، والراجح أن هذه الجماعات المهاجرة من الفولانيين كانت هاربة من سلطان الأساكى رؤساء صنغى .

وبعد أن تم إسلام الفولانيين فى إقليم الفوتاجالون ، نجدهم يبايعون بالملك سنة (١٧٢٥) شيخا عالما ذا قوة وعزم وهو الفع كراموكو ، والفع أو الفا لفظ عربى محرف مقتبس من لفظ الفقه[1] أو الفهم وقد تلقب بهذا اللقب المؤرخ القاضى الفع محمود كعت صاحب كتاب (الفتاش) ، فاجتهد الفع كراموكو فى القضاء على الوثنية فى بلاده حتى أصبحت إسلامية خالصة .

وخلفه زعيم من أسرة أخرى من الفولا هو إبراهيم سورى فأكمل عمل سابقه ، وعندما توفى وقع النزاع على الأمر بين البيتين ، ثم اتفقا حوالى سنة (١٧٨٤) م على تبادل العرش كل سنتين ، فيملك فع أو الفا من أسرة كراموكو هو وأصحابه سنتين ، ثم يتنازل عن العرش هو وأصحابه ووزراؤه للمرشح من أسرة السورى ، فيتخذ الوزراء والقواد من قبيلته . وقد عرف هذا النظام من التناوب باسم نظام الفايا (والفايا جمع الفا أو الفع فى لغة الفولا) .

وقد ظل هذا النظام قائما ، حتى ألغاه الاستعمار الفرنسى ، عندما ثبت قدمه فى البلاد سنة (١٨٨٨) .

الفولانيون فى إقليم الماسينا الداخل فى بلاد الحوسى

وقد هاجرت من الفولا جماعة من إقليم فوتاتورو إلى وادى السنغال إلى إقليم ماسينا عند التقاء النيجر بأحد فروعه قرب بحيرة ديبو وإقليم بانى . وهناك استقروا وكبرت قطعان ماشيتهم ، وزادت ثرواتهم ، ودخلوا فى طاعة مالى ، فكافأهم سلطانها بأن عين أحد رؤسائهم ، وهو ماجا جالو حاكما (أردو بلغتهم) لإقليم بفاجا . وعاش الفولا هنا فى سلام مع سادة الدول المتتابعة من غانه والبامبارا . ولكن أحدهم حاول الثورة على أسكيا داود فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، فتمكن هذا من القضاء عليه وعلى أنصاره ، وبعد ذلك نجدهم حلفاء للملوك البامبارة .

---

(١) ينطق لفظ الفقه « هناك بفتح الفاء » : الفقه وهم يسقطون فى النطق بقية اللفظ الأجنبى فيقولون : الفا أو الفع فى الفقه والفهم .

وهاجرت جماعة أخرى من الفولا إلى إقليم ليبتاكو على الضفة الشرقية للنيجر ، وكان توفيقهم هناك أكبر مما أدركه سابقوهم . وفى القرن السابع عشر نجد واحدا منهم ، وهو إبراهيم سايدور يبسط سلطانه على المنطقة الواقعة فى وسط منحنى النيجر كلها . واستمر أولاده وأحفاده على سلطانهم هذا ، وتمكنوا من حماية بلادهم من غارات الطوارق فى الشمال والموشى فى الجنوب ، وظلوا على ذلك حتى انضموا سنة (١٨٠٦) إلى دولة سوكوتو على يد سلطانها عثمان دان فوديو .

وهناك هجرة فولانية رابعة تعتبر من الناحية الإسلامية أهم من الهجرات الثلاث السالفة ، وتدل على أن الفولا كانوا بحق من أنشط الجماعات القليلة السودانية فى العمل على نشر الإسلام ، وتوسيع رقعته فى بلد السودان الغربى .

ففى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، كانت جماعات من الفولا قد استقرت فى إقليم جوبير ، وهى منطقة داخلة فى بلاد الحوسى ، وفى سنة (١٧٥٤) م ولد عثمان دان فوديو أو فوجو ، تربى وشب على حب الإسلام والولع بالتبحر فى علومه ، واشتهر أمره بالتقى والورع والزهد ، مما جذب حوله الأتباع ، فأسلم على يده عدد كبير من أهل هذه الناحية ، فلما صار لجماعته هذا القدر من الاتساع والحماس ، ثارت مخاوف رجال الحوسى فى إقليم جوبير ، فلما أحس عثمان دان فوديو ذلك منهم ، واستوثق من قوة جماعته ، أعلن الجهاد على الحوسى سنة (١٨٠٤) ، وكان الكثير من هؤلاء قدانضموا إليه ، فانتصر على قوات الحوسى وأصبح سيد المنطقة ، واتخذ لنفسه لقب الشيخ وأمير المؤمنين ، ثم مضى فأخضع ماجاوره من بلاد الحوسى ، مثل كاتسينا وزاريه ونوبه وكبه وأنشأ من ذلك كله سلطنة واسعة ، اتخذ سوكوتو عاصمة لها ، وأخذ يتوسع فى بلاد قبائل اليوروبا .

وحاول عثمان دان فوديو أن يستولى على بلاد البرنو إلى الشرق ، ولكن هؤلاء وقفوا فى وجهه بقيادة قائد عسكرى يسمى الكانمى ، وانتهى الأمر بأن اتفق الجانبان على التصالح ووقف القتال .

وفى تلك الأثناء ظهر من بين الفولا الذين استقروا فيما كان يعرف باسم أدماوه

وهى الكاميرون شيخ عالم مجاهد ، يسمى أدما خلع عليه الناس لقب مؤدب أو موديبو بلغتهم ، ومعناه العالم الفقيه . وكان عثمان دان فوديو بعد أن أتم إخضاع بلاد الحوسى فيما عدا الكانم قد استقر فى عاصمته سنة (١٨٠٩) م . وفى سنة (١٨١١) نجده يستدعى موديبوادما ، ويسلم له رايته البيضاء ، وهى رايته فى الجهاد ويكلفه بمواصلة الحرب حتى ينشر الإسلام فيما يلى نهر البنوى ، وهو فرع كبير من فروع النيجر يصب فى ضفته الشرقية ، فنهض أدما بالمهمة وأعلن على الوثنيين حربا عنيفة ، فأدخل معظم مايعرف اليوم بالكاميرون فى الإسلام ، وبلغ من قوة سلطانه أن تغير اسم الإقليم من بنوى إلى أدماوة نسبة إليه . وتوفى مؤدب ادما سنة (١٨٤٧) ، وخلفه ثلاثة من أبنائه على التوالى . وفى سنة (١٩٠١) احتل الإنجليز البلاد ، وأقاموا رابع أولاد مؤدب ادما – واسمه أدما أيضا – أميرا على تلك البلاد التى أصبحت مستعمرة .

وفى تلك الأثناء ظل عثمان دان فوجو سلطانا فى بلاده ، وهى إقليم جوبير فى منعطف نهر النيجر ، وما دخل فى طاعته من البلاد شرقى النهر ، فلما توفى سنة (١٨١٨) تقاسم ملكه اثنان من أسرته هما أخوه عبد الله (يكتب وينطق عبد اللاى) وابنه محمد بلو . فأما عبد الله فقد انفرد بالولايات الغربية من المملكة ، واتخذ لنفسه بلدة جاندو عاصمة ، وأما محمد بلو فقد أخذ الولايات الشرقية ، وهى فتوحات عثمان دان فوجو شرقا ، واستمر يحكم من سوكوتو عاصمة أبيه ، وقد تكشف بلو عن رجل علم يؤلف فى التاريخ والدين ، وقد بدأ تاريخه لمملكة أبيه بإنكار كل ماكان للحوسى قبل ذلك من أعمال ، بل إنه قضى على الوثائق والمؤلفات الخاصة بهم . وكان غرضه من ذلك القضاء على كل أثر للكفر فى بلاده،وفى سبيل ذلك أعدم أصولا ذات قيمة علمية كبيرة لأن ما ألفه الحوسى عن أنفسهم قبل الإسلام كان مكتوبا بلغات وأقلام أفريقية صميمة .

حمادو الشيخ

كانت لفتوح عثمان دان فوجو فى الغرب آثار عميقة على جماعات الفولا الضاربة فى الغرب ، فقد أثارت حميتهم ، وحركت نفوسهم للدعوة للإسلام ، والتوسع فى بلاد السودان ، وظهر من بينهم حوالى سنة (١٧٧٥) م داعية مجاهد

مرابط عظيم ، يسمى حمادو بارى فى منطقة الماسينا ، اشترك حمادو بارى فى جيوش عثمان دان فوجو التي قامت بفتح بلاد الحوسى . واشتهر أمره فى بلاده وهى الماسينا ، حتى خشى أمره أميرها المسمى حمادى ديكو ، وهو من أحفاد أسرة دياره أو جاده ، وكذلك خافة ملك بمباره وقاعدته فى سيجو ، وأعلن الاثنان عليه الحرب ، ولكنه تمكن من دحر جيوشهما عند بلدة نوكوما سنة (١٨١٨) م .

ومكافأة له على ذلك منحه عثمان دان فوجو لقب الشيخ ، وجعله أميرا على منطقة ماسينا ، فاستولى على جنة وتنبكت ، ومد سلطانه على جزء من بلاد البامباره ، وأنشأ لنفسه مدينة جعلها عاصمته وسماها حمداللاى أى الحمد لله .

وتمكن حمادو الشيخ (أو حمادو سيكو بلغة القوم هناك) من تنظيم دولته تنظيما دقيقا فقسم هضاب الماسينا إلى ولايات ، وأقام على كل ولاية واليا لشئون الحكم وقاضيا لشئون القضاء ، وأنشأ مجلسا للحكم من أربعين شيخا من المواطنين ، بالإضافة إلى ستين شيخا آخرين من كبار المرابطين ، وجعل هذه الهيئة مركز السلطة العليا فى البلاد .

أما فى شئون المال فقد قرر ضريبة قدرها العشر على جميع حاصلات الأرض ، وقرر جباية قليلة على الماشية ، وأخذ الزكاة على المال بنصابها الشرعى ، وقدر على سكان كل ناحية ضريبة من الطعام ، تقوم بشئون أئمة المساجد وقومتها وخدمها . وبهذه الأموال سير أمور دولته ودفع أرزاق جنده .

واتخذ خطوات عملية نحوٓ إقرار السكان ، لإخراجهم من حالة البداوة إلى الاستقرار ، فأصدر أمرا بأن تنشىء كل جماعة منهم قرية تستقر فيها ، وأن يجعلوا فى قريتهم سوقا فى يوم مقرر من الأسبوع ، وطلب إلى كل أهل قرية أن يحددوا حوز قريتهم ، ويقوموا باستصلاح أرضه ، وتجفيف مستنقعاته ، وإنشاء المساجد فى القرى .

ونتيجة لهذه الإجراءات انتعشت البلاد ورخيت الأحوال ، فزاد إنتاج الملح وحب الكولا فى ناحية غينيا خاصة ، وتوافد التجار على البلاد من أوربا ومصر حاملين شتى البضائع المستحدثة ، وكثر الحرير المصرى فى الأسواق ، وقدم إلى

البلاد الصناع وأهل الحرف من كل صوب ، وأصبحت بلاد الماسينا وامتدادها فيما يعرف بغينيا اليوم ، ملتقى الناس والقوافل والمتاجر ، وعمرت الطرق بتجار الفولا والبمبارة والديولا ، أصحاب ناحية كونج والحوسى القادمين من نواحى بحيرة تشاد ، والتكرور من السنغال والمغاربة والطوارق والعرب .

وعلى هذه الصورة من الاستقرار والازدهار ، وجد الرحالة الأوربيون الأول دولة الفولا فى حوض النيجر ، عندما بدءوا يتوغلون فى أراضى القارة مرتادين ومكتشفين ، على زعمهم[1] ، ومن أولئك المستكشفين رينيه كاييه الفرنسى ، الذى وصل إلى تنبكت سنة (١٨٢٨) بعد محاولات كثيرة لعبور الصحراء . وقد زعم هذا الرجل أنه مصرى هارب من الفرنسيين ، الذين كانوا قد دخلوا مصر إذ ذاك ، وأنه يريد العودة إلى بلده الإسكندرية وأنه يستجدى الخير ليطعموه ويرشدوه على الطريق حتى يعود إلى بلده ، وكان كاذبا فى ذلك ، إنما كان جاسوسا وعينا للاستعمار .

وفى ذلك الوقت بالذات حفلت أفريقية بالمغامرين الأوربيين ، الذين كانوا يجوسون خلال أفريقية للتعرف على أحوالها وإبلاغ بلادهم بما رأوا ، حتى تسارع إلى افتراسها ، وإذا كان رينيه كاييه قد نجح ، بعد أن وصل إلى تنبكت ، فى العودة إلى المغرب الأقصى ، ثم إلى فرنسا حيث أذاع على الناس تفصيل ما رأى ، فإن مغامرا إنجليزيا آخر هو كلابرتون ، قتل وهو فى الطريق إلى تنبكت ، فى حين أن مغامرا آخر يسمى لانج خرج من طرابلس سنة ١٨٢٥ ووصل بالفعل إلى تنبكت ، ولكنه لقى مصرعه فى طريق العودة على أيدى رجال قبيلة الأرواق . وقد ذكر رينيه كاييه فى كتابه أن تنبكت خيبت رجاءه ، فقد كاد يجن للوصول إليها لما كان يسمع من غناها وكثرة الذهب ورخصه فيها ، فلما وصل وجدها – كما قال – مدينة كثيرة الخراب فيها ستة مساجد وبعض النخيل ، ولم يجد فيها إلا شجرة واحدة قائمة بين الخرائب . والسبب فى ذلك أن البلد إذ ذاك كان

---

(١) الحق أن من يسمون المستكشفين الأوربيين لم يكونوا مستكشفين ، ولا مخرجين إلى النور بلادا كانت فى غيابات الظلام ، لأن هذه البلاد كانت كما رأيت معروفة مكشوفة ذات حضارة ونظم وعلوم ، والذى فعله أولئك المستكشفون هو أنهم عرفوا الطريق إليها ودرسوا أحوالها ، تمهيدا لإعلان الحرب عليها وتدمير حضارتها ثم استعمارها .

تحت رحمة الطوارق ، فكانوا يجوسون خلالها ، ويحاصرونها ويقطعون الطرق اليها ، ويرهبون أهلها، ويستولون على ما يطلبونه من أهلها من الذرة والعسل والأرز والأقمشة وما إلى ذلك .

وقبل أن يموت حمادو الشيخ سنة (١٨٤٥) لقى فى سنة (١٨٣٨) حاجا سودانيا هو الحاج عمر ، سيكون له دور كبير فى مصائر هذه البلاد قبل وقوعها فى أيدى الاستعمار

الحاج عمر :

لم يكن الحاج عمر من الفولانيين ، ولكنه كان من التكاررة ، وقد ولد فى سنة (١٧٩٧) م بقرب بلدة بودور في إقليم الفوتافورو أى السنغال ، واسمه الكامل عمر سيدو تال ، وقد نشأ مسلما ورعا ذا اتجاه دينى قوى ، فمضى فى شبابه الباكر باحثا عن الشيوخ فى نواحي الفوتا فورو والفوتاجالون وهى حوض نهر غمبيا ، ولقى عثمان دان فوجو فى سوكوتو وحمادو الشيخ فى حمد اللاى .

ثم ذهب إلى الحج ، وعاد ليصبح خليفة الطريقة التيجانية فى ناحيته ، وأخلص فى العبادة وفى خدمة أهل الطريقة ؛ فارتفع شأنه وأصبح من أصحاب البركات ، أو ممن يمنحون البركة للناس ويستجاب دعاؤهم ، ويستطيعون نقل العلم من صدورهم إلى صدور الأتباع . وتمكن من توثيق روابطه مع زعماء المسلمين فى بلد السودان ، فأهداه الكانمى امرأة تقية اتخذها زوجة . وأهداه محمد بلو اثنتين واحدة منهما من قرابته وأهل بيته .

وعلا شأن الرجل فثارت مخاوف زعماء البلاد ، فرأى أن الأصوب ليطمئن قلوبهم أن ينزوى فى قرية صغيرة هى ونجيراى ، فى موضع حصين فى جبال الفوتاجالون .

وهناك تجمع حوله أنصاره ، وأخذت أعدادهم تزيد ، حتى إذا أحس أن عددهم أصبح كبيرا ، جعل منهم جيشا من التكاررة ، وهاجم مراكز الماندنجى ، أى الماليين ، وهاجم البمبارة سادة إقليم كعارته وانتزع من أيديهم بلدة فيورو .

واجتذب اسمه ألوفا كثيرة من الأتباع بسبب ما ذاع من تقاه وعلمه وتوفيق الله إياه ، فقرر الاستيلاء على كل حوض السنغال ، أى إقليم الفوتاتورو بجيش قوامه (٤٠ ٠٠٠) مقاتل ، ولكنه لقى مقاومة من سكان الفوتاجالون ، الذين استنجدوا بالفرنسيين ، فأرسلوا قوة من الجيش بالمدافع والبنادق ، فأوقفت تقدم جيوش الحاج عمر وردته عما كان يريد بعد معركة قصيرة عند قرية المدينة قرب كايس فى السنغال .

واتجه الحاج عمر شرقا ، ودخل بلاد البامبارا ، واشتبك معهم فى حرب لقى فيها بعض الهزائم ، ولكنه انتصر فى النهاية ، وتمكن من القبض على ملك بامبارا واستولى على بلدة سيجو ووقع فى أسره أميرها وهو حفيد حمادو الشيخ فقتله .

ثم اتجه الحاج عمر نحو تنبكت واستولى عليها وضمها إلى مملكته الواسعة ، التى شملت بلاد الماسينا والفوتافورو . ثم اشتبك فى قتال مع أمير من أمراء الماسينا وانهزم وفر هاربا إلى الجبال سنة (١٨٦٤) م واختبأ فى مغارة ، ولكنه مات مختنقا بالغازات المنبعثة من البارود ، الذى كان يطلق عليه أو الذى كان هو يدخره معه . وحاول أكبر أبنائه الحكم بعده ، ولكن أمره لم يستمر إلا بضع سنوات .

وكان الحاج عمر مسلما ورعا وتقيا صادقا ، ومما يؤثر عنه أنه كان لايدع صلاة تفوته حتى فى أثناء المعارك ، فكان ينتحى جانبا ويصلى ، بينما السهام تهس فى أذنيه ورصاص البنادق يخطف من حوله ، وكان عادلا على الجملة فى حكمه ، ولكنه كان عنيفا قاسيا مع خصومه ، وربما كانت هذه الخصلة من مستلزمات الرياسة والحكم فى الظروف التى عاش وعمل فيها .

ولم يكن النظام الذى وضعه لدولته متينا أو محكما ، فكان رعاياه يطيعونه لهيبته وتقاه دون أن يفكر هو فى تأييد هيئة الحكم التى أقامها بنظام محكم ، فلما خلفه ابنه أحمدو ، استمر يحكم فى العاصمة سيجو وما حولها ، فى حين خرج البامبارا عن حكمه ، وأسرع أخواه حبيبو ومختار بإعلان انفصالهما عنه وانضما إلى الفرنسيين الذين كانوا إذ ذاك يتوغلون فى البلاد . وتحرج مركز أحمدو فى سيجو ففارقها مع نفر قليل من أصحابه ، واعتزل الدنيا فى ناحية من نواحى بلاد الحوسى ، حتى مات سنة (١٨٩٨) م .

وقام ابن أخ للحاج عمر يسمى التيجانى بأمر سيجو ، ولكن حروبا وقعت بينه وبين رئيس من رؤساء ماسينا يسمى بالبو وشيخ من شيوخ تنبكت يسمى البكائى . واستمر النزاع بين الثلاثة حتى وصل الفرنسيون فى توغلهم فى بلد السودان من مصب السنغال شرقا ، فقضوا على الثلاثة ومدوا سلطانهم على شمال وادى النيجر فيما بين سنة (١٨٨٩ و ١٨٩٢) ميلادية .

سـامـورى

وكان آخر من حاول إنشاء دولة إسلامية فى السودان الغربى قبل الاستعمار الغربى رجلا من الماندنجى ، يسمى ساموري الطورى (تورى) لافيا ، وقد ولد فى وادى الباولى حوالى عام (١٨٣٥) ، وكسب أنصارا كثيرين ، وكان مسلما صحيح الإيمان ولكنه لايصل فى هذا إلى شأو الحاج عمر ، وعندما نهض بالأمر وأراد إنشاء دولة فيما يعرف الآن بجمهورية غينيا ، كان الفرنسيون قد رسموا خططهم لبسط سلطانهم على كل هذه البلاد ، ولهذا كانت حركته محكوما عليها بالفشل من أول الأمر . ويذهب الفرنسيون فى كتاباتهم إلى القول بأنه كان رئيس عصابة لا رئيس دولة ، وأنه كان يحكم بالإرهاب ؛ فأى قرية لاتدفع له الإتاوة سلط عليها رجاله فنهبوها وأحرقوها ، وهذا كله غير صحيح ، لأن الذين كانوا ينهبون القرى ويحرقونها إذا لم تعطهم كانوا هم المستعمرين .

وقد صارع سامورى الاستعمار صراع الأبطال ، واتخذ لقب الإمام واشترى لجنوده البنادق من مخازن الإنجليز التى أنشئوها على السواحل . وتمكن الفرنسيون بما لديهم من المدافع من إرغام الإمام سامورى على الانسحاب إلى مرتفعات غينيا ، وأخرجوا رجاله من ساحل العاج ، فاتجه نحو مايعرف اليوم بفولتا العليا . وهناك وجد نفسه محصورا بين القوات الفرنسية الزاحفة من الشرق ، وقوات فرنسية أخرى صاعدة من بلاد الموسى أو الموشى ، وقوات بريطانية كانت صاعدة مع مجرى النيجر ، فارتد سامورى إلى شمال ليبريا الحالية ، وطارده المستعمرون حتى وقع فى أسرهم فى سبتمبر (١٨٩٨) م ، مع ابنه وزوجته فنفوهم إلى الجابون وهناك مات سنة (١٩٠٠) م .

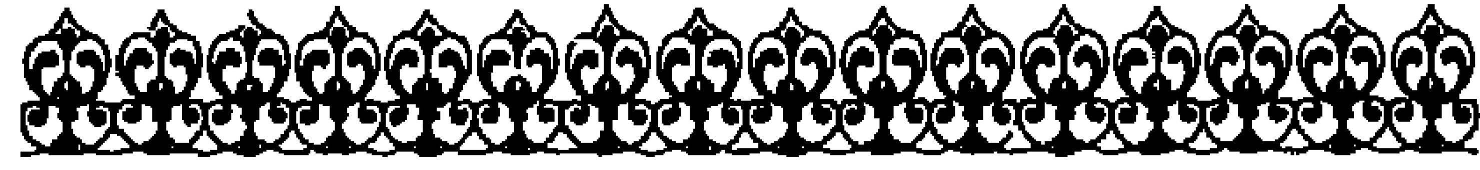
وبموت ساموری الطوری انتهی أمر الدول الإسلامية فی السودان الغربی وورثها كلها الاستعمار ، وبدأ يمد لسلطانه ويثبته بالحديد والنار ، ولايسع المتتبع لهذا التاريخ إلا أن يعجب بما قام به أهل السودان الغربی من المسلمين من جهود فی سبيل إنشاء دولة قومية واسعة منظمة ، يرعاها رجال عظماء من الماندنجی والفولا ، والتكرور ، وقد رأينا فيما مضى أنها كانت دولا مجيدة ، أنشأها رجال عظماء لا يقلون عن طراز الأكابر من منشئی دول الإسلام ، ورأينا كذلك أن هذه الدول أنشأت لأهل السودان الغربی دولا مجيدة وحضارات زاهرة فقضى عليها الاستعمار فی زحفه . ولم يكتف بذلك ، بل اجتهد فی تشويه سمعتها وسمعة رجالها ، حتى حسب الناس أن بلاد أفريقية عندما دخلها الأوربيون كانت قبائل همجية من أكلة لحوم البشر . وأن الأوربيين هم الذين أخرجوا هذه البلاد من تلك الظلمات إلى النور . ولكن الأوهام والأكاذيب تذهب هباء ولايبقى إلا الحق وحده ، وها نحن نكشف عن أمجاد إخواننا الأفريقيين وما أنشئوا من دول وحضارات قبل أن تهبط عليهم لعنة الاستعمار .

والحق أننا مقصرون أشد التقصير فی حق إخواننا أهل السودان الغربی الذين دخلوا الإسلام طواعية وعن اقتناع ، وتحمسوا له وعملوا على نشره فی بلادهم ، وأنفقوا الأموال فی استقدام أهل العلم والفقهاء إلى بلادهم لتوسيع آفاق العلم بالإسلام هناك ؛ حتى أصبحت غالبية أهل السودان الغربی حتى شمال ما يعرف الآن بالكونغو أو زائير بلادا إسلامية ، وكان الإسلام ينتشر بين أهلها على مهل عندما فاجأهم الاستعمار ، وكان من أول ما عمل على تحقيقه أن وَقَّفَ التقدم الإسلامی ، لأن الاستعمار الغربی فی القرن الماضی قام على عمادين : الحرب والدين ، إلى جانب الجندی الأوربی ، الذی كانت مهمته تحطيم كل مايجد فی طريقه من معالم العمران المحلی الإسلامی فی أفريقية ؛ لكی يقول بعد ذلك : إنه دخل البلاد فوجد أهلها يعيشون فی العصر الحجری ، فعمل على إدخال الحضارة فی بلادهم . وقد صدق الناس هذه الأكاذيب أول الأمر ، وجاء وقت أصبحت هذه الأكاذيب حقائق ، وارتسمت فی أذهانهم صورة مزرية للأفريقی قبل الاستعمار : صورة رجل عار متوحش يسير وفی يده حربة ليقتل من يقابله لاسيما الرجال البيض .

بل بلغ من إصرار أهل الغرب على هذه الدعوى أن غسلوا أدمغتنا من هذه الناحية ؛ حتى نجاريهم فيها ونرسم أهل افريقية فى هذه الصورة الظالمة ، بل أصبحت صورة الرجل الأبيض جالسا فى إناء طبيخ كبير (قزان) ورجال سود عرايا يرقصون من حوله وبأيديهم الحراب فى انتظار أن ينضج الأوربى المسكين فيأكلوه . أصبحت هذه الصورة مألوفة لنا ونقلناها فى صحفنا .

والآن يتجلى لنا كذب ذلك كله ، فما كان أهل البلاد التى دخلها الإسلام من أفريقية بهمج أو متوحشين أو أكلة لحوم بشر ، بل كانوا شعوبا ذات حضارات ودول ونظم ، وكانوا مسلمين منهم العلماء والفقهاء وبلادهم تزدان بالمساجد . ومن الأسف أن السود فى الولايات المتحدة كانوا أنشط منا فى العمل على تكذيب هذه الدعاوى ، ولديهم الآن كراسى الأستاذية فى بعض الجامعات لدراسة تاريخ أفريقية قبل الاستعمار وفى أثنائه ، وما قصة « الجذور » لألكساندر هيلى إلا صدى لذلك الاهتمام ، ولعلك قرأتها لترى أن أجداد هيلى هذا كانوا مسلمين من الماندنجى ، وقد أسره تجار الرقيق وباعوه فى الولايات المتحدة .





الإسلام في السودان الأوسط

١ - الكانم والبرنو



يقصد بالسودان الأوسط النواحى المدارية الشاسعة الممتدة من الضفاف الشرقية للنيجر الأوسط حتى منطقة بحيرة تشاد ، ثم المناطق التى تلى ذلك شرقا ، حتى بلاد دارفور ووادای وهى الجزء الشرقى من السودان النيلى .

وسنتكلم هنا عن ثلاث مناطق قامت بها دول إسلامية كبيرة هى : منطقة الكانم والبرنو ، ثم منطقة الحوسى المعروفة بالهاوزا ، ثم منطقة دارفور .

تقع منطقة الكانم والبرنو حول بحيرة تشاد ، وهى بحيرة كانت واسعة المساحة غزيرة المياه فى الماضى ، ولكنها تجف شيئا فشيئا ، وهى الآن مستنقعات تتخللها الجزر ، وفى وقت ليس بالبعيد ستجف هذه البحيرة تماما وتصبح أراضيها مناطق زراعية .

وصل الإسلام إلى هذه المنطقة فى زمن مبكر مقبلا من إقليم فزّان الذى فتحه المسلمون أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، على يد نافع بن عبد القيس الفهرى وهو زوج أخت عمرو بن العاص ووالد عقبة المشهور ، وفى خلافة يزيد بن معاوية سنة (٥٠ / ٦٧٠) أعاد عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى فتح هذه البلاد ، وثبت أقدام الإسلام فيها ثم انحدر جنوبا فأدخل فى رحاب الإسلام إقليم كوار ، وهو إقليم يتكون من سلسلة من الواحات الصغيرة ، تمتد من الشمال إلى الجنوب حتى تصل إلى إقليم تشاد . وبسبب هذه السلسلة من الواحات ، يصف الفرنسيون إقليم كوار بأنه دهليزواحات .

ويحتل إقليما فزان وكوار مكانة هامة بالنسبة لتاريخ أفريقية ، فهما يكونان معاً الطريق الأوسط الذى كان الناس يعبرون بواسطته الصحراء الكبرى وهى بحر الرمل الأكبر ، أما الطريق الشرقى فهو طريق وادى النيل : ينحدر الناس حتى إسنا ، ثم من إسنا يمتد طريق الأربعين حتى دارفور ووادای ، ومن هناك إلى منطقة تشاد والسودان الأوسط .

أما الطريق الغربى فهو يمر فى أقصى غربى القارة محاذيا لساحل الأطلسى ، وبدايته من الشمال فى سجلماسة ، ثم يعبر الناس الصحراء مسافة شهرين قريبا من الساحل معتمدين على آبار قليلة توجد على مسافات طويلة ، حتى يصلوا إلى أودغشت وهى الباب الشمالى للسودان الغربى .

انتقل الإسلام إذن عن طريق فزان وكوار إلى السودان الأوسط ، وهناك قامت جاليات إسلامية من زمن مبكر ، وخلال العصر الأغلبى الذى امتد نيفا وقرنا من الزمان (٥٠٠ – ٦٠٩ م) فى بلاد أفريقية (وهى تونس الحالية مضافا إليها إقليما طرابلس وإقليم قسطنطينة فى الجزائر ، وكان يسمى إذ ذاك إقليم الزاب) ، نشط هذا الطريق وأخذ أهمية تجارية وسياسية ودينية خاصة . وكانت القوافل تشرع من القيروان إلى طرابلس ومن طرابلس إلى مرزق ، وكانت أكبر مدن فزان ، ثم بلما وهى أكبر واحات كوار ويسميها العرب كاوار ، وعندها تقوم أكبر مناجم الملح فى تلك المنطقة ، ومن هناك إلى كوكا ، وهى عاصمة منطقة الكانم والبرنو فى إقليم تشاد . وعندها أيضا ينتهى الطريق الغربى الهابط من إسنا إلى دارفور ووادای ثم منطقة تشاد .

والحقيقة أن إقليم بحيرة تشاد وإقليمى واداى ودارفور ، كانت كلها تكوّن فى الماضى السحيق إقليما واحدا يظن أنه قامت فيه فى القديم حضارة ذات شأن ؛ فقد وجدنا عند سفح جبل أورى فى دارفور آثار مدينة ذات أسوار يقوم فيها قصر كبير ، يظن أنه إما قصر ملك أو مركز تجارى للقوافل ، ولانعرف شيئا كثيرا عن هذه المدينة ولكن المخلفات التى وجدت فيها آتية من كل نواحى دارفور ووادای وتشاد ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان يعيش فى هذه المنطقة شعب عريق يسمى شعب ساو أو صاو .

ويظن أن دماء شعب صاو هذا ، ما زالت تجرى فى شعب الكانم الحالى أو الكانجو أو فى شعب التوجو الحالى أيضا ، الذى يسميه العرب كنورى ويسمى هو نفسه باسم ليدا . ولفظ كنورى معناه رجال الحمى ، وهم رعاة أتوا من ناحية جبال تبستى وملامحهم ليست زنجية رغم سواد بشرتهم ، وهؤلاء التوجو لاينسبون أنفسهم إلى العرب أو إلى السودان أو إلى البربر أو المصريين أو الطوارق ، ويغلب أنهم بقية سكان الصحراء الأصلاء الأول .

ولكن أقرب الفروض إلى الصحة أنهم فرع من البربر ، وفى أوائل القرن الحادى عشر وصل إلى إقليم الكانم شعب من الرعاة يغلب أنهم من بربر الصحراء من أهل كوار ، انهزموا فى الصراع مع أعدائهم ؛ فاتجهوا إلى الجنوب واستقروا شمالى بحيرة تشاد ، واختلطوا بمن وجدوا هناك من سكان ، وكان هؤلاء البدو مسلمين ، وقد تمكنوا من إقامة دولة لهم سميت أولا باسم الكانم ، ثم اسم البورنو ويصفهم ، رحالة العرب بأنهم أهل سيف أى أهل حرب وقتال ، وقد ظلوا يحكمون منطقة ناحية تشاد ثمانية قرون بعد ذلك ، ولم ينته أمرهم إلا على أيدى الفرنسيين سنة (١٨٤٣) .

ولابد عند الكلام على انتشار الإسلام فى إقليم تشاد ووادای ودارفور ، من أن نقول كلمة عن قبيلة بربرية تسمى زغاوة - تكتب أحيانا زواوة وزوارة ، هاجرت من مواطنها الأولى فى منطقة القبائل شرقى الجزائر الحالية ، وانتقلت إلى إقليم فزان ، ومن هناك تفرعت منها فروع اتخذت مواطنها فى الصحراء شرق فزان وغربها ، وهاجرت كتلة كبيرة منها إلى إقليم وادای ثم دارفور ، وهناك اتخذت لنفسها مواطن جديدة . والغريب فى أمر هذه القبيلة أن رجالها كانوا ذوى نشاط كبير فى نشر الإسلام ، فما حلوا فى ناحية إلا حولوا أهلها إلى الإسلام ، وإلى هذا الحماس يرجع الفضل فى انتشار الإسلام فى نواح كثيرة من الصحراء وإقليم بحيرة تشاد ، ثم وادای ودارفور شرقى السودان النيلى بصورة عامة .

وشاركت كذلك فى نشر الإسلام فى هذه النواحى جماعات كثيرة من البربر المهاجرة ، والسودانيين المتحمسين ، ومهاجرة مثل عرب الشوا (تحريف للشاويه) وأولاد سليمان الذين غادروا مواطنهم فى فزان عندما استولى عليها

الأتراك العثمانيون ، ومن فروع الشوا فى شرقى السودان السلامات وخزام والجعاذنة ، والمحاميد والدكاكير .

وأول من نسمع عنه من ملوك هؤلاء القوم هو الملك حومى أو هومى الذى حكم بين سنتى (١٠٨٥ و ١٠٩٧) م وكان مسلما وقد اتخذ لقب السلطان . وقد توفى وهو عائد من الحج إلى مكة . وخلفه ابنه دونامه ، وكان شديد التعلق بالإسلام حتى أنه حج ثلاث مرات ومات فى حجته الثالثة .

وبلغت الدولة أوجها فى أيام سلطان يسمى دونامة أيضا ، ويلقب باسم وييالامى ، وقد حكم من سنة (١٢١٠ إلى ١٢٢٤) على قول ومن (١٢٢١ إلى ١٢٥٩) م على قول آخر . وكان أبوه السلطان يلما أول سلطان للكانم من أصل سودانى صريح . وقد أنشأ السلطان دونامة وييالامى قوة كبيرة من الفرس عدتها (٣٠٠٠٠) فارس مكنت له من توسيع رقعة مملكته حتى وصلت إلى حدود فزان شمالا ، ومن وادای شرقا إلى حوض النيجر غربا ، وبسط سلطانه على شعب صنغى ، ولم يكن هذا الشعب قد نهض بعد نهضته التى تحدثنا عنها . وفى أيامه نشطت التجارة مع مصر والمغرب نشاطا عظيما ، واتخذ سلطان الكانم لنفسه سفيرا مقيما فى القاهرة ، مهمته الإشراف على تنظيم قوافل التجارة والحج والاتصال بالسلطان ، لمعاونة تجار الكانم ، وفى سنة (١٢٤٢) أنشىء فى الأزهر رواق خاص لطلاب الكانم ، وتولى السلطان النفقة على طلاب الرواق من ماله ، وكان لقبه الرسمى فى مصر ملك الكانم وسلطان البرنو ، وبهذا اللقب ذكره القلقشندى فى صبح الأعشى . وأنشأ دونامه وبالامى علاقات مماثلة مع السلطان الحفصى فى تونس ، وقد حدثنا عنه القلقشندى فى صبح الأعشى حديثا طويلا .

وفى عهد السلطان إدريس حفيد دونامة وييالامى (١٣٥٣ - ١٣٧٦) زار ابن بطوطة بلد الكانم ووصفه بالرخاء وامتداد الأمن ، ولكن الرحالة الألمانى بارت الذى زار السودان فى أوائل القرن التاسع عشر ، يحكى أن أمر سلطنة الكانم ضعف بعد أيام إدريس هذا وثارت عليها بعض شعوب السودان ، التى كانت خاضعة لها مثل الصاو وهم سكان البلاد الأصليون ، والتوبو سكان جبال تبستى ، وقبائل البولالة الضاربة حول بحيرة فترى الصغيرة الواقعة جنوبى بحيرة تشاد . وقد عجز سلطان الكانم عن التغلب على البولالة ، وكذلك فشل ابنه عمر الذى يقال إنه

حكم فيما بين سنتى (١٣٩٤ و ١٣٩٨) م . واضطر سلطان الكانم نتيجة لذلك إلى الانتقال من بلد الكانم إلى ناحية البرنو الواقعة غربى بحيرة تشاد وعاصمتها كوكا ، وأصبح سلاطينهم يلقبون من ذلك الحين بسلاطين البرنو ، واستمر الصراع مع البولالة قرنا من الزمان حتى تمكن السلطان إدريس كاتاكارمبى من التغلب عليهم ، وإعادة بلاد الكانم من جديد ، ولكنه لم يتمكن من احتلال العاصمة . وقد حكم هذا السلطان فيما بين سنتى (١٥٠٤ و ١٥٢٦) .

وقد بلغت سلطنة البرنو أقصى قوتها فى عصر السلطان إدريس ألاوما ، الذى حكم فى النصف الأخير من القرن السادس عشر ، ربما من سنة (١٥٧١) إلى سنة (١٦٠٣) ، وقد اتصل إدريس هذا بوالى إيالة تونس التركى ، وحصل منه على بنادق ومدربين . وبهذا السلاح الجديد تمكن إدريس من تثبيت سلطانه ، ومد رواقه حتى شمال ما يعرف اليوم بالكاميرون ، وبسط سلطانه شرقا حتى بحيرة فيترى . وتمكن كذلك من التغلب على قبائل التوبو فى جبال تبستى ومد سلطانه على إقليم كوار واحتل عاصمتها بلما وملك مناجم الملح الشهيرة قربها . وقد قتل إدريس ألاوما فى إحدى غزواته .

وعمرت سلطنة البرنو قرنين بعد ذلك ، ولكن الصراع الطويل مع البربر والطوارق أنهك قواها ، وانتهى أمرها بأن سيطرت عليها دول الحوسى . وفى القرن التاسع عشر تعرض البرنو لهجمات الفولا ، واضطر أحمد بن على سلطان البرنو إلى الاستعانة عليهم بالقائد المشهور محمد الكانمى ، وكان يعيش فى القاهرة . فأقبل وتولى الأمر ، ومن ذلك الحين أصبح صاحب السلطان الفعلى فى دولة البرنو . لم يعلن الكانمى نفسه سلطانا ، ولكنه اكتفى بلقب الشيخ الكانمى ، وأدار الأمور وولى السلاطين وعزلهم كما شاء من مقامه الذى اختاره لنفسه فى مدينة كوكا على الشاطىء الغربى لبحيرة تشاد . ولقب السلطان هناك يطلق على رئيس القبيلة أو الناحية .

وعندما توفى الشيخ الكانمى سنة (١٨٣٥) ، خلفه ابنه عمر وتولى السلطان كله كما كان أبوه بينما ظل السلاطين مجرد رمز بلا سلطان أو حيلة . ثم إن عمر اتهم السلطان القائم إبراهيم أو إبرام بالتآمر عليه ، فقتله وتولى السلطان سنة

(١٨٤٦) ، ووضع بذلك حدا لتاريخ أسرة سيف أو السيفية التى ظلت تحكم تلك البلاد تسعة قرون .

وفى أيام السلطان عمر هذا وفد على بلاد البرنو نفر من رحالة الألمان الذين كانوا يجوسون خلال بلاد أفريقية المدارية طلائع الاستعمار ، والتدخل الأجنبى من أمثال بارت وفوجل ورولفس وتاختيجال .

وفى التقسيم الاستعمارى العام لأفريقية كانت هذه البلاد من نصيب الفرنسيين ..





ب - بلاد الحوسى



الحوسى هو الصيغة العربية لاسم يطلق على مجموعة من البلاد تقع فيما بين جبال العير التى تقوم إلى الغرب من إقليم كوار وعاصمته بلما ، وتمتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيجر . وأهل هذه البلاد يسمون أنفسهم الهاوزا ، ومعناه فى لغتهم الضفة الشرقية من نهر النيجر ، وتتسع منطقة الحوسي حتى تصل إلى الحدود الغربية لبلاد البرنو .

وجبال العير تقع على الحدود الجنوبية للصحراء شمالى نهر النيجر ، وبينها وبين النهر منطقة صحراوية واسعة يسودها طوارق الصحراء ، والسفوح الشمالية للجبال قاحلة ، أما الجنوبية فتشقها وديان تنحدر منها نهيرات تتلقى مياه الأمطار ، وتنحدر تلك النهيرات جنوبا ، فإما تبددت فى الرمال أو وصلت إلى نهر النيجر ، وصارت فروعا منه ، ولهذا فإن الجزء الجنوبى من هذه الجبال خصب وعامر بالخضرة والناس والماشية والحياة .

والتاريخ الأسطورى الذى يقصه الحوسى عن أنفسهم يقول : إن بعض قبائل الصحراء غزت جبال العير فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ففر أمامهم من استطاع الفرار من أهل الجبال والوديان ، واستقروا فى ناحية جوبير من نواحى الصحراء الكبرى شمالى نهر النيجر وشرقه . وربما كانت تلك الغزوة من نتائج دخول العرب الهلالية المغرب ابتداء من سنة (١٠٤٦) ميلادية ، فإن بنى هلال ابن عامر بن صعصعة ومن صاحبهم من قبائل العرب اجتاحوا نواحي المغرب قادمين من مصر إلى جنوبى برقة وطرابلس ، واندفعوا غربا فهربت أمامهم قبائل البربر الصحراوية إلى الغرب والجنوب وتوالى هذا التدافع حتى وصلت الجماعات

السودانية المهاجرة إلى الغابات الاستوائية ، ولاصحة للقول بأن القبائل البربرية التى اندفعت إلى الجنوب ودفعت أمامها غيرها كانت قبائل الطوارق ، لأن الطوارق في أصلهم شعب أفريقى قديم كان يعمر الصحراء الكبرى ، وقد ظلوا فى مواطنهم حتى دخلت الصحراء الكبرى خلال القرن الثانى عشر الميلادى بقايا قبائل صنهاجة الصحراء ، التى أقامت دولة المرابطين ثم انهزمت أمام الموحدين ، ففر من استطاع الفرار من بقاياهم ممن أبى الخضوع للموحدين إلى الصحراء ، وخاصة عندما احتدم الصراع بين الموحدين وبقايا المرابطين ، يقودهم بنو غانيَّة المسوفيون . وكانت إحدى قبائل صنهاجة الصحراء هذه تسمى تارجا أو تاركا هاجر بعضها إلى نواحى تلمسان فى العصر المرابطى ، وبقى فى الصحراء معظمها فى مواطنهم الأولى فى الصحراء الواسعة بين مجرى وادى درعة جنوبى المغرب الأقصى ووادى السنغال ، وامتدت منهم فروع ناحية الشرق ، وتفرقت فى نواحى الصحراء الكبرى ، فأصبح التارجيون أو التاركيون منتشرين فى الصحراء انتشارا واسعا .

الطوارق :

فلما لحق بهم الهاربون أمام الموحدين من بنى عمومتهم من بقايا قبائل صنهاجة الصحراء تزايدت أعدادهم وازدادت قوتهم ، وسادوا معظم الأقاليم الصحراوية القاحلة فى قلب الصحراء الكبرى . وأصبح يطلق على هؤلاء الصحراويين جميعا اسم تارجا أو تاركا ، وقد عرب هذا الاسم على طارقا والنسب إليه طارقى والجمع طوارق ، وهذا هو أصل هذا الشعب العريق القوى ، الذى يعمر الصحراء الكبرى ويعرف فجاجها شبرا شبرا ، وقد اشتهروا باللثام الذى يغطون به وجوههم ، وبملابسهم الزرقاء ، وهى من نسج أيديهم ويصبغونها بالنيلج ، وهو كثير فى واحات صحراء مصر الغربية . وقد طال الصراع بين الطوارق والفرنسيين ، وعجز هؤلاء عن سيادتهم فهادنوهم وهابوهم وسموهم بأمراء الصحراء الزرق .

والطوارق مسلمون فيهم شهامة وحمية ، وهم لايعتدون على أحد ، وإليهم يرجع الفضل فى المحافظة على الصحراء الكبرى ، فقد أراد الفرنسيون أن ينشروا المسيحية فى بعض نواحى الصحراء وخاصة ناحية الهقار ، التى تسمى أهجار وأرسلوا إلى عاصمة هذا الإقليم ، وهى واحة تامنراست ، عددا من الرهبان

المبشرين ، اشتهروا باسم الآباء البيض وانتشروا فى الصحراء يبشرون بالمسيحية ، فمازال الطوارق يلحون عليهم بالغزو حتى أبادوهم .

ونعود إلى الحوسى فنقول : إن اسمهم هذا ليس اسم جنس معين ، بل هو اسم لغة اشترك فى الكلام بها عدد من القبائل المتكلمة بها ، فغلب عليها كلها اسم الحوسى ، وعدد الحوسى فى أيامنا خمسة ملايين نسمة تقريبا ، وهم يعيشون فى مواطنهم التى ذكرناها من شرقى حوض النيجر إلى حدود بلاد البرنو فى الشرق .

وكانت للحوسى لغة تكتب بحروف خاصة ، وقد كتبوا بلغتهم كتبا كثيرة . وعندما غزت بلادهم قبائل الفولا فى القرن التاسع عشر الميلادى ، قضوا على كل ما وجدوا من كتب الحوسى ، فضاعت بذلك دقائق كثيرة كان من الممكن أن تزيدنا علما بهم .

وتحكى المأثورات الشعبية الحوسية قصة أسطورية عن أصل الدول السبع التى تتألف منها بلادهم ، وهى كانو وكارو وكاتسينا وبيرام وزجزج (أوزارية) وداور وزنقره .

وأهم دول الحوسى هذه هى دولة كانو ، التى تقع اليوم فى شمال جمهورية نيجيريا ، ولها تاريخ طويل كتب فى القرن التاسع عشر على الأغلب ، ويحكى هذا التاريخ أن أول ملك لكانو كان الملك باجودا ، وهو حفيد بطل أسطورى يسمى أبو يزيد يقال : إنه قتل مسخا هائلا كان يعيث فى البلاد فسادا على أيام ملكه تسمى دودره .

وقد دخل الإسلام بلاد الحوسى فى القرن الرابع عشر الميلادى فى أثناء حكم ملكهم ياجى (١٣٤٩ - ١٣٨٥) ، وقد أدخل الإسلام إليهم علماء ودعاة قدموا من بلاد مالى ومن بلاد البرنو ومن السودان النيلى . وقد اختلط الإسلام هناك بعناصر وثنية كما كان يحدث كثيرا فى البلاد الأفريقية نظرا لقلة المعلمين أو لقلة علمهم .

وكانت كانو بلدا زاهرا غنيا بالتجارة والتجار . وكان تجار الرقيق يأخذون أحيانا رقيقا من الحوسى عرفوا بالذكاء والاجتهاد والقوة على العمل .

وفيما بين (١٥١٣-١٥١٦) ، خضعت كانوا لأسكيا محمد سلطان صنغى . وقد توالت الغزوات على بلاد الحوسى ، فسادها الفولا لفترة من الزمن فى القرن السابع عشر « وعلى أيديهم انتهى حكم أسرة باجودا سنة (١٨٠٧) ، بعد أن حكمت ثمانية قرون .

وقد اشتهرت من بين بلاد الحوسى كاتسينا ، وينسب إنشاؤها إلى ولد من أولاد أبى يزيد يسمى كومايو ، وكانت تقوم بالحكم فيها قبل ذلك أسرة أخرى فتزوج من بناتها واستقل بالملك حوالى (١١٠٠) ، ولكن الأمر لم يدم فى بيته طويلا ، لأن أسرة أخرى خلفته فى القرن الثالث عشر ، وظلت تحكم هناك إلى القرن الرابع عشر .

وكانت كاتسينا مركزا تجاريا هاما ، إذ إنها كانت تقوم على طريق القوافل بين مصر ومالى ، وكان هذا الطريق يخرج من البهنسا فى شمال الصعيد ، ويتجه نحو واحة الفرافرة (الفرفرون) فالواحة البحرية (البحرين) ثم إلى سيوه (سنتريه) فجغبوب فمرزق ثم إلى غات ومن ثم إلى مالى ، ولهذا فقد كانت هذه الدولة الحوسية تنافس كانو فى الرخاء والنشاط .

وكانت بلاد الحوسى التى ذكرناها دويلات صغيرة أو كبيرة تقوم كل منها فى مدينة يحكمها مجلس مشايخها ، ويرأسه الملك المحلى . وقد دخل الإسلام هذه البلاد كلها من مالى على أيدى الماندنجى فى القرن الرابع عشر . ومن هنا نفهم كيف تمكنت هذه الدول من إقامة التعاون فيما بينها للمحافظة على بلادها ودينها وهو الإسلام . وجدير بالذكر أن دول الحوسى أقامت نظاما يشبه نظام الحكام الذى عرفته القبائل العربية فى الجاهلية ، فإذا طالت الحرب بين دولة من دولهم وأخرى اتفق الطرفان على تحكيم واحد من الحوسى ، ممن اشتهروا بالحكمة ومعرفة القانون العرفى السائد بينها ، فيحكم بينهم ويرضون بحكمه . وعندما أسلم الحوسى ، ودخلت الشريعة السمحاء بلادهم ، أصبح الحكام من الشيوخ ذوى العلم والحكمة والفهم . وعندما دخل الإنجليز نيجيريا وجعلوها مستعمرة لهم ، لم يجدوا من شعوب النيجر أرقى أو أكثر حضارة من الحوسى بفضل الإسلام ، وأصبحت كانو من عواصم نيجيريا أيام الاستعمار ، وإن كان المستعمرون قد عمدوا إلى النهوض بمدينة أخرى من نيجيريا قريبة من البحر تسمى

لاجوس ، وهى من إنشاء البرتغاليين ، فقد كان البرتغاليون فى القرن الخامس عشر ، يقيمون على السواحل الأفريقية حصونا يستعملونها مخازن لبضائعهم ومراكز لصيد الرقيق السودانى وبيعه ، وكانت هذه الحصون تسمى باسم قلاع الحدود Fronteiras وكانت منها لاجوس Lagos ومعناها البحيرات ومفردها لاجو Lago .

وإلى الحوسى والطوارق يرجع الفضل فى المحافظة على الإسلام فى نواح شاسعة من نواحى أفريقية المدارية ، فأما الطوارق فقد حموا الصحراء وأما الحوسى فقد حافظوا على إسلام مناطق النيجر العليا ، وإلى غرب بلاد الحوسى امتدت بلاد الفولا ، أو الفولانيين ،وهم مسلمون ، وإلى شرقهم الكنورى أصحاب بلاد الكانم والبرنو ، فهذه أربعة شعوب مباركة دخلت الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأقامت دولا وحضارات وحافظت على الدين فى بلادها ونشرته فى فجاج أفريقية المدارية والاستوائية .





جـ - السودان الشرقى أو النيلى



كان معظم وادى النيل عند الفتح العربى لمصر مكونا من بلاد مسيحية تمتد حتى منطقة الجزيرة المعروفة اليوم فى جمهورية السودان ، وكانت هذه البلاد المسيحية تبدأ بمصر نفسها ، وتليها جنوبا فى منطقة النوبة أو وادى حلفا مملكة النوبة أو نوباتيا ، كما تسمى فى النصوص اللاتينية ، وكانت مملكة النوبة تمتد من جنوبى أسوان عند تافة إلى مدينة ماما الواقعة على الضفة الشرقية لنهر النيل ، وتقابلها على الضفة الغربية المدينة التى سماها العرب باسم المقس الأعلى .

وتلى مملكة النوبة جنوبا مملكة مَقُرّة ، وتمتد جنوبا حتى الأبواب « أو الكبوشية » جنوبى ملتقى النيل بنهيرة العطبرة أو الاتبرة .

وبعد ذلك إلى الجنوب كانت تقوم مملكة مسيحية ثالثة تسمى علوه ، وتصل حدودها الجنوبية إلى جنوبى مدينة الخرطوم بقليل . ومايلى ذلك جنوبا كانت بلادا وثنية يعيش أهلها حياة بدائية .

ولم تكن مسيحية هذه البلاد واضحة المعالم أو عميقة الجذور ، إنما اقتصرت المسيحية فى الغالب على البيوت الحاكمة ، وقد أوصلها إليهم رهبان مصر فى العصر البيزنطى ، عندما اشتد أباطرة الروم فى اضطهاد الأقباط لإرغامهم على ترك مذهبهم اليعقوبى ، الذى تمسكوا به والدخول فى مذهب الملكانية ، وهو المذهب الذى اختاره وأقره أباطرة دولة الروم ، وأرادوا فرضه على الناس ، فنفروا منهم وكان الاضطهاد وكانت المذابح .

وكان دخول الإسلام مصر رحمة لأهلها وراحة من ظلم الروم ، وكان رئيس المصريين هو المقوقس الذى خاطبه رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم عظيم القبط أى رئيس المصريين ، وكان المقوقس رجلا مصريا أصيلا ، وهو ليس قيرس ممثل دولة الروم كما ظن المؤرخ بطلر . وكان للمقوقس أخ يسمى بنيامين كان بطريق القبط ، واضطهده الروم ففر منهم ، فلما دخل العرب مصر أمن لهم وعاد إلى كرسيه وسماه العرب أبا ميامين . واسم المقوقس تسمية عربية لهذه الشخصية ، وقد عرفه بها من دخل مصر من العرب قبل الإسلام مثل عمرو بن العاص وحاطب ابن أبى بلتعة وهو مشتق من لفظ قَس . .

وكانت النوبة أو نوباتيا معتبرة من الناحية الحضارية امتدادا لمصر فى الجنوب . ومن الناحية السياسية ، كانت منطقة فاصلة بين مصر وبقية وادى النيل جنوبا ، وعندما قام عبدالله بن أبى السرح بحملة على النوبة سنة (٣١ هـ / ٦٥٢ م) وعقد معاهدة البقط[١] مع صاحب النوبة ، أصبحت النوبة بالفعل حليفا دائما لمصر ومجالا لنشاط أهلها التجارى ، وبالفعل لم تكن توجد بين مصر والنوبة حدود فاصلة ، وإن كان تجار البلدين والسفار من الجانبين يعبرونها دون تعقيد . وقد نشأت فى النوبة جالية إسلامية حول المسجد الذى أقامه عبدالله بن سعد فى دنقلة ، وتعهد ملك النوبة بالعناية به فى معاهدة البقط التى عقدها مع المسلمين . وقبيل توغل عرب الكنز فى النوبة وقضائهم على النصرانية فيها كان الإسلام قد عم أهلها حتى ليمكن القول : إن مصر امتدت جنوبا حتى المقس الأعلى . ويفهم من نص الصلح المعروف بالبقط الذى عقده عبدالله بن سعد مع ملك النوبة أنه شمل مملكة مقرة أيضا ، فهو يقول : « لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوه » والمراد فيما نعتقد أن هذا العهد شمل مملكة مقرة أيضا على اعتبار أنهما مملكتان مسيحيتان متجاورتان ، تستطيعان معا التعهد بمراعاة الصداقة مع المسلمين ، ولهذا كان الكثيرون من كتاب المسلمين يطلقون لفظ النوبة على نوباتيا ومقرة معا .

---

(١) تعريب للفظ Pactum اللاتينى بمعنى المعاهدة .

وعلاقات العرب وبلاد النوبة وماييليها جنوبا قديمة جدا ، ترجع إلى ماقبل الإسلام بكثير ، فقد كان التجار من اليمن يعبرون البحر الأحمر باستمرار ، وتستقر جماعات منهم في مواقع شتى من حوض النيل . وتشير بعض الروايات التاريخية إلى حملات عسكرية ، قام بها الحميريون على وادى النيل الأوسط . وقد خلفت هذه الحملات جماعات من اليمنيين ، استقرت فى أرض البجة أو البجاة وبلاد النوبة ، وتذهب بعض الروايات إلى أن الغارات وصلت بلاد المغرب بقيادة أفريقس ابن أبرهة ذى المنار ملك حمير ، ويزعمون أن أفريقية (وهى تونس) سميت بهذا الاسم نسبة إلى أفريقس هذا ، وهذه مجرد أسطورة طبعا لأن اسم أفريقية Africa مشتق من اسم قبيل من الناس كانوا يسكنون غرب ما يعرف اليوم بتونس إلى الغرب من قرطاجنة . ويسمون باسم أفرى Afri ، فسميت البلاد خارج قرطاجنة بهذا الاسم وهو Africa نسبة اليهم ، ثم انسحب الاسم على القارة كلها .

وكذلك هاجرت جماعة من الحضارمة فى القرن السادس الميلادى إلى بلاد البجة على ساحل البحر الأحمر ، واختلطوا بهم ، ونشأت عن هذا الاختلاط جماعة تمكنت من الوصول إلى الحكم عرفت باسم الزنافج . وقد انتقل هؤلاء الزنافج فيما بعد إلى الجنوب وأسسوا مملكة البلو التى عرفت باسم مملكة بنى عامر فى إقليم طوكر .

كذلك كان تيار الهجرة العربية إلى مصر عن طريق سيناء مستمرا طوال العصور القديمة ، وكانت هجرتهم تتم أحيانا فى صورة عدوان خطر ، كما حدث فى غارة الهكسوس أو الرعاة ، وكان فراعنة مصر يجتهدون فى وقف هذه الهجرات واتقاء شر عدوان القبائل الصحراوية على الوادى ، ولكن هذا التسرب كان مستمرا ، يذكر ابن خلدون أن الكثير من بطون قضاعة هاجروا إلى سيناء وصحراء مصر الغربية ، واستقروا فيها ، ويذكر بصورة خاصة قبيلة تسمى الضجاغم ، ويذكر القلقشندى من عرب سيناء بطونا من جهينة وبلى وكان هؤلاء العرب يستقرون شرقى الدلتا ، ثم ينساحون جنوبا ويختلطون بأهل مصر ، ويصلون إلى بلاد النوبة ويختلطون بهم . وقد زادت هجرة العرب إلى مصر ، وانتقال جماعات منهم إلى بلاد النوبة بعد الإسلام كما سنرى ، وأدى ذلك إلى انتشار الإسلام فى

النوبة وبلاد مقرة أى حتى سوبا على النيل الأزرق ، جنوبى الخرطوم الحالية ، والحق أن الكلام عن أن بلاد النوبة ظلت مسيحية إلى القرن الرابع عشر الميلادى ، كلام لايطابق الحقيقة ؛ لأن الحقيقة أن الذين ظلوا على المسيحية هناك هم أفراد البيت المالك ونفر من كبار رجال الدولة ، أما بقية النوبيين ، فقد دخلوا الإسلام جماعة بعد جماعة كما ذكرنا ؛ وأكثر ما ساعد على ذلك موقف المسلمين المرن من أهل النوبة ، فهم لم يعتبروهم أعداء يواصلون حربهم ؛ فيؤدى ذلك إلى تشددهم فى التمسك بالمسيحية ، وإنما عقدوا معهم عقدا هو أشبه بالحلف ، وإن كان لايفرط فى سيادة المسلمين . وقد أحسن البلاذرى[1] عندما قال : « ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق ، إنما هى هدنة بيننا وبينهم ».

بلاد البجة : جزء من دولة الإسلام

البجة شعب ينسب إلى أصل حامى كانوا – ولايزالون – يسكنون النواحى الجبلية من حد أسوان إلى مايقابل جزر دهلك عند (مصوّع) على ساحل البحر الأحمر . وهم كالنوبيين والأحباش جنس أسمر اللون يمتاز بالذكاء والنشاط والقدرة على التجارة والشجاعة فى الحرب ، وهم ليسوا ثمرة اختلاط بين البيض والسود كما يظن ، بل هم جنس قائم بنفسه ، وهم من الناحية الحضارية استمرار لمصر فى الجنوب ، ومركزهم الحقيقى هو ساحل البحر الأحمر قبالة النوبة ، فقبائلهم تروح وتغدو دائما إلى مواطنها فى مصر ، وهم كانوا حملة التجارة المصرية إلى الجنوب . وقد زادت هذه الصلة بينهم وبين مصر بعد الفتح الإسلامى ، فكثر دخول المسلمين من مصر عبر البحر الأحمر إلى بلادهم .

وفى أول الأمر لم يجد ولاة مصر من العرب مايدعو إلى غزو بلاد البجة وإخضاع بلادهم الواسعة للحكم الإسلامى إخضاعا مباشرا ، ولكن توالى عدوانهم على ناحية أسوان ونهبهم أراضيها ، اضطر الخليفة المأمون إلى إرسال حملة لحروبهم يقودها والى مصر عبدالله بن الجهم فى سنة (٢٣١ هـ / ٨٤١ م) ، فقام بغزو بلادهم واضطرهم إلى توقيع معاهدة خضوع للخلافة ، وكان رئيسهم

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان : طبعة أوربا بتحقيق دى خوية . لايدن سنة (١٨٦٦) ، وقد اعتمد البلاذرى فى هذا القول على يزيد بن أبى حبيب وهو من سبى النوبة وكان يعيش فى مصر .

إذ ذاك يسمى كنون بن عبدالعزيز . وبمقتضى هذه المعاهدة أصبحت بلادهم ملكا للخليفة وأهلها بمن فيهم رئيسهم رعية لأمير المؤمنين ، وفرض عليهم الخراج وفتحت أبوابهم للمسلمين دون قيد أو شرط . ونزحت إلى بلادهم جماعات من العرب وخاصة من بَلي وجهينة . وفي نهاية القرن السابع عبرت البحر الأحمر إلى بلاد البجة جماعات من هوازن – عرفت بالحلافقة – وانتقلت فيما بعد إلى ناحية تاكا في السودان .

وفي منتصف القرن الثامن الميلادى ، لجأ إلى بلاد البجة نفر من بنى أمية هاربين أمام العباسيين ، وسيكون لأولئك الأمراء شأن في السودان فيما بعد ، ثم إن علماء الآثار وجدوا قبورا إسلامية على (٧٠) كيلومترا غربى سواكن يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى .

وكان العرب يتسربون أيضا جماعات إلى أرض النوبة ، ويستقرون فيها دون أن يمنعهم ملوكها من النصارى ، ولكن ذلك لم يمنع ولاة مصر وولاة الصعيد الأعلى من الإصرار على ضرورة أخذ الضريبة التى قررها البقط من الجزية النوعية والعبيد ، ويبدو أنهم كانوا يرون في أداء هذه الجزية توكيدا لطاعة النوبيين لدولة الإسلام . وقد حاول ملك النوبة زكريا بن يوحنس في أيام المعتصم (٨٣٣ – ٨٤٣) التخلص من سيادة المسلمين بتحريض من ابنه قيرقى ، وهو جورج في لغة اليوم وجيْور جيْوس في لغة الرومان وجاور جيوس في لغة الأقباط ، ولكى يكون زكريا على بينة من أمره قبل أن يدخل في حرب مع المسلمين نصح ابنه بالذهاب إلى بغداد ليتعرف على حقيقة قوة المسلمين ، فلما ذهب بهره ما رأى من جند الخلافة وماشاهده من فخامة البلاط وغنى بغداد . وكان ذلك أيام المعتصم ، وقد لقيه قيرقى وحظى بإكرامه واتفق معه على أن يدفع بقط سنة واحدة كل ثلاث سنوات ، ولكن المعتصم رفض أن يزيل المسلحة – أى القاعدة العسكرية – التى أقامها المسلمون في مدينة القصر .

ومن أوائل القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى بدأت تظهر للعرب أهمية مناجم الذهب في وادى العلاقى ، فزاد إقبال العرب على هذا الوادى الذى يقع في الطريق بين أسوان وميناء عيذاب ، خاصة وقد تبين وجود مناجم لحجر الزمرد

بها ، فأصبحت الناحية تعرف بأرض المعادن ، وكثر توافد الناس عليها واشتهر أمرها .

وعندما أسقط العرب من الديوان أيام المتوكل (٨٤٧ / ٨٦١) ثارت نفوس العرب خاصة ، وقد بدأ الخلفاء يولون على الولايات رجالا من الأتراك ، وعمد ابن المدبر والى مصر إلى فرض إتاوات كبيرة على العرب ، فثاروا مرة بعد أخرى ، وانهزموا أمام الجند التركى ، وزج بالكثيرين منهم فى السجون . وأمام هذه الظروف أخذت جماعات منهم تهاجر إلى الجنوب ، وعندما أعد أحمد بن طولون حملة لغزو بلاد النوبة – طامعا فى أرض المعادن – انضم إليها عرب كثيرون معظمهم من ربيعة وجهينة ، وقد قاد هذه الحملة مغامر عربى كبير واسع الطموح هو أبو عبدالرحمن عبدالله بن عبدالحميد العمرى .

تقدم العمرى بمن معه حتى وصل إلى إقليم شنقير (أبو حمد) مارا بمنطقة الذهب في العلاقي ، وقرب شنقير اكتشف مواقع جديدة للبربر وتغلب على قوات الملك قيرقى ، وأنشأ لنفسه ورجاله مركزا دائما على النهر ، وهناك قام نزاع بينه وبين جماعات من العرب من سعد العشيرة وقيس عيلان ، كانت تسكن قريبا من هناك ، فانهزم إلى الشمال ، ولكنه تمكن من مد نفوذه شرقا حتى عيذاب وشمالا حتى أسوان ، وعمرت هذه الناحية برجاله عمارا واسعا . وخاف أحمد بن طولون من أن يمد العمرى سلطانه إلى مصر ، فأرسل جيشا لمحاربته ، فانتصر على الجيش ودخل شمالا حتى ادفو سنة (٨٦٩) م ثم عاد إلى منطقة المعادن . ثم وقع خلاف شديد بينه وبين جماعات من عرب ربيعة ومضر كانت ضاربة هناك ، وفى أثناء المعارك قتل على يد رجل من مصر ، وانتهت بذلك مغامرة هذا الرجل الذى ولد فى المدينة المنورة ، ثم هاجر إلى مصر واشتغل بالتعليم ثم تحول إلى محارب مغامر .

وكان نفر كبير من عرب ربيعة وجهينة وغيرهم قد استقروا حول أسوان ، فلما مات العمرى ، وقعت بينهم حرب شديدة للسيادة على منطقة المعادن فى العلاقى ، فانتصر فى الصراع فخذ ربيعة وانفردوا بأرض المعادن ، وصاهروا البجة واختلطوا بهم وقويت شوكتهم بهم .

ويفهم من كلام طويل للمسعودى فى مروج الذهب أن الإسلام عم جماعات

البجة نتيجة لكثرة نزول العرب بلادهم واختلاطهم بهم ، وكان معظم أولئك العرب من ربيعة ، فاشتد ساعدهم بالبجة ، فتمكن أمرهم بأرض المعادن فى العلاقى وكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم ، واختطوا لأنفسهم قرية تسمى النماس فى بلاد المعدن ، وحفروا الآبار وعملوا على نشر الإسلام فى بقية بلاد البجة ، حتى وصل الإسلام إلى جزيرة سواكن ، فاعتنق أهلها الإسلام وعرفوا باسم الخاسة .

وفي الوقت نفسه كانت جماعات أخرى من عرب قحطان وربيعة وقريش ، قد مكنت لنفسها في منطقة أسوان ثم امتدت حتى احتلت نواحى كثيرة فى إقليم مريس والمراد به شمالى النوبة ، ونشرت الإسلام بين أهلها ، وبانتشار الإسلام هناك انقطعت صلة الرق التى كانت تربط الرعايا بالملوك فى النوبة . وتحولت هذه المنطقة إلى بلاد إسلامية ، ولم يبق خارجا عن نطاق الإسلام إلا أهل مقرة الأصليون الذى يسكنون جنوبى الجنادل . وكذلك دخلت فى نطاق الإسلام كل بلاد البجة حتى مصوع . وقد تم ذلك خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى .

وقد اجتهد الفاطميون فى أول استقرارهم بمصر فى مهادنة عرب شمالى السودان والبجة ، وفى تلك الأثناء تمكن زعيم من عرب ربيعة من إنشاء إمارة قبلية فى أسوان ، ومد نفوذها فى إقليم مريس ، وهى أرض النوبة القديمة المعروفة باسم نوباديا أو نباته ، ثم وقعت فتنة بين عرب ربيعة أنفسهم قتل فيها رئيسهم أبو مروان بشر بن إسحق ، فخلفه ابن عمه أبو عبدالله محمد بن على المعروف باسم أبى يزيد إسحق ، فسكنت الفتنة ، ومد أبو يزيد بن إسحاق سلطانه حتى خضعت له كل النوبة القديمة ، وفى حكمه اختلط النوبيون بالعرب ، وأصبحت النوبة عربية نوبية . وتحالف آل أبى يزيد إسحاق سيد ربيعة مع الفاطميين ، وعاونوهم فى القبض على أبى ركوة وهو أمير أموى أندلسى هاجر إلى برقة واجتذب حوله أنصارا كثيرين ، فأراد الانفراد ببرقة فبادر الفاطميون لحربه واستعانوا فى ذلك بأحد أحفاد أبى يزيد ، ويسمى أبا المكارم ، فى القبض على أبى ركوة وقتله سنة (١٠٠٩) م فلقبه الخليفة الحاكم بكنز الدولة ، وأصبح هو وأفراد بيته يسمون ببنى الكنز أو الكنوز ، وهم من ربيعة ولايزالون إلى الآن فى منطقة أسوان ومنازلهم تمتد إلى كرشكو .

فلما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية ، وأقام الدولة الأيوبية سنة (١١٧١) م سارت علاقاته أول الأمر سيرا طيبا مع الكنوز ، ثم طمع فى أرضهم ، ووقعت حروب بين الكنوز ورجال صلاح الدين ، وانتهى الصراع بنزوح الكنوز نهائيا عن أسوان واستقرارهم فى بلاد النوبة ، واختلاطهم بأهلها اختلاطا تاما ، ويعتبر هذا إيذانا بتحول النوبة كلها إلى أرض عربية بالفعل ، وكان ذلك أيام السلطان العادل أخى صلاح الدين الأيوبى ووارث سلطنته .

المسلمون يقضون على مملكة مقرة المسيحية

تقع فرضة عيذاب تجاه مدينة قسطل على النيل فى أرض مريس إلى شمال النوبة ، وميزتها الكبرى أنها تقع قبالة جدة من أرض الحجاز .

ويرجع السبب الأكبر فى انتعاش عيذاب فى ذلك الوقت ، وهو النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، إلى توافد الناس إلى أرض المعادن فى وادى العلاقى من ناحية وإلى سيطرة الصليبيين على سواحل الشام ، وقطعهم طريق البر من مصر إلى الحجاز ، فاتجه الحجاج والتجار المصريون والمغاربة والأفارقة من القاهرة إلى قوص ، ثم إلى أسوان ، ثم إلى المحرقة فى أرض النوبة . ومن هناك يبدأ واد يخترق الصحراء الشرقية ، استخدمه الناس طريقا للتجارة والمواصلات . وهو يشق أرض العلاقى وينتهى عند عيذاب .

ومن أوائل القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى أصبحت عيذاب هى ميناء مصر الرئيسى على البحر الأحمر ، ومنها يبحر الناس إلى جدة . ومع أن عيذاب تقع فى بلاد البجة أو البجاة فإن سلاطين مصر أيام الأيوبيين وضعوا أيديهم عليها ، وأقاموا فيها واليا مسئولا عن الميناء ووادى العلاقى . واعتبرت الإدارة الأيوبية ثم المملوكية رؤساء البجة مسئولين عن أمان هذا الطريق وسمحوا لهم فى نظير ذلك بالحصول على نصف المكوس التى كانت تجبى من المبحرين من عيذاب إلى جدة .

وكانت هناك أجرة مقررة يدفعها المسافرون إلى مكة ، بالإضافة إلى ضريبة خاصة بشريف مكة ، ولا يؤذن لحاج بدخول السفينة إلا إذا أدى الضريبتين معا

للربان ، فلا ينزل الرجل إلى الأرض فى جدة إلا إذا دفع الربان ضريبته لرجال الشريف . ويقرر الرحالة والجغرافيون ومنهم ابن حوقل والإدريسى وابن جبير وابن بطوطة أن البجة نجحوا فى تأمين الطريق والميناء ، حتى أصبح من آمن الطرق فى بلاد المسلمين . وقال ابن جبير : إن المسافر لو ترك متاعه على الطريق وغاب عنه لم يمسسه أحد حتى يعود صاحبه ويأخذه . ولاعجب فى ذلك فقد عرف البجاة بالأمانة ، ولايزال خلفاؤهم وهم البشارية مشهورين بذلك .

وقد زاد سلطان المماليك على عيذاب مع الزمن ، فكانوا يختارون لولايتها رجلا من خيرة رجالهم ، نظرا لما كانت تدره عيذاب من الأموال . وفى أيام السلطان ركن الدين بيبرس ، نجد دولة المماليك تصل جنوبا حتى تصل إلى سواكن سنة (٦٦٤ / ١٢٦٥) . ونتيجة لسيطرة المماليك على هذا الميناء – عيذاب – ووصول سلطانهم إلى سواكن ، أصبحت مملكة مقرة تحت رحمة المماليك المسلمين .

وقد حاول داود ملك جنوب النوبة – أى مقرة – الفكاك من ضغط الإسلام على بلاده ، فقام سنة (٦٧١ / ١٢٧٢) أيام السلطان بيبرس بالإغارة على ثغر عيذاب فتحركت السلطنة المملوكية لدرء هذا الخطر ، وأرسل بيبرس جيشا قويا سنة (٦٧٤ / ١٢٧٦) للرد على عدوان داود ، وتمكنت القوات المملوكية من احتلال دنقلة وطرد داود ، وتعيين رجل آخر من بيته يسمى سكنده أو شكندر (وهو اسكندر) ملكا على بلاد النوبة ، ووقع سكنده مع ممثلى السلطنة المملوكية وثيقة أقر فيها أنه تابع لسلطان مصر ، وأن مملكته جزء من سلطنة المماليك ، وقبل شكندر كذلك أن يؤدى لسلطان مصر نصف دخل بلاده من الجبايات ، ولهذا فإن هذا التاريخ (٦٧٤ / ١٢٧٦) يعتبر حاسما فى تاريخ وادى النيل وتحوله إلى الإسلام . ومن ذلك الحين أيضا نجد أن التقاسيم الإدارية المملوكية تشمل بلاد النوبة ، على اعتبار أنها جزء من مصر .

وقد حاول بعض ملوك النوبة بعد وفاة بيبرس استعادة استقلالهم ، ولكن السلطان قلاوون واصل تقليد بيبرس ، وأولى بلاد النوبة كل اهتمامه . وطال الصراع بين قوات المماليك وملوك دنقلة ، وخاصة سمامون المسمى أيضا كمامون ، وفى سنة (٦٨٥ هـ ١٢٨٦م) أرسل قلاوون حملة كبرى ضم إليها

محاربين من قبائل العرب النازلة فى إقليم قوص وما يليه جنوبا ، وأهمها أولاد أبى بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان ، وأولاد الكنز ، وبنو هلال ، وتولى قيادة الحملة رجل من أكابر قواد قلاوون وهو الأمير سنجر المسرورى ، المعروف بالخياط ، يساعده الأمير عز الدين أيوب السيفى السلاح دار متولى قوص ، أى حاكمها ، وقد تمكنت هذه الحركة من القضاء على سمامون ، واحتلت دنقلة بصورة نهائية ، وأقام قلاوون الأمير أيدمر حاكما مقيما فى دنقلة ، وأقام أميرا نوبيا يسمى سعد الدين ملكا على النوبة تحت إشراف أيدمر .

وهذه الحرب لاتعنى أن المسلمين أدخلوا الإسلام فى النوبة بالسيف ، لأن معظم أهل النوبة كانوا قد أسلموا فعلا ، ولم يبق على المعارضة إلا بقايا البيت المالك السابق وبعض أنصاره ، وكان هؤلاء يريدون أن يستعيدوا السلطان ليعسفوا المسلمين ويضطهدوهم ، فتدخل سلاطين المماليك حماية للإسلام ، وسنرى مصداق ذلك فيما يلى من هذا الحديث .

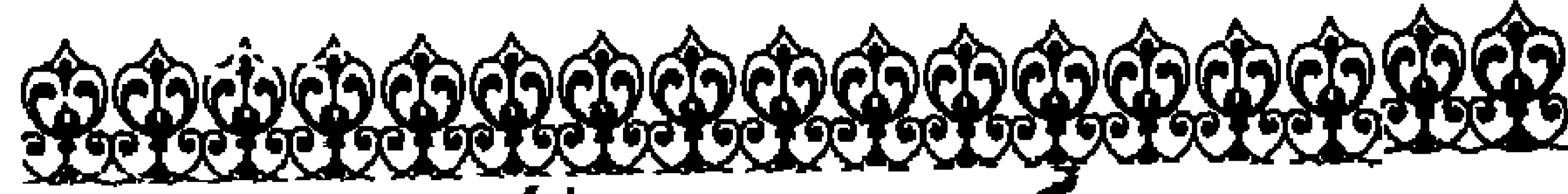
ولم تكن هذه نهاية الصراع بين المماليك وبقايا المسيحية فى مقرة بل توالت حلقاته ، ومن الواضح أن المماليك شعروا بأنه لابد من تحويل السودان كله إلى بلد إسلامى ، مادام أهله قد أسلموا ، حتى تأمن مصر ويأمن السودان أيضا ، فلجئوا فى أثناء الصراع إلى طريقة تدل على ذكاء ، وهى أخذ المعارضين وخاصة الأمراء وزعماء القوم أسرى إلى القاهرة وإسكانهم فى قلعة الجبل ، وإكرامهم والتودد إليهم ، وتحبيب الإسلام إليهم ، فكان الكثيرون منهم يستجيبون للدعوة ويصبحون أنصارا للإسلام . ومن هؤلاء ابن أخت الملك داود ، وهو أمير أسر فى مصر وأسلم ، وتسمى سيف الدولة عبدالله برشمبو النوبى .

فلما استوثق الناصر محمد بن قلاوون منه ومن إسلامه ، اختاره ملكا على النوبة سنة (٧١٦ / ١٣١٦) ، وأرسله مع قوة عسكرية يقودها الأمير أيبك جهارك عبدالملك إلى دنقلة . ولم يجد عبدالله برشمبو معارضة إلا من ناحية بيت كنز الدولة . فقد كان هذا البيت قد اندرج فى أهل البلاد وأصبح نوبيا ، وتطلع إلى الملك ، ومادامت الإدارة المملوكية قد قررت تعيين ملك مسلم على النوبة ، فالأحرى أن يختار ذلك الملك من بنى الكنز ؛ فهم من أصل عربى وهم مسلمون ، وهذه كانت حجة كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز ،

عندما وفد على الأبواب السلطانية طالبا تعيينه واليا على النوبة ، ولكن المماليك كانوا لايثقون فى بنى الكنز ، ففضلوا مرشحهم لأنه كما قالوا تربية أيديهم . وهكذا تربع على عرش النوبة أول ملك مسلم سنة (٧١٧ / ١٣١٧) .

ولكن عبدالله برشمبو لم يحسن الإفادة من الظروف المواتية التى أتيحت له ، فأساء معاملة النوبيين ، وتعاطى نوعا من الكبر لم تجر عليه عادة ملك النوبة ، وعامل أهل البلاد بشدة وغلظة فكرهوا ولايته .

وبعد ذلك بقليل عاد إلى البلاد كنز الدولة قادما من القاهرة ، فلما وصل إلى بلدة الدو (الدر) سنة (٧١٧ / ١٣١٧) التف حوله النوبيون ونادوا به ملكا ، فتقدم والتحم رجاله برجال عبدالله برشمبو وهزموهم وقتل برشمبو فى القتال ، وتولى كنز الدولة الملك ، وقد حاول رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون التخلص من كنز الدولة ؛ لأن المماليك عامة كانوا يكرهون العرب ويخافونهم ، وقد انتصر عليهم أول الأمر ولكنهم تمكنوا من عزله سنة (٧٢٣ / ١٣٢٣) وإجلاس مرشح لهم على العرش . وأخيرا سنة (٨٢٣ / ١٤٢٠) ، تمكن كنز الدول بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز ، من الفوز بالعرش بصورة نهائية . ووقف إلى جانبه عرب النوبة جميعا ، وكانوا هم سبب الفتنة السائدة فى البلاد من زمن طويل ، وإلى هؤلاء العرب يرجع الفضل فى نشر الإسلام فى مقرة فأصبحت هى الأخرى بلدا إسلاميا ، ورغم استقلال كنز الدولة ملك النوبة فإنه من الناحية النظرية كان تابعا لمصر . وقد أنشأ كنز الدولة بعد استقراره فى العرش أول مسجد جامع فى دنقلة . وكانت المسيحية قد تلاشت إذ ذاك تماما من النوبة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد ساعد على القضاء على المسيحية فى النوبة هجرة أعداد كبيرة من عرب بنى جهينة إلى النوبة فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى . وقد كان لعرب بنى جهينة هؤلاء من الأثر فى تاريخ الإسلام فى النوبة مثل ما كان لبنى هلال فى أفريقية والمغرب الأوسط : كلاهما عاث فى البلاد أول الأمر وأشاع فيها الفوضى ، ثم استقروا واختلطوا بالناس ، وأتموا إسلامهم وحولوا البلاد إلى بلاد عربية إسلامية .



نهاية مملكة علوة المسيحية وامتداد نطاق الإسلام والعروبة إلى جنوبي موقع الخرطوم الحالي وانفتاح بقية وادي النيل للإسلام



لم يكن من الممكن أن تظل مملكة علوة – التى تقع جنوبى مملكة مقرة – بمعزل عن الوحدات التى ذكرناها . فقد كانت جماعات العرب تتسرب إلى أراضيها وتستقر فيها ، آتية من مصر والنوبة حينا وعبر البحر الأحمر حينا آخر . ثم إن سلطان مصر المملوكى كان قد وصل إلى أراضيها ، فقد امتد هذا السلطان حتى شمل كل بلاد البجة وشمل دهلك ومصوع[1] . وكان المماليك قد وضعوا أيديهم على ثغر سواكن وكانت ثغر مملكة علوة على البحر الأحمر ، أضف إلى ذلك أن كنيسة علوة كانت تابعة قبل زوالها لكنيسة الإسكندرية .

ولكن الزحف الإسلامى هدد علوة من ناحية الجنوب الشرقى : من ذلك الإقليم الواسع الواقع جنوبى دارفور ، والممتد إلى إقليم بحيرة تشاد . هناك كان يسكن قبيلة من الناس يسمون زغاوة أو زواوة ، وهم مجموعة من القبائل البربر المسلمة ، زحفت إلى الجنوب واستقرت فى واداى ودارفور وكردفان من زمن بعيد . وكان لهؤلاء الزغاويين نشاط تجارى كبير ، ومع قوافلهم سار دعاة الإسلام ، ولهذا نجد أن الزغاوة على الرغم من قلة معرفتنا بهم لهم أثر كبير فى نشر الإسلام ، فى

---

(١) قال ذلك الأب فرانسيسكو الفاريت الذى قام برحلة إلى أفريقية للبحث عن مملكة الأسقف يوحنا المسيحية التى قيل إنها فى وسط آسيا ، ثم قيل إنها الحبشة . وقد قرأت ملخصا لكتاب رحلته فى دائرة معارف « اسباسا كالبى » الأسبانية فى مادة الحبشة . وهو رجل متعصب شديد الكراهية للإسلام والمسلمين ، وهو ينكر وجود الإسلام فى معظم نواحى شرق إفريقيا والسودان ، ويقول دائما إن الناس فى كل مكان ينتظرون رسل المسيحية ، وقد أعطانا عن الحبشة ومسيحيتها صورة بشعة جدا ، وظاهر من كلامه أنه يضرب صفحاً عن انتشار الإسلام فى بلاد علوة ، ولكن يهمنا من كلامه قوله بأن المسيحية كانت قد تلاشت من هنا ، وقد أشار إلى الأب الفاريت د . مصطفى محمد مسعد فى كتابه عن الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى صـ ١٨٦ ولكنه لم يقرأ موجز رحلته الموجودة فى مادة Abisinia فى دائرة معارف **ESPASA CAlpe** الأسبانية .

المناطق الواقعة بين حوض النيل ، وإقليم تشاد . ثم نجدهم يغيرون على أراضى مملكة علوة ، ويشكو الملك أدور ملك علوة (وكان يلقب بملك الأبواب نسبة إلى مدينة الأبواب ، عاصمته ، وتقع على نهر النيل جنوبى مدينة مروى القديمة) من عدوانهم على ناحية من بلاده تسمى الأنج أو العنج .

ثم إن عرب قبيلة جذام انسحبوا من الصعيد جنوبا ، ودخلوا بلاد الزغاوة وسيطروا عليها ، ومن هناك أخذوا يغيرون على كل ما جاورهم حتى شكاهم ملك البرنو إلى السلطان الملك الظاهر أبى سعيد برقوق سنة (٧٩٤ / ١٣٩٢) .

ويلاحظ كذلك أن العلاقات المباشرة بين كنيسة الإسكندرية وكنائس علوة قد انقطعت منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، فلم تعد مصر ترسل أساقفة أو قساوسة إلى النوبة ، فخلت الكنائس من القساوسة وهجرها الناس ، وأخذت تتداعى ، وقد قرر سائح برتغالى زار النوبة أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، قال : « إن هؤلاء النوبيين يجهلون ديانتهم ، فلاهم بالمسيحيين ولاهم بالمسلمين ولابالیهود ، ويقال : إنهم كانوا على النصرانية ، غير أنهم فقدوا دينهم ، ولم تبق لهم عقيدة ويأملون أن يكونوا مسيحيين[1] .

وإذا كانت مملكة علوة سائرة فى طريق الاضمحلال والتفكك من أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، فإن القضاء عليها تم فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى (العاشر الهجرى) ، وكان الذين أجهزوا عليها هم العرب والفونج حلفاؤهم .

ذلك أن سقوط مملكة علوة وتحولها إلى بلاد إسلامية يسكنها عرب ونوبيون مسلمون ، يختلط بعضهم ببعض شيئا فشيئا ؛ فتح الباب أمام هجرة عربية ضخمة تشبه هجرة قبائل الهلالية إلى المغرب فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . تلك هى هجرة قبائل جهينة . ولم تكن كلها من الجهنيين ، بل غلب هذا الاسم على مجموعة ضخمة من القبائل العربية انسابت من صعيد مصر إلى أرض البطانة (أى النوبة) واستمرت فى سيرها حتى استقرت فى أرض الجزيرة

---

(١) كانت جزر دهلك قد دخلت فى الإسلام من زمن بعيد ، فقد كانت معدودة من توابع بلاد العرب ، وكانت تتبع فى الغالب صاحب السلطان فى اليمن ، وفى العصر العباسى كانت دهلك منفى للمغضوب عليهم من الخلفاء ، وكان الاسم يطلق على الجزر وشاطىء أفريقية المقابل لها .

بين النيلين الأزرق والأبيض ، واتخذت مواطن لها على ضفاف النيل الأزرق حول موقع مدينة سنار . وكما تدافعت قبائل البربر من لواتة وهوارة ونفوسة إلى الغرب أمام موجة الهلالية ، فكذلك تهارب أهل النوبة وعلوة إلى الجبال أمام الموجة الجهنية ، وطلبوا الأمان فى جبال حوزا وكامبا وشمال كردفان . ولم يصدق ابن خلدون عندما حمل على الجهنيين واتهمهم بتخريب البلاد فى طريقهم ؛ لأن الذى ثبت بعد البحث أنهم كانوا قوما مسالمين ، يزحفون طلبا للأرض الخصبة والمرعى ، وأنهم أصبحوا سادة هذه البلاد عن طريق المصاهرات مع النوبيين والعلاقات الطيبة معهم . وإذا كانت الفوضى قد سادت عقب استقرارهم فى البلاد ، ودامت وقتا طويلا ، فقد كان سببها الحروب بين العرب أنفسهم ، لا الصراع بينهم وبين أهل البلاد ، بالضبط كما فعل الهلالية فى المغرب .

وقد انتشرت هذه القبائل فى أرض الجزيرة كلها ، وكان بعضها من عرب الشمال أى العدنانية ، وبعضها من عرب الجنوب أى القحطانية ، ومن سلائل العدنانية فى الوقت الحاضر الكواهلة (بنوكاهل) والمجموعة الجعلية والرشايدة (هؤلاء هاجروا إلى السودان عبر البحر الأحمر من الحجاز والباقون أتوا من مصر) أما القحطانيون فيمثلهم الجهنيون .

وينتسب إلى الكواهلة البشاريون (من البجة) ، وبنو عمار من البجة أيضا ويسكنون من أحواز سواكن إلى أريتريا . ولهذا فالأغلب أن الكواهلة (من العدنانيين) نزلوا أول الأمر فى بلاد البجة على ساحل البحر الأحمر ، ثم انساحوا غربا فى حين سارت بقية الجهنيين مع النيل ، حتى ملتقى النيلين وأرض الجزيرة ومناطق النيل الأزرق ، وكان الكواهلة ينزلون الأرض بإذن من أهلها ، ويدفعون لأهلها مالا أشبه بالإيجار ، فإذا كثرت أعدادهم وثبتت أقدامهم ، وضعوا اليد على الأراضى وادعوا ملكيتها .

أما المجموعة الجعلية فتجمعت حول النيل الأبيض جنوبى الخرطوم الحالية ، وامتدوا شمالا حتى دنقلة وجنوبها ، وتكاثروا فى أرض الجزيرة والنوبة واتجهوا إلى الغرب نحو كردفان . وكانوا فى كل مكان يختلطون بمن يعاونونهم من عرب قدامى ونوبيين وسودانيين .

وينسب الجعليون أنفسهم إلى إبراهيم الملقب بجُعَل ، وهو من نسل العباس ابن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم . ومن الواضح أن الجعليين لم يكونوا من أول الأمر قبيلة واحدة بل كانوا قبائل شتى تجمع بعضها إلى بعض كما كانت الحال مع الجهنيين ، ويغلب على الظن أنهم بدءوا الزحف من صعيد مصر إلى الجنوب من أوائل القرن العاشر الميلادى ، ولكن جماعاتهم لم تتعاظم إلا فى القرن الرابع عشر ، وعندما سقطت دولة مقرة اندفعوا إلى الجنوب فى القرن الخامس عشر .

والراجح أن الجعليين ساروا مع الجهنيين ، فلما وصلوا إلى جنوبى ملتقى النيلين افترقوا ، فأما الجعليون فقد اتجهوا شمالا بشرق حتى دنقلة ، وكانوا عربا حضرا فاستقروا ونشروا الثقافة العربية ، واختلطوا بالناس وذابوا فيهم حيث وصلوا ، وأما الجهنية ــ وهم مقاربون للجعليين فى الأعداد – فقد اتجهوا إلى حوض النيل الأزرق فى جزيرة العرب ، ثم عبروا النيل إلى أرض البْجة أرسالا من وقت مبكر يصعب تحديده ، ثم أخذوا يتوسعون حتى وصلوا سواكن فى القرن الثالث عشر ، ثم لحقت بهم الموجة الكبرى من بنى جنسهم ، وهم جهنيون هاجروا إلى صعيد مصر وتكاثروا فيه ، وانضمت إليهم قبائل أخرى أهمها بنو رفاعة ، ثم انساحوا نحو الجنوب كما ذكرنا .

والخلاصة أن الجهنيين ومن انضم إليهم من الجعليين وبنى رفاعة أزالوا مملكة علوة المسيحية ، وأزالو أثر هذه الديانة من وادى النيل ، وانتشروا فى بلادها من النيل الأزرق إلى كردفان ، فى حين قام عرب الكنوز ومن انضم إليهم بإتمام إسلام بلاد النوبة وشمالى السودان إلى ملتقى النيلين وبعض أرض الجزيرة .





العرب ونشر الإسلام



وهنا موضع ملاحظة لابد أن نبديَها ، ونحن نتكلم عن هجرات العرب وما أدت إليها من تعريب أهل البلاد التى هاجروا إليها وإتمام إسلامهم . فإن الذى يفهم من كلام ابن خلدون ، ومن تابعه من المؤرخين المحدثين ، وخاصة الغربيين منهم ، هو أن العرب فى هجراتهم كانوا يجتاحون البلاد اجتياحا ، وينهبون مايصادفهم من خيراتها ويعتدون على أهلها ويسومونهم خطة الخسف . وقد خصص الفصل السادس والعشرين من الباب الثانى من أبواب المقدمة وموضوعه : « العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض فى ذلك من الأحوال »[1] للكلام فى موضوع العرب والعمران ، وقال : الفصل السادس والعشرون فى أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب[2]

« والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم ، فصار لهم خلقة وجبلة ، وكان عندهم ملذوذا ، لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة ، وهذه الطبيعة منافية للعمران ، ومناهضة له ، فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب ، وذلك مناهض للسكون الذى به العمران ومناف له ، فالحجر مثلا إنما حاجتهم اليه لنصب أثافى القدر ، فينقلونه من المبانى ، ويخربونها ويعدمونها لذلك ... » إلى آخر ذلك الكلام الذى يستطيع القارىء مراجعته فهو مطبوع بأيدى الناس ، وإنما نحن نناقشه هنا وندحضه لأن

---

(١) ابتداء الباب الثانى فى ص (١١١) من المقدمة ، طبعة دار الشعب فى القاهرة بدون تاريخ .
(٢) ص (١٣٤) ومابعدها من طبعة المقدمة السابقة نفسها .

رأينا فى الأمر يختلف عن رأيه كل الاختلاف ، فإن الذى نعرفه من حقائق التاريخ ، هو أن العرب دخلوا بلاد عمران وحضارة قديمة قائمة فى العراق والشام ومصر ، فما هدموا مدينة ولانقضوا بناء ، ولا أخذوا أحجار الأبنية ليتخذوها أثافى للطبخ ، ولا انتزعوا سقوف البيوت لإيقاد النار ، وإنما الذى نعرفه أن عمران العراق والشام ومصر زاد بدخول العرب ، وزادت فيها المبانى واتسعت خطة الزروع ، وفى البلاد التى كانت قبلية قبلهم استقر الناس وأنشئوا المدن ، فما كان فى هضبة إيران قبل الفتح العربى مدينة تسمى مدينة شرقى همذان ونهاوند ، وإنما كانت كلها محلات وقرى صغيرة تتناثر مثل الواحات ، أو جزائر الصحراء ، حتى جبال طُخارستان ، فمُدنت القرى وتحولت محلات الواحات إلى مدن كبرى بما استنبط العرب من أساليب تجميع المياه وخزنها تحت الأرض فى الجباب ، وجمعها فوق الأرض فى الصهاريج وشق الترع ليجرى فيها الماء ويروى الأراضى الواسعة ، ولفظ قناة الذى انتقل إلى لغات العالم كلها عربى ، لأنهم كانوا أول من أجرى القنوات بنظام محكم ، ونقلوا إلى كل بلد دخلوه نظام حفر القنوات التحتية على نظام (الكظامات) التى كانت معروفة عندهم فى بلادهم ، وكانت الكظامات تحفر فى باطن الأرض لتوصل مياه العيون بعضها ببعض حتى يمكن حفر آبار بين العين والعين لرى الأرض وعرفوا هذه القنوات التحتية باسم المجارى ، وبفضل شبكات المجارى العربية نشأت مدن كبرى مثل ، مراكش ومجريط فى الجناح الغربى لعالم الإسلام ، ومرو ومرو الروذ وهراة وبلخ ، وما إليها فى الجناح الشرقى .

وحقيقة الأمر أن كلام ابن خلدون لايصدق إلا على جماعات قليلة من الأعراب ممن انسلخ عن جماعات القبائل الكبرى وشذ عنها ، وعاش على حافات بلاد العمران والأرياف ، ممن لايقاس عليهم ولاتصدر الأحكام بناء على تصرفاتهم .

أما العرب ، عرب الجماعات القبائلية الكبرى التى هاجرت إلى الأمصار خلال موجة الفتوح الأولى فى صدر الإسلام ، وعرب الجماعات القبائلية الكبيرة التى هاجرت إلى بلاد مصر والمغرب والسودان ، ابتداء من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، فلم يكونوا أهل نهب وتخريب ، بل كانوا أهل تعمير وتحضير وتعريب ونشر إسلام ، فما كان عرب بنى عامر بن صعصعة ومن صاحبهم من بنى سليم بن منصور (وكلهم من مضر) ، بأهل نهب وسلب ، ولاهم خربوا

بلاد المغرب ، وإنما كان الخراب قد استشرى فيه قبل دخولهم بسبب سوء حكم الدول التى توالت على حكم المغرب قبلهم من بنى الأغلب والفاطميين من بعدهم ، ومن عجب أن يقال : إن بنى هلال وبنى سليم بن منصور لما دخلوا المغرب فى منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى خربوه ! فكيف لم يخربوا صعيد مصر قبل ذلك ، وقد أقاموا فيه قبل ذلك دهرا ؟ وكيف تحولوا إلى نهابين بمجرد دخولهم أرض المغرب ؟! إن قصة كيفية دخول الهلالية كلها إلى المغرب مشكوك فيها ، وقد ناقشناها بما فيه الكفاية فى كتابنا فى تاريخ المغرب ، ونفينا عن العرب تهمة التخريب التى لصقت بهم من أيام ابن خلدون .

ويهمنا أن نؤكد هذا المعنى ، ونحن الآن نتحدث عن دخول أمم كثيرة عالم الحضارة والدين ، والبناء والتعمير ، على يد العرب الذين دخلوا البلاد مهاجرين آمنين . فهؤلاء لم يخربوا ولم يدمروا ولاهم استذلوا الناس وأخضعوهم للمغارم ، وإنما هم اختلطوا بهم وصاهروهم ، وعلموهم الإسلام واللغة العربية . فأما العرب الأول فقد كانت فيهم إنسانية ومروءة بسبب قربهم من عصر النبوة ، فكان الناس يألفونهم ويحبونهم ويسعون إلى الاتصال بهم ، ففى الأندلس كان أهل البلاد يجدون فى العربى عشيرا حسنا وصديقا ودودا ، فانتشر العرب آمنين فى شتى النواحى ، وصاهروا الناس وصاروا منهم ، حتى من بقى فى بلاد المسلمين من القوط ، وكانوا هم الأعداء الذين أزالهم العرب من الطريق ليوصلوا الإسلام إلى أهل البلاد ، حتى أولئك القوط استعربوا وصاهروا العرب ، وصار أبناؤهم عربا بالروح ، وظهر من بينهم علماء وأدباء يزدان بهم تاريخ الإسلام من أمثال أبى بكر ابن القوطية الفقيه المؤرخ ، وهو حفيد سارة القوطية من بنات الملوك ، وعبدالملك ابن بشكوال ، وجده بشكوال كان أسبانيا نصرانيا .

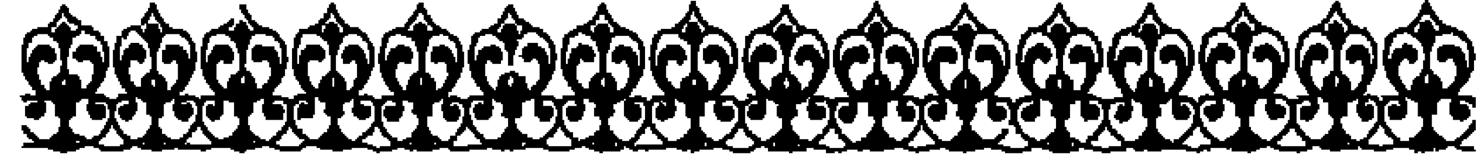
ولاحاجة بنا إلى الكلام على ما كان من تقارب وتآخ بين العرب الأول وأهل البلاد ، حتى أن رجال القبائل كانوا يتنافسون على العرب ، فتجتهد كل قبيلة فى أن ينزل بها عربى ، فيبدأ معلما لأفرادها وينتهى رئيسا لها ، ويتزوج منها ويسرع بإسلامها ، وخاصة إذا كان من آل البيت ، من آل إدريس بن عبدالله بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب ، أو أخيه سليمان .

ولم يكن الهلاليون مكروهين من أهل المغرب ولا مخربين لديارهم ، وإنما هم دخلوا بلادا تسودها الفوضى ؛ فخاضوا معركة بقاء انتهت باختلاطهم بالناس وإسراعهم بإسلامهم ، ولولا الهلالية لما تم إسلام أهل المغرب وتعريبهم على النحو الذى نراه اليوم ، وهذا هو السبب فى كراهية المستشرقين الفرنسيين لهم ، وحملتهم عليهم مستعينين بكلام ابن خلدون ، والسبب فى الكراهة أن الهلالية هم الذين أكملوا استعراب المغرب ، فلما دخل الفرنسيون وحاولوا زحزحة الناس عن الإسلام استحال عليهم ذلك ، وظل أهل المغرب عربا مسلمين وهزموا الفرنسيين فى النهاية .

وهنا أيضا فى السودان نجد أن ماكمايكل وغيره من الباحثين الإنجليز يكرهون بنى رفاعة وجهينة وبنى الكنز ، ويزعمون أنهم نهبوا البلاد وخربوها ، والسبب فى تلك الحملة أنهم يعرفون أنه لولا الجهنيون والجعليون وبنو رفاعة لظل مركز العروبة والإسلام قلقا فى السودان ولاستطاعوا أن ينفذوا سياستهم فى السودان .

والحقيقة التى أريد أن أصل إليها بهذا الكلام هى أن هجرات العرب سواء أكانت فردية أم جماعية كانت من أقوى العوامل فى نشر الإسلام فى نواحى الأرض . ولقد تولت شعوب إسلامية كثيرة فتح البلاد للإسلام مثل الفرس والترك بشتى صنوفهم ، ولكن العرب وحدهم هم الذين فتحوا البلاد والقلوب معا . وجعلوا مما فتحوا بلاد عروبة وإسلام حقا ، كما ترى فى فتوح العراق والشام ومصر والمغرب والسودان ، أما ما فتحه غيرهم فلا يصل قط إلى هذه النتيجة الحاسمة ، وإليك ما فتحه الأتراك العثمانيون من بلاد أوربا ، فإنه لم يخلف على ضخامته إلا إسلاما قليلا ، وكان الأفغان وأبناء المغول أحسن حظا فى الهند ، ولكن العرب كانوا أنجح الجميع ؛ للخصائص الإنسانية التى ذكرناها ، وسبحان ربك الذى اختار نبيه من بين هذا الجنس الطيب الحسن العشرة القريب من القلوب ، وفتح به البلاد وقلوب العباد ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته .





مملكة الفونج



هذه أول دولة إسلامية ذات قواعد سياسية وإدارية ، ونظام قائم ، تظهر فى السودان النيلى جنوب مصر . وعلى الرغم من أن ألقاب ملوكها تبدو أحيانا غير عربية ، فإن الفونج أنفسهم يقولون إنهم عرب ، وكانوا يدونون وثائقهم بالعربية ، وكانوا ينسبون أنفسهم إلى بنى أمية . ولابد لهذا أن نعتبرهم دولة عربية إسلامية كما اعتبروا هم أنفسهم .

وقد اختلفت الآراء فى الطريق الذى دخلوا به منطقة ما بين النيلين . فيقول بعض المؤرخين : إنهم دخلوا وادى النيل من الغرب ، وإنهم فرع من ملوك البرنو . وهناك من يقولون إنهم كانوا فى الأصل فرعا من قبائل الشلك . أما هم فيقولون إنهم من نسل أمراء بنى أمية الذين فروا من العباسيين : ذهبوا إلى الحبشة ثم صعدوا مع النيل الأزرق حتى منطقة سنار . ويؤيد هذا الرأى المسعودى والمقريزى .

وعلى أى حال فقد كان الفونج يعتبرون أنفسهم دولة عربية إسلامية ، وعلى هذا الأساس ينبغى أن نأخذهم ، وقد ظهروا فى وقت اشتدت فيه الحاجة فى وسط السودان إلى دولة قوية ، تقر النظام ، وتؤمن الناس ، لأن دولة علوة – وتسمى فى النصوص السودانية بدولة العنج – كان أمرها قد ضعف تماما وتكاثرت القبائل العربية فى بلادها ، وقامت الحروب بينها حتى أصبح حوض النيل الأوسط مقسما إلى ممالك ومشيخات كثيرة لاتكف عن الحروب فيما بين بعضها وبعض ، وكانت تسود كل منطقة قبيلة قوية تتمكن من إشعار البقية بقوتها ، ورئيسها يسمى شيخ المشايخ ، ويلقب بالمل أو المانجل . وكانت نتيجة هذه الفوضى أن تعطلت

التجارة ، بل نلاحظ أن التجارة مع مصر اضطربت تماما فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى ، وظهرت الحاجة إلى إقامة نظام سياسى يشمل هذه المنطقة كلها ويقر الأمن فيها .

فى هذه الظروف ظهر رجل قوى موهوب ، هو عمارة دنقس من بين قبائل الفونج ، التى استقرت فى منطقة سنار على النيل الأزرق ، وكان مركزهم فى جبل مويا على بعد (٢٠) كيلومترا تقريبا إلى غرب سنار الحالية ، فجمع رجاله وقرر القيام بالقضاء على بقايا دولة العنج ، وإقامة نظام إسلامى جديد ، ثم تحالف مع عبدالله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة وحلفائه الكثيرين ، وكانوا يسودون المنطقة الواقعة عند ملتقى النيلين ومايليها شمالاً . وفى سنة (٦١٠ / ١٥٠٥) التقى الحلفاء مع قوات العنج عند بلدة تسمى أريجى وكان قد أسسها عربى يسمى حجازى بن معين حوالى سنة (١٤٤٧) ، وانتصروا على العنج ، وفرت بقاياهم إلى جبال فازوغلى وكردفان ، واختفت بقيتهم فى سكان البلاد من المسلمين ودخلوا الإسلام .

وعقب ذلك قامت دولة الفونج وحدودها من سواكن شرقا إلى النيل الأبيض غربا ، ومن أقصى جبال فازوغلى جنوبا إلى الشلال الثالث شمالا ، أى أنها شملت معظم أراضى مملكتى مقرة وعلوة السابقتين .

وقد انفرد عبدالله جماع بالقسم الشمالى من المملكة ، وجعل عاصمته مدينة قرى (قرب خانق سَبْلوقة) . أما عمارة دنقس فقد بسط سلطانه على الجنوب واتخذ مدينة سنار عاصمة له ، ويقال : إنه هو الذى أنشأها .

وكانت حدود المملكة من الشمال بلدة حنك ، وعندها تبدأ الحدود الجنوبية لمصر المملوكية فى ذلك العصر . وحنك تقع عند الشلال الثالث ، ويذهب نعوم شقير[1] إلى أن مدينة أريجى (قرب المسلمية) أصبحت الحد الفاصل بين منطقة نفوذ عمارة دنقس ومنطقة نفوذ عبد الله جماع . وكان كلاهما لايحكم مباشرة بل عن طريق المكوك أى شيوخ القبائل . ويقال إن انفراد عبدالله بالمنطقة الشمالية كان فى أواخر أيام عمارة دنقس .

---

(١) تاريخ السودان القديم والحديث (القاهرة ١٩٠٤) (حـ ٢ ص ١٠٨) .

وعندما قامت دولة الأتراك العثمانيين مدت حدودها من مصر جنوبا حتى سواكن ومصوع ، فقد احتلتهما ووضعت فيهما حاميتين عسكريتين ، وذلك بعد ثلاث سنوات من استيلاء العثمانيين على مصر ، أى سنة (١٥٢٠) ، وعرف عمارة دنقس كيف يقنع سلطان العثمانيين بأنه ملك مسلم ، وأن سكان بلاده عرب مسلمون ولاداعى لأن تخشاهم الدولة العثمانية على سلطانها .

وقد تعاقب على مملكة الفونج بعد عمارة دنقس ثلاثة ملوك أقوياء ثم أخذت تضعف ، وفى أيام الملك عدلان وداى الذى انتهى سنة (١٦١١) قامت الحرب بين بلاد عبدالله جماع (العبدلاب) ومملكة الفونج ، وكان شيخ العبدلاب يسمى عجيب ، وقد انهزم الشيخ عجيب وقتل وفرت عائلته إلى دنقلة ، فقام رجل صالح هو الشيخ إدريس ود الأرباب وتوسط بين الجانبين ، وتم الصلح بينهما وأذن عدلان لعجيل بن عجيب بأن يعود إلى منطقة سلطان أبيه ، وكان عجيب الذى ذكرناه ذا عناية كبيرة بالدين والثقافة ، فكان يكرم العلماء والصالحين ، وقد أنشأ رواقا للسنارية فى الأزهر وآخر فى مسجد المدينة المنورة .

ومع أن عدلان وداى أثبت كفاية فى عمله فإن أهل مملكة الفونج عزلوه ، وأقاموا مكانه بادى سيد القوم وسلك مع العبدلاب سياسة عنف وقوة ، وانتزع السلطان على الأقاليم الشمالية من يد الشيخ عجيب ووضع يده على دنقلة وكانت مركز الحدود والجمارك بين المنطقتين .

وفى أواخر سنوات حكم الفونج استقلت قبائل الشايقية التى كانت تسكن منطقة حلفا فى منطقة العبدلاب . وكان هذا مظهرا من مظاهر تفكك مملكة سنار ، فقد انقسمت إلى مشيخات قبلية كل منها مستقلة فى ناحيتها ، ومن أقوى هذه المشيخات : العبدلاب والجلاليين والمجاذيب والميروفاب والشايقية . وكانت هذه الأخيرة تسكن أبعد هذه المناطق إلى الشمال ، وكانوا قبائل شتى لاتنقطع الحرب بينها . وكانوا يسيطرون على منطقة وادى حلفا كلها ، ويملكون أكبر مدن المنطقة مثل أبى حمد ومروى وكورتى .

وكانت كل هذه الجماعات القبلية السودانية التى نشأت عن تفكك دولة الفونج تعتبر نفسها قبائل عربية ، وكان دينها الإسلام ، وكان أفرادها يتمسكون به تمسكا

شديدا ولكن على طريقتهم . فقد كان العلماء والفقهاء من مصر قد تكفلوا بتعريف أهل السودان بالإسلام ، وأتم هذه المهمة طلاب السودان الذين رحلوا لطلب العلم في مصر أو فى الحجاز ، وعادوا فقهاء وشيوخا أجلاء ، ومن هؤلاء أولاد جابر الأربعة : إبراهيم ، وعبد الرحمن ، وإسماعيل ، وعبدالرحيم ، وهم أولاد جابر بن عون بن سليم بن رباط بن غلام الله والد السادة الركابية ، ولكنهم درسوا فى الأزهر وعادوا إلى مواطن الشايقية ، ونفع الله بهم خلقا كثيرين ، وقد هاجر أيضا إلى بلاد الفونج نفر من علماء الأزهر أشهرهم الشيخ محمد القناوى ، وقد علّم في بربر وأريجى وسنار ولكنه استقر فى بربر وأنشأ فيها مسجدا يصلى ويلقى دروسه فيه ، وتخرج على يديه الكثيرون من أوائل علماء السودانيين .

ومن الحجاز وفدت الصوفية على بلاد الفونج ، وكان أول حملتها الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى ، وكان من شيوخ الطريقة القادرية الجيلانية ، وعلى يديه انتشرت الطريقة القادرية الجيلانية فى السودان ، وكان ذلك فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، وقد لقيت الصوفية وطرقها بعد ذلك فى السودان قبولا عظيما ، لأن الطرق الصوفية تلقى من الجماهير قبولا أكثر مما يلقاه العلم والفقه . وفى العصور الوسطى المتأخرة أصبحت الطرق الصوفية وسيلة عامة ميسرة للجماهير للتعبد والتنظيم الجماعى والتسلية أيضا ، ولم يعد من الضرورى أن يكون رجل الطريقة رجل تبحر فى العلم ، لأننا هنا أمام ظاهرة اجتماعية لاظاهرة دينية .

وكانت مملكة سنار أرضا خصبة لدعوات الصوفية ، فالناس هناك طيبون على جانب كبير من طيبة القلوب وصفاء السريرة ، وهم صادقون فى إيمانهم بالإسلام ولكن علمهم بالإسلام كان قليلا ، لايزيد على القدر الذى يكفيهم للقيام بالعبادات ، وكانوا يعتبرون مرتعا خصبا للصوفى ، سواء أكان صادقا أم غير صادق . فإذا كان من أولئك القادرين على القيام بالأعمال التى تبدو للناس وكأنها خوارق فقد انفتح أمامه طريق السيطرة على القلوب ، وخاصة عندما تلم بالناس النوائب كالمرض وكوارث الطبيعة . وهكذا يمكن تعليل نجاح الطريقة الشاذلية ، التى دخلت السودان قبل قيام مملكة الفونج على يد الشريف أبى دنان سنة (١٤٤٥) ، ثم رسخت بتشجيع ملوك الفونج وبفضل الشيخ خوجلى عبدالرحمن

المتوفى سنة (١٧٤٣) م ، وهو شيخ صوفى جليل ، وشيئا فشيئا نجد أن المجتمع السودانى كله ينتظم فى شبكة واسعة من الطرق الصوفية . وقد أعانت هذه الطرق على تعميق الإيمان بالإسلام فى قلوب أهل السودان جميعا من ناحية ، وعلى ربط السودانيين المسلمين بعضهم ببعض من ناحية أخرى ، لأن الطريقة الصوفية حلت فى أحيان كثيرة محل القبيلة ، فبدأ السودانيون يترابطون فيما بينهم برباط آخر غير الرباط القبلى : رباط الدين الواحد والطريقة الصوفية ، وتلك هى الخطوة الأولى نحو ارتباط الجماعات الإسلامية برابطة الوطن الواحد ، وهذا تطوير بعيد المدى فى تاريخ وحدة وادى النيل ، وقد تم بفضل الإسلام المبارك ، فقد خرج أهل السودان من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الإسلام ، ودخلوا ميدان التاريخ وأصبحوا أعضاء فى أمة الإسلام الكبرى .

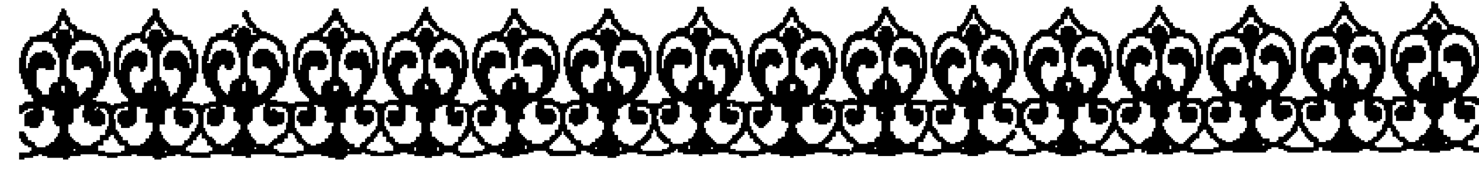
وكانت أولى علائم دخول السودان ميدان التاريخ محاولة محمد على صاحب مصر فتح السودان ابتداء من سنة (١٨٠٧) ، وتوسيع حدود مصر حتى تشمله ، وقد بدأت العملية سنة (١٨٢٠) ، ومهما قيل فى محاولة محمد على فتح السودان ، فهى فى الحقيقة كانت نداء قويا أيقظ السودان — النوبة القديمة — ونبه أهله إلى أنه قد أصبح عضوا فى أسرة الإسلام والعروبة الكبرى ، وأن عليه أن يأخذ نصيبه من آلام هذه الأسرة ومسراتها .

والسودان ، ذلك البلد العربى العزيز ، من البلاد التى دخلها الإسلام دون حرب ، دخلها بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، فدون تدخل من أى دولة إسلامية كان الإسلام يسرى فى بلاد السودان فى هدوء ويملأ القلوب ، حتى أصبحت الدول المسيحية هناك مظهرا لاينطوى على مخبر ، ولم يكن متمسكا بالمسيحية هناك إلا البيوت الحاكمة ، ونفر من القساوسة علمهم بالإسلام قليل . وما فعل بنو رفاعة والجهنيون أكثر من إتمام عملية كانت تسير فى طريقها فى هدوء .

وقد كان لابد أن يتحول السودان النيلى إلى بلد إسلامى ؛ بسبب قربه الشديد من جزيرة العرب ، واستمرار هجرات العرب إلى بلد السودان عبر البحر الأحمر ، ولكن العملية تأخرت بعض الشىء ، لأنه لابد لسيادة الإسلام الفعلية فى أى بلد ما من تنظيم يتولى العمل ، ورجال يسألون عنه ، وهذا هو الذى قام به بنو رفاعة وعرب جهينة ودولة الفونج ، ثم واصلت مصر العمل أيام محمد على ، وإن كانت

أساليب الإدارة المصرية أيام محمد على لم تكن منصفة لا لأهل السودان ولا لأهل مصر . ومع ذلك فقد كانت وحدة مصر والسودان أيام محمد على وما بعدها إلى أواخر أيام إسماعيل من أكبر العوامل فى إتمام إسلام السودان ، ولولا أن إسماعيل الخديو عهد فى إدارة السودان لزبانية الاستعمار ، من أمثال السير صمويل بيكر ثم تشارلس غوزدون ، لأصبح السودان كله من شماله إلى جنوبه إسلاما خالصا ، بل لامتدت دولة الإسلام حتى شملت وادى النيل كله ، فقد أنشأت مصر أيام إسماعيل مديرية خط الاستواء أو أكواتوريا ، وفتحت طريقا ثانية لنشر الإسلام فى مناطق منابع النيل ، وتوافد العلماء والفقهاء من مصر إلى هناك . وما أفسد هذا العمل الجليل كله إلا الإنجليز ، وهم وراء متاعب العالم العربى كله من السودان إلى فلسطين .





الإسلام في بقية شرق أفريقية



يبدو للناظر من بعيد أن انتشار الإسلام فى أفريقية أمر لا يحتاج إلى طول بحث ، نظرا لموقعها الجغرافى على الضفة الغربية للبحر الأحمر ، فى مواجهة الحجاز ، وهو مهد للإسلام ، واليمن ، وهو أيضا مركز رئيسى من مراكز الدعوة إلى الإسلام ، ثم نظرا للعلاقات الوثيقة التى ربطت شرق أفريقية بالجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده .

ولكن شرقى أفريقية وخاصة فيما يتعلق بما يقع منه إلى الجنوب من السودان النيلى معقد التركيب الجغرافى والبشرى ، وأبسط مايدل على ذلك أن مصر والسودان الشمالى والأوسط قد تم تعريبهما من قرون بعيدة ، بينما لم تتعرب ألسنة سكان الصومالات بعد . وهذا يبدو غريبا لأن شرقى أفريقية المواجهة لجزيرة العرب – بما فى ذلك الحبشة – تلقى من جزيرة العرب لغاته السامية وعناصر حضارته الأولى قبل الإسلام بزمان طويل . وكان الذين أقاموا مملكة أقشوم أو أكسوم القديمة مهاجرين من اليمن إلى إقليم تيجراى .

أما المسيحية فقد وصلت إلى نفس هذه المنطقة (الحبشة) وافدة من مصر ، وقد حملها إلى هناك راهبان مصريان اسكندرانيان فى قصة معروفة . ونحن إذا شككنا فى القصة ، فإننا لانستطيع الشك فى نتائجها ، وهى أن مملكة أقشوم أصبحت بلادا قبطية الديانة ، أى مسيحية على المذهب المينوفيزى أى مذهب الطبيعة الواحدة الذى سمى فيما بعد بالمذهب اليعقوبى ، وأصبحت أقشوم والحبشة تابعتين للكرازة المرقصية، أى الكنيسة المصرية المنسوبة إلى الحوارى مرقص ، ومن الإسكندرية كان – ولايزال – يفد على الحبشة أسقف كنيستها ،

إذ إنها كانت أسقفية تابعة للإسكندرية ، ولم يصبح أسقف الحبشة مطرانا إلا فيما بعد . وإلى هذا الخيط الرفيع الذى يربط الحبشة بالإسكندرية يرجع السبب فى بقاء المسيحية فى الحبشة بعد أن قطعها الإسلام قطعا تاما عن مراكز المسيحية فى أوربا . وإذا كان الإسلام قد استطاع أن يغزو ممالك السودان القبطية ، لأن أراضيها سهول استطاع العرب اكتساحها شيئا فشيئا ، فإن نواة الحبشة (أى نواة مسيحيتها) ، وكانت فى الأقاليم الجبلية المرتفعة ، لم يصل إليها الإسلام والمسلمون فى سهولة . ويعلل بعض الباحثين الغربيين بقاء المسيحية فى الحبشة بأن المسلمين عجزوا عن قهر الأحباش المتعلقين بقمم الجبال وسطوح الهضاب .

والحق أن المرتفعات مهما كانت لم تقف قط حائلا بين العرب وفتح أى أقليم إذا شاءوا ذلك ، وجبال الحبشة ليست أمنع من جبال أفغانستان التى اقتحمها العرب ، وأدخلوا أهلها رحاب الإسلام ، ولا هى أمنع من جبال الأطلس ، ولا كان الأحباش بأشجع من البربر . ولكن العرب الذين استولوا على جزيرة دهلك ، ومدينة مصوع الواقعة على الساحل القريبة منها ، لم يهتموا كثيرا بالتوغل فى الداخل ، ربما لأنه لم يوجد فى دفعة الفتح الأولى رجل يلفت نظر الخلافة إلى ضرورة توجيه قوى كافية نحوها . وكانت اتجاهات الفتوح تتوقف كثيرا على وجود رجال أفذاذ من القادة نجحوا فى تنبيه دولة الإسلام إلى أهمية فتوح البلاد ، التى تلى ولاياتهم ، ولولا قتيبة بن مسلم لما بذل المسلمون كل ذلك الجهد لفتح بلاد الترك ، ولولا محمد بن القاسم لما وثب المسلمون إلى حوض السند هذه الوثبة الباسلة ، ولولا عقبة بن نافع ما اهتمت الدولة الإسلامية بأمر المغرب الاهتمام الذى جعل بلاد المغرب كلها بلاد إسلام ، وكذلك الأمر مع طارق بن زياد ، وموسى بن جعفر بالنسبة للأندلس ، ومع مسلمة بن عبدالملك ومحاولات الاستيلاء على القسطنطينية .

ورغم ذلك فقد تكفلت القبائل العربية المهاجرة عبر البحر الأحمر أو الزاحفة من مصر بغزو بلاد البجة ثم بلاد عفر والدناقل ، وإلى هذا يرجع الفضل كما رأينا فى ظهور أهمية عيذاب كرأس معبر من الحجاز إلى أفريقية ، واستولى أولئك العرب أيضا على زيلع وسيطروا منها على طريق هرر التجارى ، المؤدى إلى أعالى الحبشة ، وكثر استعمال تجار العرب لهذا الطريق ، وكالعادة سار الإسلام مع

التجار وطرق التجارة ؛ ونشأت على طول هذا الطريق المؤدى إلى قلب الحبشة إمارات أو مشيخات صغيرة إسلامية ، مثل رافات وأدل ومورة وهبط وجداية جنوبى نهر هوش ، وانتشر الإسلام بين قبائل سدامة الحبشية المستقرة وماحولها من قبائل البدو . ودخل فى الإسلام كذلك ملوك بلاد كوش وأهمها فتجر وداوره وهدية وبلى ، وأصبحت مدينة هرر فى بلاد مملكة دواره مركزا إسلاميا هاما ، وإن تكلم أهلها لغة سامية خاصة بهم . وقد أصبحت هذه الممالك الإسلامية الصغيرة نطاقا حال دون امتداد الحبشة نحو الجنوب والجنوب الشرقى . وكان الصراع دائما وعنيفا بين هذه الممالك وملوك الحبشة . وفى أوائل القرن السادس عشر ، وفى سنة (١٥٢٧) م على وجه الدقة ظهر بين المسلمين زعيم قوى هو الإمام أحمد جرافى ، الذى تمكن من فتح الحبشة وأزال ملك النجاشى ، لكن هذا الرجل لم يعش طويلا إذ قتل فى المعارك سنة (١٥٤٢) ، وبموته تفرق رجاله ولم يتمكن المسلمون من مواصلة الضغط على قبائل المرتفعات حتى تدين للإسلام .

ولكن الاتجاه إلى إدخال الحبشة فى الإسلام تجدد مرة أخرى عندما هاجرت قبائل الجالو الوثنية إلى داخل الحبشة ، فى موجات متعاقبة ابتداء من سنة (١٥٣٧) تقريبا ، وقد هاجرت هذه القبائل إلى منطقة سدامة شرقى بحر الغزال ، وكانت فيها جماعات إسلامية كثيرة فأزالتها فلم يبق الإسلام هناك إلا فى هرر ، وما تبعها من الأراضى وبلاد عفر والصومال . وتوسعت قبائل الجالو واحتلت هضاب الحبشة . وقد أسلم بعضهم وتنصر البعض الآخر . وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت الحبشة تعانى من مصاعب داخلية أتاحت للجاليين المسلمين أن يضعوا يدهم على الكثير من أراضى الحبشة ، ووجد الكثير من قبائلهم مثل الجاللو وراية وبيجو فى الإسلام وسيلة تمكنهم من العيش متميزين عن الأمهريين ، وقد حاولت قبائل الجاللو المسلمة أن تسيطر على النجاشية وهى نواحى المرتفعات .

وخلال القرن التاسع عشر كمل إسلام قبائل الجاللو على يد تجار المسلمين ودعاتهم ، فأصبحت كل أراضيهم أراضى إسلامية ، واشترك فى هذه العملية رجال الطرق الصوفية . وبفضل هؤلاء جميعا أصبحت كل القبائل الساكنة فى حوض نهر جبه إسلامية وأهمها قبائل جما وجيرة ، وليمو وجمه وحيمه أبا جفار فيما

بين سنتى (١٨٢٠ و ١٨٧٠) .

وخلال القرن التاسع عشر أيضا تحولت معظم قبائل أريتريا إلى الإسلام ، وكانت قبل ذلك مسيحية . ومن بين هذه القبائل التى أسلمت مجموعة القبائل المتكلمة بلغة التيجرى ، والقبائل الثلاث المسماة ببيت اسجيدى ، وقبيلة ماريا ، وقبيلة بيلين ، أو بوغوص ، المشتغلة بالزراعة ، ثم قبيلتا مانسا ويوك ، وهنا نجد أن الفضل فى إسلام الكثير من أهل هذه القبائل ، يرجع إلى الطرق الصوفية التى كانت تتبعها القبائل العربية المهاجرة ، وقد ذابت هذه الجماعات المهاجرة فى السكان المحليين ، بعد أن أدخلتها الإسلام .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى عادت الحبشة متماسكة واستعادت وحدتها ، فنهضت من جديد واستطاعت وقف تقدم الإسلام فى أراضيها وقام على رأسها أباطرة أقوياء مثل تاوضروس ويوحنا ثم منلك الذى استعان على المسلمين بمعونات أوربية ، وقد حكم منلك من سنة (١٨٨٩) إلى (١٩١٣) ، وتمكن هؤلاء الثلاثة من توسيع رقعة الحبشة ، حتى ضمت داخل حدودها أعدادا كبيرة من المسلمين والوثنيين .

وعلى الجملة فهناك أربع مناطق ينتشر فيها الإسلام فى هذا الجزء من شرقى أفريقية المجاور لمدخل البحر الأحمر .

١ – يمتد الإسلام بطول ساحل البحر الأحمر ، وهنا يسكن خليط من السكان من أصل حامى (مثل الزيلعيين) ، وثقافتهم عربية الطابع تتجدد باستمرار نتيجة لتوالى الهجرات العربية من اليمن وعسير .

ويتبع هذه المنطقة الساحل الذى يمتد جنوب القرن الأفريقى ، وما فيه من البنادر ، أى المدن ، بعد أن تم إدماجها فى الصومال . وثقافة أهل هذه المنطقة سواحلية أى (بانتو) .

٢ – مناطق الهضاب العليا والوسطى التى تسيطر عليها سياسيا دولة الحبشة المسيحية . وثقافة أهل هذه المنطقة ليست أفريقية . هنا تسكن جماعات الجبرتية وهم أحباش مسلمون أصلا ، وأهل الجالا الشماليون مثل البيجو والرايا والجاللو (وهؤلاء مسلمون) .

٣ - السهول الشرقية والشرقية الجنوبية وكذلك أهل هضبة هرر ، وهنا منازل قبائل البدو من عفر أو (الدناقل) والصوماليين . وقد احتلت قبائل الجاللو بعض هذه المناطق . وهذه المنطقة إسلامية كلها الآن . ولم تسر العروبة إلى جانب الإسلام ، بين أهل هذه النواحى الحاميين (البجة وعفر وساهو والصومال والجاللو) ، فظلت لغاتهم وتقاليدهم حامية كما كانت .

٤ - ورابع هذه المناطق الإسلامية هى منطقة جنوب غربى الحبشة (منطقة الجيبة) حيث دخلت فى الإسلام جماعات من سكان سدامة والميشاجللو .

وإنه لمن الغريب أن المسلمين سهوا عن فتح الحبشة خلال العصور الإسلامية الأولى ، مع أن الحبشة كانت متجرا للعرب فى الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف الحبشة وملكها على أيامه معرفة طيبة ، وقد اختارها لتكون مهجرا أمينا للمستضعفين من أصحابه ، عندما ثقلت عليه أيدى كفار قريش ، فكان من الطبيعى نتيجة لذلك كله أن يستكمل العرب فتح الحبشة ، لأن الحبشة واليمن كانتا دولة واحدة خلال حقب طويلة قبل الإسلام ، ولو أن المسلمين قصدوا الحبشة فى عصر الفتوح الأولى لما وجدوا أى صعوبة فى فتحها ، فقد كانت مسيحية أهلها سطحية جدا ، وكان التقارب بين المذهب اليعقوبى الذى سادها والإسلام ظاهرا ، وبالفعل يظهر أن النطاقين الأول والثانى من مرتفعات الحبشة ، وهما نطاق الديجا والدواينا ديجا دخلا فى الإسلام ، ولم يبق على المسيحية إلا أهل المرتفعات العالية ، وكانوا من القلة بحيث لم تشعر دولة الخلافة بضرورة توجيه جيش خاص لفتح هذه المرتفعات ، ويبدو كذلك أن المسلمين لم يجدوا من النجاشى أى معارضة للإسلام ، فقد كان النجاشى المعاصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا متسامحا لايضع العراقيل أمام الإسلام ، ومادام متسامحا فلم يعد هناك مايدعو لحربه جريا على سنة الإسلام . وقد أطمع تساهل المسلمين قساوسة الأحباش ، فتمسكوا بعقيدتهم ، وحرضوا الناس على البقاء عليها ، ومرت السنون وانكسرت حدة الفتوح الأولى ؛ فسكت المسلمون عن الحبشة ؛ فظلت المسيحية على حالها فيها ، ورغم انقطاع الحبشة عن بقية العالم المسيحى فإن المسيحية ظلت منتعشة فيها ، بفضل اهتمام كنيسة الإسكندرية بها ، وقد غابت الحبشة عن أنظار العالم كله قرونا متطاولة ، حتى المسيحية الأوربية نسيتها ،

وتحولت الحبشة المسيحية عند الأوربيين خلال العصور الوسطى إلى بلد أسطورى يقع فى آسيا أو أفريقية ويعمل فيه أسقف أسطورى يسمى القس يوحنا ، أو Prester jones كما يقال فى اللغات الأوربية ، وقد أشرنا إلى الراهب البرتغالى الذى زار الحبشة فى القرن الثامن عشر ، ونفر مما رآه ، ووصف الأحباش بأنهم غاية فى الجهل والبعد عن المسيحية

وقد تذكرت أوربا بلاد الحبشة المسيحية فى أثناء حركة الاستعمار ، فحاول البرتغاليون الوصول إلى الحبشة ، ووصل إليها بعضهم ، وعاد إلى أوربا ببعض أخبارها .

وتنبهت البابوية فى القرن الثامن عشر إلى أهمية الحبشة كنقطة ارتكاز للدولة المسيحية فى أفريقية ، وأخذت ترسل العيون والجواسيس خلال البحر الأحمر ، متنكرين فى هيئات مسلمين ، وقد وقع الكثيرون من هؤلاء الجواسيس فى أيدى المسلمين ، فعاقبوا بعضهم وأطلقوا سراح البعض الآخر ، وقد أقامت حكومة المماليك مركزا للرقابة فى القصر وآخر فى برقيق عند رأس بناس ، وكان الذين نبهوا المماليك إلى ذلك الخطر هم حلفاؤهم البنادقة ، لأن أولئك الجواسيس كانوا يخرجون إلى مصر من البندقية فى زى التجار ، وقد كتب الكثيرون من أولئك الجواسيس كتبا عن رحلاتهم . ولكن الحبشة لم تتحرك وتنهض من جديد إلا مع حركة الاستعمار ، وكان أول ملوكها الذين حاولوا الإفادة من حركة الاستعمار ، هو تاوضروس أو تيودور ، وكان ملكا غريب الأطوار عنيفا فى عدائه للإسلام ، وقد كتب عنه ألان مورهيد فصلا كبيرا فى كتابه عن النيل الأزرق .

وملاحظة أخيرة قبل أن نختم هذه الإشارة القصيرة إلى الحبشة ، وهى أننا — نحن العرب — أهملنا البحر الأحمر إهمالا معيبا على طول تاريخنا ، فهذا هو البحر الوحيد على الأرض الذى يعتبر بحرا عربيا حقا ، فالبلاد المطلة عليه كلها عربية ، وقد انفردت سفن العرب بالملاحة فيه عصورا متطاولة ، ولكننا أهملناه ولم ننشىء فيه الموانى والمرافىء ، مع أن ذلك حيوى لنا ، وقد كتبنا فى هذه الناحية بشىء من التفصيل فى مقدمة الكتاب الجامع الذى تنشره دار المعارف بمصر بالتعاون مع منظمة اليونسكو .



انتشار الإسلام

جنوبي القرن الأفريقي



كان شرقي أفريقية دائما من المناطق الغنية بمنتجاتها التي تلقى في الغرب قبولا واسعا ، ولهذا كثرت هجرتهم إليه واستقرارهم على سواحله من قديم الزمان ، لممارسة التجارة ، وكان مضيق باب المندب معبرا مألوفا إلى أفريقية قرونا كثيرة قبل الإسلام ، وعندما ظهر الإسلام ودخلت فيه بلاد اليمن بدأ اليمنيون يحملون الإسلام إلى أفريقية في كل سواحل الصومالات ، وكذلك فعل الحضرميون والعمانيون ، ولكنهم أخذوا الإسلام معهم إلى الساحل الأفريقي شمال القرن وجنوبه . وبعد قليل من الزمن ، أصبح الإسلام الدين السائد على السواحل ، ومضى يشق طريقه إلى دواخل القارة .

وقد قسم العرب الساحل الأفريقي الذى ألفوا الوفود عليه إلى أربع مناطق :

١ - ساحل البربرة عند قرن أفريقيا وإلى غربه وجنوبه ، وأهله كوشيون ، وجنوبي مقدشو وسكانه خليط من الكوش والزنج .

٢ - بلاد الزنج أو ساحل الزنج ، وكانوا وثنيين في جملتهم ، وقد أنشئوا مدنا تجارية ساحلية ، وكانوا يخضعون لملك لهم في ممبسة .

٣ - ساحل سفالة وهي أرض الذهب ولهم ملك قاعدته صيونة .

٤ - أرض الواق واق وهي مايلي ذلك من الساحل جنوبا ، وهي أرض مجهولة لانعرف عنها إلا القليل .

وكان المسيطرون على تلك المدن التجارية كوشيين ، في حين أن السكان أنفسهم من البانتو . وكان هؤلاء الأخيرون يتحركون نحو الشمال مع الزمن ، حتى نجدهم في جنوب ساحل البربرة بين سنتي (٥٠٠ و ٨٠٠) ميلادية .

وعندما كتب المسعودى كتاب « مروج الذهب » سنة (٩٣٤) م كان هذا الساحل جنوبى القرن لايزال وثنيا ، ولكن الإدريسى الذى كتب بعد ذلك بقرنين سنة (١١٥٣) يؤكد أنهم دخلوا الإسلام ، وأن كل مواقع ساحل البربرة قد دخلوا فى الدين ، أما الزنج جنوبهم ، فيذكر الإدريسى أنهم كانوا لايزالون كفارا ، فيما عدا سكان جزيرة لم يذكر اسمها والغالب أنها زنجبار . وبعد ذلك بقرن من الزمان (سنة ١٢٥٤) ، يذكر على بن سعيد المغربى فى كتابه « بسط الأرض في طولها والعرض » أنهم أصبحوا مسلمين ، وخاصة قادتهم ورؤساءهم ، وأن مدن الساحل الأفريقى الشرقى قد أصبحت مدنا إسلامية .

وهذه المدن الساحلية هى مقدشو وبراوة وقسمايو ولمو وباته ومالندى وزنجبار وكلوه وموزمبيق ، وكانت لها كلها علاقات تجارية منتظمة مع جزيرة العرب ، والخليج العربى ، والهند ومايليها شرقا . وكان الكثير من هذه المدن الساحلية يقوم على جزر قرب الشاطىء .

وفى الشمال من ذلك الساحل الأفريقى الشرقى ، نجد أن الإسلام أوغل فى الداخل حتى غلب على أهل إقليم سدامة . وإلى الداخل من ذلك الإقليم كانت تسكن قبائل بادية ، لاتشجع الناس على الدخول فى أرضها . ولكن الإسلام أوغل فيها برفق ، وهذه القبائل من شعب بانتو ، وهم لم يكترثوا للدخول فى الإسلام أول الأمر ، ولهذا كان إسلامهم بطيئا .

أما الأفريقيون السواحلية ، ومعظمهم من البانتو ، فقد كانوا مسلمين ، وكان اهتمامهم بالتجارة عظيما ، ولكن الخلافات والمنازعات كانت قائمة بينهم على الدوام ، وقد شغلهم هذا عن الاهتمام بنشر الإسلام فى الدواخل وراءهم . وقد تحولوا،نتيجة لاختلاطهم بالعرب ، إلى جماعة بشرية قائمة بذاتها تميزت بخليط ثقافى إسلامى بانتوى . ونشأ عندهم طراز ثقافى يسمى عادة بالشيرازى ، فيما بين سنتى (١١٥٠ و ١٥٠٠) م

والشيرازية منسوبون إلى على بن سلطان بن الحسن بن على بن أحد سلاطين شيراز من جارية سوداء ، وقد نفر منه إخوته من أمهات بيضاوات ، وأخرجوه من البلاد سنة (٩٧٥ م) ، فذهب إلى أفريقية مع أولاده الستة ، وبضع مئات من

المهاجرين ، واشترى جزيرة صغيرة سميت كلوه ، واستقل هو وأصحابه بالتجارة ، وتبعهم فى ذلك أولادهم ومن دخل الإسلام معهم ، ونشأت منهم جماعة الشيرازية .

وقد أنشأ الشيرازية مراكز تجارية كثيرة على الشواطىء الأفريقية ، وفى القرن الثانى عشر كانوا قد سيطروا على التجارة على الساحل الأفريقى ، من مالندى إلى موزمبيق . وفى القرن الثالث عشر ضرب سلطان كلوة عملة نحاسية ، هى أول عملة تضرب فى أفريقية جنوب خط الاستواء ، وقد زار ابن بطوطة كلوة سنة (١٣٣٢) ، وقال : إن سكان سلطنة كلوة كلهم سود مسلمون . وقد نشر الشيرازية الإسلام داخل البلاد ، ونشأت هناك حضارة متميزة تسمى حضارة الزنج ، أزهرت إزهارا عظيما فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ولقد امتد مجال الحضارة الشيرازية حتى سفالة ، واتسع نطاق تجارتهم حتى الهند بل إلى الصين ، فكانت لهم وكالة تجارية فى بكين ، وكان حجم تجارتهم ضخما إلى درجة أن علماء الآثار وجدوا مقادير عظيمة جدا من قطع الخزف الصينى إلى جوار كلوه . وفى سنة (١٤١٥) ، أرسلت سلطنة كلوة سفارة إلى بكين خرجت من مالندى ولقيت كل إكرام فى بلاط بكين ، وأعادها الأميرال الصينى « تشينج — هو » بسفنه إلى ماليندى .

وقد اختفت هذه الثقافة خلال فترة سيادة البرتغاليين على تلك السواحل ، وبعد ذلك أخذ يسود طراز جديد من الثقافة الأفريقية العربية ، يسمى بالسواحلى ، وهو يحمل طابعا حضرميا ظاهرا .

وقد أضر البرتغاليون بتطور هذه الثقافة الإسلامية ضررا بليغا مع أنهم لم يحتلوا إلا نقطا قليلة على الساحل الأفريقى ، ولكنهم كانوا قوما مخربين نهمين إلى المكاسب والمغانم ، سريعين إلى استخدام النار مع الناس ، فكان أذاهم بليغا من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر الثامن عشر ، حين تمكن العمانيون من طرد بقاياهم وتخريب قواعدهم . وكان لسلاطين عمان علاقات نشيطة مع ساحل أفريقية ، ومواقع العمانيين على الساحل الأفريقى وخاصة زنجبار . وكان أهل هذه المواقع خوارج إباضيين ولكنهم لم يقوموا بأى جهد لنشر مذهبهم فى أفريقية .

وفى خلال هذه الفترة أيضا (من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر الثامن عشر)شهد الساحل الأفريقى موجات متصلة من مهاجرى المسلمين وكان فى جملة المهاجرين نفر من الفقهاء ، فأدخلوا المذهب الشافعى بين أهل السواحل ، وعنى هؤلاء الفقهاء بكتابة السواحلية بحروف عربية ، وكانت قبل ذلك لغة غير مكتوبة ، وأدخلوا فيها أيضا موضوعات الشعر العربى وأوزانه . ومن اختلاط العناصر الحضارية الإسلامية مع بقايا الحضارة الشيرازية والبنتوية ، تكون نسيج الحضارة السواحلية المعروفة لنا اليوم ، وهى حضارة غلب عليها آخر الأمر الطابع الإسلامى .

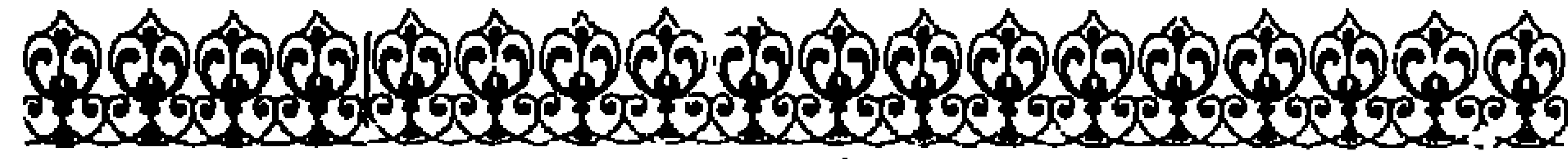
وكان سلطان العمانيين قليلا على مراكزهم التجارية ، على الساحل الأفريقى ، حتى تولى السلطان سعيد بن سلطان سنة (١٨٥٦) ، وقد تمكن هذا السلطان القوى من تثبيت نفوذه فى مسقط ، ثم اتجه باهتمامه إلى الساحل الأفريقى ، وأنشأ فى جزيرة زنجبار قاعدة لسلطانه هناك . وعصر هذا السلطان يعنى تاريخا حاسما فى تاريخ الساحل الشرقى الأفريقى . فإن نشاط المسلمين التجارى بدأ يوغل خلاله فى داخل القارة ، ومع أن المسلمين وصلوا فى أيامه إلى دواخل القارة عند تنجانيقا والكونغو ونياسا ، وأنشئوا محطات تجارية فى عمق القارة ، فإن اهتمامهم بالتجارة كان أشد من اهتمامهم بالدعوة . فلم يدخل فى الإسلام إلا نفر قليل ممن ربطتهم بالعرب روابط تجارية مباشرة فى ذلك الحين . والحقيقة أنه لم يتسع أمامهم الوقت للقيام بعمل حاسم من أعمال الدعوة ، لأن الاستعمار كان يتوغل إذ ذاك فى داخل القارة ، وقد وقف حائلا دون انتشار الإسلام . ومع ذلك فيمكن القول بأنهم فتحوا الأبواب للإسلام ، فلم يلبث الدعاة ورجال الطرق الصوفية أن أوغلوا فى القارة ، ولم يلبث الإسلام أن أخذ ينتشر فى أفريقية الاستوائية .

ونتيجة لهذا نجد أن الذين دخلوا الإسلام من البانتو فى المنطقة الاستوائية أو جنوبها ، هم الذين كانت لهم علاقات تجارية وثيقة مع العرب والسواحليين أول الأمر . أما انتشار الإسلام على نطاق واسع فى تنجانيقا ، فيرجع إلى سنة (١٨٨٠) م بعد احتلال الألمان لتلك المنطقة . ويذهب أهل الاستعمار إلى أنهم ساعدوا على انتشار الإسلام فى أفريقية ، لأنهم فيما يقولون سهلوا طرق المواصلات ، وأقروا الأمن فى البلاد ، ولم يقوموا بأى عمل يوقف سير الإسلام ،

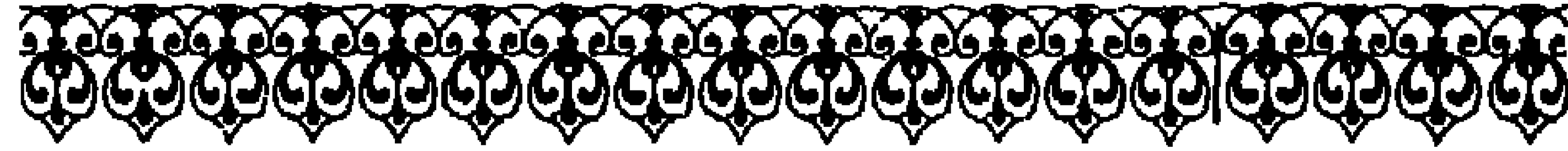
ويقولون إنهم تركوا الإسلام ينتشر لأنهم رأوا فيه نوعا معقولا من التنظيم الاجتماعى يساعدهم على الحكم ، وكذلك يقولون إنهم وجدوا فى الشريعة الإسلامية نوعا من النظام القانونى المفيد في إقرار السلام ، والحقيقة أن أمم الغرب المستعمرة ، كانت مهمتها فى المقام الأول هى الاستيلاء على الموارد واستغلال الثروات ، تاركين أمور العقائد جانبا ؛ فسار الإسلام فى طريقه ، وفى أحيان كثيرة ظنوا أن انشغال الأهالى بالدين يصرفهم عن التنبه إلى النهب ، الذى كان يصيب ثروات بلادهم القومية . كما أن شعب الياو الذى يسكن المناطق الساحلية الممتدة من كلوة إلى موزمبيق وجدوا فى الإسلام تشريفا لهم وارتفاعا بمستواهم عن غيرهم ، فأقبلوا عليه ونالوا به الصدارة والوجاهة ، وبلادهم الآن تتميز عن غيرها بالمساجد الجميلة ذات الطابع الأفريقى المتميز .

ولقد ترك السواحليون أثرا عميقا فى جماعات السود فى قلب أفريقية ، ونشروا الإسلام بين قبائل كثيرة ، تسكن اليوم تنزانيا وكينيا ، مثل الزرمو وماثومبى فى دلتا نهر روفينجى ، فدخلت القبائل النازلة هناك الإسلام ، ولم يتمكن الإسلام بعد من الانتشار الواسع بين البانتو . أما عدم انتشاره بصورة حاسمة فى جنوب السودان فيرجع إلى السياسة المعادية للإسلام التى انتهجها الإنجليز بعد انفرادهم به .





محاولة إنشاء الوطن المصرى السودانى في القرن التاسع عشر وأثرها في انتشار الإسلام في وادى النيل



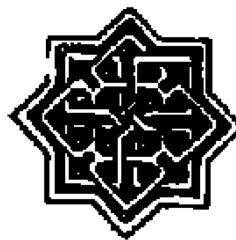
ويكمل الكلام عن تاريخ الإسلام فى أفريقية المدارية والاستوائية بالإشارة إلى محاولة إنشاء وطن مصرى سودانى على يد حكام مصر فى القرن التاسع عشر ، وهذا هو الاسم الذى ينبغى أن يطلق على مايسمى خطأ بفتح مصر للسودان ، أو امبراطورية مصر فى السودان أيام محمد على وإسماعيل . إنما الحقيقة - كما يقول المؤرخ الجليل شفيق غبريال - أن القرن التاسع عشر كان عصر إنشاء القوميات الكبرى كالقومية الإيطالية والألمانية والروسية وغيرها ، وكلها محاولات توحيد بلاد تشترك فى ظروف جغرافية وتاريخية وحضارية ولغوية ودينية واحدة . ومحمد على فى محاولته فتح السودان كان يرمى دون أن يشعر إلى إيجاد وطن مصرى سودانى ، يشمل وادى النيل كله ، واستمر فى المحاولة ابنه عباس وحفيداه سعيد وإسماعيل ، ومن شاركهم فى ذلك العمل ، والعملية مهما كانت دواخلها فى أيام محمد على كانت إكمالا لما تم على يد عرب جهينة ورفاعة ، المهاجرين من مصر ، من نشر الإسلام فى شمال السودان ووسطه وتحويله إلى بلاد عربية إسلامية ، ثم جاءت الخطوة الثانية عندما استقلت مصر فى القرن التاسع عشر ، وشعرت أن كيانها السياسى لايستقيم إلا إذا كانت عضوا فى أسرة قومية كبيرة ، تشمل وادى النيل كله ، بالضبط كما كان رجال الوحدة الألمانية يعملون على خلقها من الإمارات والممالك الألمانية المتناثرة من الراين إلى الدنيبر .

وليس هنا مجال تفاصيل الأعمال العسكرية التى قامت بها مصر فى السودان أيام محمد على وأولاده ، ولكن يكفى أن نذكر أن هذه الأعمال مهما قيل فى

نقدها فقد كانت السبب الرئيسى فى تثبيت قواعد الإسلام فى وادى النيل حتى بحر الغزال ، وهى صاحبة الفضل فى إيصاله إلى منابع النيل ، فلو لم تقم مصر بهذه الأعمال لكان مصير السودان جنوبى سنار والدويم هو مصير بقية بلاد أفريقية الاستوائية ومايليها جنوبا ، كان قد تحول إلى بلاد مسيحية أو ذات أقلية إسلامية . وليس إلى الشك سبيل فى أن هذه الجهود المصرية هى التى رسمت الحدود للسودان كما نراه اليوم ، فالمصريون هم الذين حددوا بلد السودان حتى خط الاستواء بل كانت بحيرات منابع النيل جزءا من دولة مصر والسودان ، وسميت بمديرة خط الاستواء أو أكواتوريا . وإلى المصريين يرجع الفضل فى إيصال الإسلام إلى منابع النيل بصورة منتظمة ومتصلة ، فمنذ سنة (١٨٢١) وهى السنة التى دخلت السودان فيها أول حملة مصرية ، حتى سنة (١٩٢٤) وهى السنة التى نجح الإنجليز بأساليبهم المعروفة فى فصل السودان عن مصر والانفراد به ، على أمل تحويله إلى مزرعة إنجليزية يستغلونها لحسابهم .. خلال تلك الفترة الطويلة عمل المصريون على نشر الإسلام وإرسال وإنشاء المعاهد الدينية والمدارس فى كل بلاد السودان ، مما ربط شعوب السودان النيلى بعضها ببعض وجعلها شعبا سودانيا واحدا ، ولغته العربية وديانته الإسلام ، وهذا أعظم كسب حققه الإسلام والعروبة فى أفريقية ، منذ قرون طويلة ، فقد أصبح أكبر أقطار القارة الأفريقية وهو السودان بلدا إسلاميا عربيا ، يتصل بعدد كبير من البلاد الأفريقية ويفتح أبوابها للإسلام ، فالسودان مفتوح الأبواب على تشاد ، وجمهورية أفريقية الوسطى ، وزائير وكينيا وأوغندا وتنزانيا وبوروندى وروواندا والحبشة وعفر والصومال وإريتريا ، فهو على ذلك قاعدة إسلامية كبرى فى القارة الأفريقية ، وذلك يفرض عليه مسئوليات كبرى حيال الإسلام والعروبة .

ولكى تتبين لنا أهمية الدور الإسلامى العربى الذى قامت به مصر فى السودان فلننظر إلى ما فعله الإنجليز فى السودان الجنوبى بعد أن انفردوا به وأخرجوا المصريين منه ، فقد اتجهت همتهم إلى صبغ السودان الجنوبى بصبغة إنجليزية غير إسلامية فسببوا للسودان بذلك العمل مشكلة كبيرة . ولو لم يبادر المصريون إلى التدخل فى السودان لحماية وادى النيل من أن تبتلعه الموجة الاستعمارية لتمكن الأوربيون من الاستيلاء على السودان من وقت مبكر .

وإننا لنفخر اليوم بالثورة المهدية ، ونعتبر محمد أحمد المهدى من كبار زعماء العروبة والإسلام ، مع أن الانجليز كانوا قد شوهوا سمعته ، بعد أن قضوا على حركته بالطريقة البشعة التى قام بها رجال مثل اللورد كتشنر ، وهذا مثل صغير من أمثلة تصرف الإنجليز فى السودان ، ولانزاع فى أن حركة المهدية كانت بعيدة الأثر فى نشر الإسلام فى السودان ، وتعميمه وتحويله إلى قاعدة كبرى من قواعد الإسلام والعروبة فى القارة الأفريقية .





موارد مختارة
أصول ومراجع



أولا : موارد عربية

إبراهيم على طرخان	مملكة غانة ومملكة صنغاى . الخرطوم
ابن الأثير ، على بن أحمد ابن أبى الكرم	الكامل فى التاريخ . طبعة بيروت سنة ١٩٦١ وما بعدها جـ ٦ ، ٧ ، ٨ .
أحمد بابا التنبكتى	تكلمة الديباج المذهب لابن فرحون . نشرة المستشرقة شيربونو بقسطنطينة بالجزائر سنة ١٩١٠
الإدريسى ، أبو عبدالله محمد	نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، الطبعة الكاملة للكتاب بعناية نفر من العلماء . نشرة معهد الدراسات الشرقية بمدينة نابولى فى إيطاليا ابتداء من سنة ١٩٧١
بارتولد	تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، القاهرة ١٩٣٣
ابن بطوطة ، أبو عبدالله محمد ابن إبراهيم	رحلة ابن بطوطة ، طبعة بيروت ١٩٨٥
البكرى ، أبو عبيد عبدالعزيز	: المغرب فى وصف أفريقية والمغرب (جزء المسالك والممالك) بتحقيق البارون ماك — جوكين دى سلان باريس ١٩١١ .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر	فتوح البلدان ، بتحقيق د . صلاح المنجد القاهرة ١٩٥٨ ثلاثة أجزاء
البيرونى : أبو الريحان محمد ابن أحمد	الآثار الباقية عن القرون الخالية – بتحقيق ادوارد سخاو. لايبزج ١٨٧٨ – ١٨٧٩ وأعادت طبعه مطبعة المفتى في بغداد بالأوفست
الجزنائى ، أبو الحسن على	زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، فاس ١٩٢٢
حسن إبراهيم حسن	تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى . الجزآن الثانى والثالث . الطبعة الثامنة ، القاهرة ١٩٧٦ ، الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤ انتشار الإسلام فى شرقى أفريقية ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٤ م .
الحسن بن محمد الوزان الزيانى (ليو الافريقى)	وصف أفريقيا ، نقله إلى العربية عبدالرحمن حميدة الرياض ١٩٧٩ .
ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن	المقدمة ، طبعة دار الشعب فى القاهرة ، بدون تاريخ ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء القاهرة ١٢٨٤ هـ
ابن خرداذبة	كتاب المسالك والممالك بتحقيق دى خوية ، لايدن ١٨٨٩
ابن أبى دينار القيروانى	المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس. تونس ١٢٨٨هـ
ابن أبى زرع ، أبو الحسن ابن عبدالله أو صالح ابن عبد الحليم	الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس ، طبعة الرباط ١٩٣٨ .
سعد الدين الزبير	امبراطورية رابح الزبير . القاهرة ١٩٥٣

السعدنى ، عبدالرحمن	تاريخ السودان – نشره المستشرق هوداس فى باريس سنة ١٨٩٨
السلاوى الناصرى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد	« الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى » الطبعة الثانية الدار البيضاء ١٩٥٤ فى ١٠ أجزاء
الطبرى ، محمد بن جرير	تاريخ الأمم والملوك ، بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم دار المعارف بالقاهرة ، الجزآن ٩ ، ١٠ القاهرة
د . عبدالرحمن زكى	تاريخ انتشار الإسلام فى غرب أفريقية . القاهرة ١٩٧٧ .
عثمان دان فوديو	الفرق بين ولاية أهل الإسلام وولاية أهل الكفر بتحقيق م . هيكست ، نشر فى مجلة الدراسات الشرقية الأفريقية التى تصدرها مدرسة الابحاث الشرقية والافريقية التابعة لجامعة لندن ، مجلد ٢٣ عدد ٢ سنة ١٩٦٠
ابن عذارى المراكشى	البيان المغرب فى أخبار المغرب . أربعة أجزاء بإشراف د . إحسان عباس . بيروت ١٩٦٢ .
العتبى ،	تاريخ على هامش الفتح الوهبى ، القاهرة . ١٢٨٦ هـ
فيصل السامر	الإسلام فى اندونيسيا ، عالم الفكر مجلد ١٠ عدد ٢ سنة ١٩٧٩ . ص ٤٧٩ وما بعدها
القلقشندى شهاب الدين أحمد	صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب المصرية ، الجزء الثامن
محمد فؤاد شكرى	السنوسية دين ودولة . القاهرة ١٩٦٢
محمود كعت	تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، نشره مع ترجمة فرنسية

	المستشرق هوداس . باريس ١٩٦٣ .
المسعودى ، أبو الحسن على	مروج الذهب ، طبعة القاهرة فى ٤ أجزاء ١٩٥٣ .
مظهر بن طاهر المقدسى	كتاب البدء والتاريخ ، ٦ أجزاء . باريس ١٨٩٩ – ١٩٥٧ .
المقدسى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد	أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ وأعيد طبعه بالاوفست فى بغداد .
مؤلف مجهول ،	تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان ، نشره مع ترجمة فرنسية المستشرق هوداس ، باريس ١٩٠١ .
اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح	كتاب البلدان مع كتاب الإعلاق النفيسة لابن رسته نسخة بالأوفست دون تحقيق أو سنة طبعة



Amadou Hamate Baot Doged,
L'Empire peul du Macina. paris 1956
Amir.Aly, Sayed, A short History of the Soraeens
London 1953.
A. J. Arberry, the Legacy of Persia.
Oxford, 1953
Arkell, History of the Sudan to 1921
Arnold, Sir Thomas, the Preadhing of Islam
3ed. revised by Reynold O.Nicholson.
London, 1935

Bertaux, Pierre, L'Afrique de la Préhistorie à
L'époque contemporainé. Paris 1973
Beroud Vilfars, L'Empire de Gao. Paris 1942
Bovill, E. W., Caravans Of the old Sahara.
London - Oxford 1933.

Browne, Edward G., A Litirary History of Persia
from the Eauliest Times until Frdawsi.
London 1919
R. Capot Rey, Le Sahara Francais. paris 1933
Charles Monteil, les Bambara de Segou et Kaarta.
paris 1924
Carnevin, Histoire de L'Afrique des Originis à Nos
Jours. paris, 1964.
Crawford, O.S.G., The Fung Kingdom of Sennar 1951

Urvoy, Y, Histoire des Populations du Soudan Central
Paris 1936
Historie de l'Empire du Bornou. paris 1949

Fage, J.D., Ghana. A Historical Interpretation
London, 1969

Ferrand, Gabriel, Relations des Voyages et Textes géographiques Arabs, Persans et Turques relatifs à l'Extréme Orient du VII au XVIII Siécles (2 vols) paris 1912

De Gobimeau, Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale. paris 1866

Groaf, A History of Indonesia. 1960

Heyd, W., Histoiré du Commerce du Levant au Moyen Age. Leipzig 1925

History of East Africa ;
Vol 1 by R. Olivier and G .Mathew
Vol 2 by V. Harlow and E.M.Shliver
Vol 3 by Mangery Perham and R.E. Robinson
Oxford, from 1963 - 1966.

Hurgronje, Smouck, Politique Musulmane de la Hollande. Paris 1890

Hurgronje, Snouck, Collected Writings. Vol. IV
Leiden 1962

Lewis, Bernard, The Arabs in History
London 1954.

Mouny, Tableau géographique de l'Ouest Africain du Moyin Age, d'apres les oeuvres ecrites, la Tradition et l'archéologie. Dakar 1961.

Nadi Hassan, History of Persian Navigation. London 1962.

Niven, C.R., A Short History of Nigeria, London 1949

R.Oliver and J.D.Foge, A Short History of Africa London 1962.

Richard Molard, Histoire de l'Afrique Francaise, Paris, 1952.

Rouch, J., Les Songhay.Paris, 1957.

J.Spenser Trimingham, A history of Islam in West Africa. London - Oxford 1969

Vandenberg, Le Hadramawt et les Colonie Arabes dans l'Inde. Paris 1968

Vlekke, Bernard, Nusantra, A History of Indonesia. Bruxelles, 1961

Westermann, Geschichte Afrikas. Koeln 1952

Wertheim, W.F., Indonisian Society in Transition London 1956.

Wingfield, R.J., The History of old Ghana, Mali and Songhai. Cambridge 1957.

الفهرست

رقم الإيداع ٤٣٢٥ / ٨٧
الترقيم الدولى ٤ - ٥٧ - ١٤٧٠ - ٩٧٧

الزهراء للإعلام العربى

الإسلام الفاتح

الزهراء للإعلام العربي